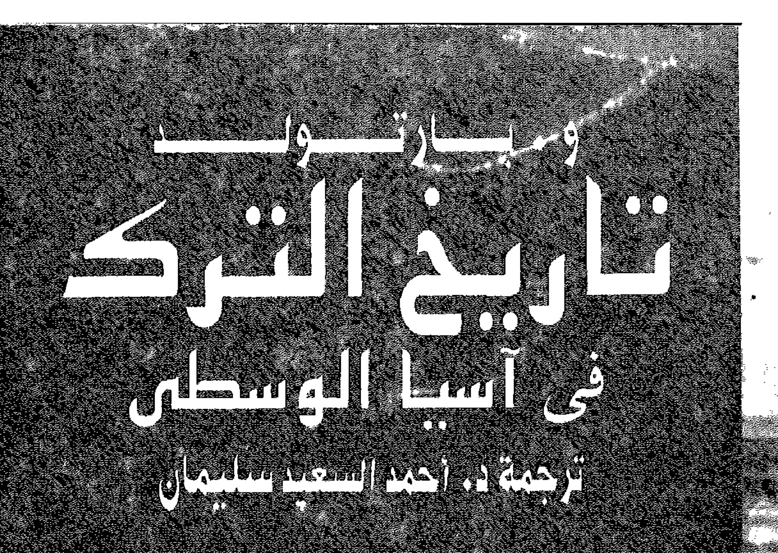


الألف كتاب
الثانى
٢٣٥

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تاريخ الترك في آسيا الوسطى

تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

تأليف

و. بارتولد

ترجمة

د. أحمد السعيد سليمان

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

الفهـــــرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

آسيا الوسـطى شـبه منحرف تحـده من الجنوب جبال الهمالايا ومن الجنـوب الغربى هضبة اليامير ومن الغـرب جبـال تيان شـان ومن الشمال جبـال الألتاى ويابلونوى وستانوفوى ومن الشرق جبال كنجان وكوكونور ٠

وتبلغ مساحة آسيا الوسطى المحصورة بين هذه الحدود حوالى ستة ملايين كيلو متر مربع هى فى مجموعها سـلسلة من الجبال والهضاب الجعدة والمنخفضات ٠

واذا استثنينا الصينيين الذين يسكنون آسيا الوسطى ، أمكن القول بأن العنصرين اللذين يعمران تلك المناطق هما العنصر التركى والعنصر المغولى وهما مدار البحث فى هذه المحاضرات ٠

وقد كنا ــ فى دراستنا لآسيا الوسطى ــ نقنع من المصادر بما روى الرحالة من العـرب والصينيين والأوربيين (١) ،

(١) أهم هذه الرحلات :

(أ) رحلة احمد بن فضلان الذى جاب بـلاد الترك فى سنتى ٩٢١ ـ ٩٢٢ ، وقد نشر العالم التركى احمد زكى وليدى نصها العربى مع ترجمته الالمانية سنة ١٩٣٩ بعنوان :

Ibn Fadenn's Reisbericht leipzig 1930 (Abhandlungen für die Kunde des Morgen Landes. XXIV. 3).

(ب) رحلة أبى دلف ٠

وقد ترجم رور ساو Dr. Alf. V. Rohr Saue الجزء الخاص منها بالترك وذلك فى سنة ٣٩ بعنوان :

Abu Dulaf's Berichle über seine Reise nach Turkeston, China und Ind is.

(ج) رحلة ابن بطوطة (١٣٢٤ ـ ١٣٥٢) ترجمها للفرنسية ٠

= Defrcmeryet, Sanguitti Paris, 1854.

وبكتب الجغرافيا التى حررها العرب ابتداء من القرن التاسع الميلادى حتى القرن الثالث عشر(١) ، وبكتب التاريخ العربية

= (د) رحلة غياث الدين النقاش (فارسية) وعنوانها سفر نامة جين وكان غياث الدين هذا عضوا فى هيئة أوفدها شاهرخ الى الصين سنة ١٤١٩ وقد ترجمها كاترمير الى الفرنسية .

انظر (ج ١٤) Notice et Extraits de Mauusuits .

وأما رحلات الصينيين فأهمها :

(أ) رحلة هيوان ــ تسانج وهى راهب صينى قطع فى سنة ٦٢٠ ميلادية بلاد الترك المعروفين بـ (كوك تورك) فى طريقه الى الهند ، وقد ترجمها الى الفرنسية Stanislas Julfen سنة ١٨٥٧ .

بعنوان : Memoires sur les Contrées Occideutales

(ب) رحلة تسانج تسونج وقد زار هذا الراهب تركستان بينما كان جنكيز خان يغير على المناطق الغربية ، ترجمت رحلته الى الانجليزية ترجمها A. Waley بعنوان : Travels of an alchimist London, 1931.

وأما كتب الرحلات الأوربية فقد حررها التجار الأوروبيون ، ومروجو المسيحية من مبعوثى باباوات روما ، ولويس التاسع وأهمها :

(أ) رحلة بلانو كاربينى وقد أوفده البابا انوسان الرابع الى قاراقورم فى ١٢٤٥ ــ ١٢٤٦ .

(ب) رحلة روبروق وهو قسيس فرانسيسكانى أوفده لويس التاسع سنة ١٢٥٣ الى قاراقورم أيضا : وقد ترجمها الى الانجليزية W. Rochhill
The Journey of William of Rubruck to the eastern part of the World London 1990.

(جـ) رحلة ماركو بولو (١٢٧١ ــ ١٢٩١) وهو تاجر من أهل البندقية سافر الى بلاد المغول وجاب فى الطريق بدخشان وختن وصحراء جوبى واتصل بقوبيلاى وطوف فى شمال الصين وجنوبها ورجع بطريق البحر مارا بالملايو وبورما والهند وايران وقد نشر H. yulé نصها الانجليزى فى لندن سنة ١٨٧٦ ثم طبعت ثانية سنة ١٩٢٩ وترجمها الى الفرنسية : A. J. Charignou .

Le livre de Morco Polo, Pekin (3 Vols) 1924, 26, 28.

(د) رحلة قلاويخو الأسبانى :

وقد أوفد من قبل ملك قسطلة لزيارة تيمور فى سمرقند .

بين (١٤٠٢ ــ ١٤٠٧) وقد نشرت الأكاديمية الروسية النص الأسبانى مع ترجمته الروسية فى بطرسبرج سنة ١٨٨١ .

(١) وأهم هذه المصادر هى كتب المكتبة الجغرافية العربية .
Bildliothneca geogriphorum Arabicorum.

كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (٨٤٠) .

كتاب البلدان لأحمد بن الواضح اليعقوبى كتبه سنة ٨٩١ . =

والفارسية (١) ، ثم بما صنف الآوربيون آخذا عن هـــذه

= اخبار البلدان لابن الفقيه الهمدانى (٩٣٠) ٠

المسالك والممالك للاصطخرى (٩٥١) ٠

المسالك والممالك لابن حوقل (٩٧٦) ٠

أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم لمحمد بن أحمد المقدسى ٩٨٥ ٠

وكذلك تحفة الألبــاب لأبى حامد الأندلسى الغرناطى (١١٦٢) وقد ترجمه gabriel Ferrand الى الفرنسية ١٩٢٥ ٠ J. A. 1925 t. CCVII .

معجم البلدان : ياقوت الحموى ت ١٢٢٩ نشره ووستنفلد فى ليبتزج سنة ١٨٦٦ ـ ٧٣ فى ٨ مجلدات ٠

تقويم البلدان لأبى الفدا وقد نشره مترجما الى الفرنسية ده سلان De Slane وستانيسلاس جويار S. guyard ١٨٤٨ ـ ١٨٨٣ ونشر Ch. Schier النص العربى سنة ١٨٤٦ فى درسدن ٠

مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ت ١٣٤٨ والأجزاء الخاصة بالترك هى الاجزاء الثلاثة الاولى وقد نشر تاشنر Fr. Taeschner سنة ١٩٢٩ القسم الخاص بالاناضول ٠ al-umari's Bericht über anatolien, Leipssig.

(١) اهم كتب التاريخ التى تناولت تاريخ الترك فى آسيا الوسطى هى :

ـ فتوح البلدان للبلاذرى ت ٨٩٧ ونشره ده عويه ١٨٦٦ ٠

ـ تاريخ الأمم والملوك للطبرى ت ٩٣٢ ٠

ـ مروج الذهب لعلى بن الحسين المسعودى ت ٩٥٧ ٠

ـ تجارب الامم لابن مسكويه ت ١٠٢٩ ٠

ـ كتاب البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسى ينتهى بتاريخ حوادث سنة ٣٥٠ (٩٦١) ، نشره مع ترجمته الفرنسية كليمان هيوار Clement Huart بعنوان :

ـ التاريخ الكامل لابن الأثير ٠

ـ تاريخ مختصر الدول لأبى الفرج جريجورس بن العبرى (ت ١٢٨٦) ٠ Gregorius, Bar Hebraeus.

وقد نشره Pocock مع ترجمته اللاتينية فى اكسفورد سنة ١٦٦٣ ثم نشر فى بيروت سنة ١٨٩٠ ٠

ـ زين الأخبار (فارسى) لأبى سعيد عبد الحى الكرديزى كتب سنة ١٠٤٠ وعنى بتاريخ خراسان وقد نشر ميرزا محمد خان القزوينى هذا الجزء الخاص بخراسان سنة ١٩٣٧ فى (طهران) ٠
=

. . . .

= – أبو الفضل محمد بن حسين البيهقى ت ١٠٧٧ تاريخ بيهقى (فارسى) تاريخ السلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، نشره Morley فى كلكتا سنة ١٨٦٢ ثم نشره سعيد نفيسى فى طهران سنة ١٩٤٥ فى مجلد بن ثم نشره بعد ذلك قاسم غنى وعلى فياض وترجمه الى العربيـة الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب والأستاذ صادق نشأت ٠

– تاريخ بخـارى (فارسى) لأبى بكر محمد بن جعفر النرشخى ت ٩٥٩ ، قدم لنوح بن نصر السامانى وقد نشره شيفر Ch. Schefer بعنوان :

Descriptios topographique et bistori que de Bukhara, Paris, 1892.

– تاريخ بيهق : لأبى الحسن على بن زيد البيهقى بن فندق ت ١١٦٩ (فارسى) وقد نشره أحمد بهمنيار سنة ١٩٣٨ فى طهران ٠

– طبائع الحيوان لشرف الزمان المروزى ، نشر مينورسكى القسم الخاص بتـاريخ الترك والهند والصين ٠

Sharaf al-Zaman Tahir Marvazi
on China, the Turks and India, 1941.

ولم يكن هذا الكتاب قد وجد أيام ألقى بارتولد المحاضرات ، انظر ص ٨٨ ٠

– تاريخ جهانكشـا لعطا ملك الجوينى ت ١٢٨٢ نشر فى سلسلة جب فى ثلاثة مجلدات وقد استوزر عطا ملك لهولاكو وتردد كثيرا على منغوليـا ٠

– جامع التواريخ لرشـيد الدين بن أبى الخير الطبيب ت ١٣١٨ ويوشك هذا الكتاب أن يكون أهم مصدر من تاريخ القبائل التركية وتاريخ البدو من التتـار فى عهـد جنـكيز خان ، وبه فصل مهم عن تاريخ (خطاى) او (الصين) ومما يزيد قيمته أن المؤلف عين وزيرا لغازان خان سنة ١٢٩٨ (وقد احتفظ بالوزارة فى عهد أولجايتو وقدم له الكتاب سنة ١٣٠٧ ثم قتله ابو سعيد سنة ١٣١٨) وقد أعانه منصب الوزارة على الاطلاع على الوثائق فى خزائن غازان ٠ وقد أفاد أيضا من (حوليات المغول) المعروفة بالكتاب الذهبى (التين دفتر) ٠

وكان أول من حاول ترجمة هذا الكتاب هو هامر بورجشتال اذ ترجم الجزء الخاص بتاريخ الصين ولكن كلابروت Klaproth وجد فى الترجمة أخطاء كثيرة فنشر ترجمة أخرى فى سنة ١٨٣٣ ٠

Description de la Chine sous la dynastie Mangolt, trav. de persan et accom pagnée de note J. A. serie 11, Vol. XI, 1833.

وقد اعتمد دهسون d'Obseon فى كتابه Histoire de Mongols الذى صدر سنة ١٨٣٤ على كتاب رشيد الدين ٠

وفى سنة ١٨٣٦ بدأ كاتيرمير Quatrmere يترجم تاريخ الايلخانيين عن كتـاب رشـيد الدين بعنوان . Histoire des Mingols la de Perse .

وقد نشر المستشرق الروسى Berezin فى ١٨٥٦ – ١٨٨٨ ترجمة القسـم الأول من الجزء الأول حتى هلاك جنكيز خان وذلك فى أربعـة مجلدات وفى سنة ١٩١٠ نشر =

المصادر (١) ٠

= بلوشيه Blochet تاريخ بعض خلفاء جنكيز خان :
Histoire de Mongols successeurs de Tchnigiz Khan (G. M. S.)

وفى سنة ١٩٤٠ نشر K. Jahn تاريخ غازان بعنوان :
History of Ghazan Khan G. M. S.

ثم ترجم A. K. Arend تاريخ الايلخانيين الى الروسـية ونشره فى لينجراد سنة ١٩٤٦ ٠

- ذيل جوامع التواريخ للطف الله حافظ ابرو (١٤٣٠) نشره خ بيانى فى طهران سنة ١٩٣٨ وترجمه نفس هذا الناشر الى الفرنسية ٠
Hafizi Abru : Chrinique des rois mongols en Iran.

- الملحقات لجمال الدين ابى الفضل بن محمد القرشى وهو ذيل على معجم لغوى ، تناول فيه المؤلف تاريخ القاراخانيين والسلاجقة وخانات الجغتائية ونشرت منه أجزاء فى كتاب برتولد عن تاريخ تركستان ٠

- سفر نامة لنظام الدين الشـامى وهو تاريخ غزوات تيمور ، ترجمه عن الفارسية الى التركية نجاتى لوكال انقره (١٩٤٩) ٠

(١) أوسع هذه المصـادر هو :
Bibliotheque Orientale. ou Dictionnaire Universel d'Herbelat
ظهرت طبعته الاولى ١٦٩٧ والثانية ١٧٧٦ ٠

وللطبعة الثانية ذيل مهم :
Supplement à la Bibliotheque Orientale par C. Visdelou, et A. Gslland

وقد كتب Visdelou حوالى مائتى صحيفة من هذا الذيل تشتمل على معلومات قيمة عن الشرق الاقصى وآسيا الوسطى من الناحيتين التاريخية والجغرافية ، استقاها كلها من المصادر الصينية ٠ شرح فى القسم الأول من هذا الذيل كثيرا من الاصطلاحات التى يستعملها المؤلفون المسلمون عن الصين :

اما القسم الثانى فعنوانه تاريخ بلاد التتـار Histoire de la Tertarie

تناول فيه تاريخ القبائل والشعوب فى منغوليـا وآسـيا الوسطى ٠

ويتناول القسم الثالث دراسة الاصطلاح : (خان) ٠

ويتناول الرابع أسـماء الاماكن والشعوب فى الشرق الأقصى وآسيا الوسطى ٠

ثم يعرض فزدلو تاريخ الخمسة الاول من اباطرة المغول ٠
d'Ohsson J. Holoise des Mangols

تناول تاريخ المغول من جنـكيز خان الى تيمور

Howorth : History of the Mongols.
Barthold : Turkestan down to the Mongol invasion.
R Grousset L'empire de Steppes Pari:, 1947.

وبه مقدمة ببليوجرافية شـاملة ٠

ولكن معلوماتنا عن آسيا الوسطى ما لبثت ـ بفضل البعثات العلمية (١) ـ أن عمقت وتشعبت • وكان أكبر ما أحرزت هذه البعثات من توفيق هو الكشف عن نقوش أورخون ثم حل رموزها على يد العالم طومسن Thomsen في أواسط القرن التاسع عشر ، ولكن هذه البعثات قلت بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم مازالت تقل حتى أصبحت مقصورة الآن على العلماء الروس •

وبارتولد (١٨٦٩ ـ ١٩٣٠) صاحب هذه المحاضرات أحد هؤلاء العلماء كرس حياته لدراسة المنطقة الممتدة من بحر قزوين غربا الى منغوليا شرقا ، وعن هذه المنطقة كتب معظم مؤلفاته •

وقد تناولت هذه المحاضرات تاريخ الترك من عهد ما قبل التاريخ التركى الى أيامنا هذه ، فهى تحدثك عنهم من لدن كانوا قبائل لم يوسموا بعد بالاصطلاح الذى عرفوا به طوال التاريخ وهو كلمة (الترك) الى أن دالت دولهم فى آسيا الوسطى فخضع قسم منهم للروس وخضع الآخر للصين •

ولم يكن بد ، والموضوع على هذا النحو من السعة ، من أن تكون المامات المحاضر ببعض النقاط سريعة مجملة أقرب الى الاشارات المبتورة منها الى الشرح المفصل •

---

(١) بدأت هذه البعثات منذ أواخر القرن الثامن عشر فقد بدأت الأكاديمية الروسية تنظيمها بأمر من كاترينا الثانية ، وكانت هذه البعثات تعنى قبل كل شىء بممتلكات روسيا فى آسيا وكثرت بنوع خاص فى المناطق المجاورة للطرق التى تربط هذه الممتلكات بالشرق الأقصى تجاريا • وكان Prejcvalskii (١٨٣٥ ـ ١٨٨٨) اهم باحث فى هذه المناطق بعد ذلك فلما مات واصل Potanin (١٨٣٥ ـ ١٩١٤) و Koslov الدراسة من بعده وعنى هذان العالمان بالحدود الصينية التبتية •

وفى نفس الوقت عنى بعض العلماء بدراسة منغوليا وفى سنة ١٨٨٩ اكتشف Yadrintsev اماكن العواصم التركية القديمة فى القرنين السابع والثامن •

وكانت اهم البعثات هى تلك التى نظمتها الجمعية الفنية ـ الاوغرية بهسنكى •

اذ استطاعت تصوير نقوش أورخون التى وفق طومسن الى قراءتها • وبعد هذا النجاح كثرت البعثات الأوربية الى أن قصرت أخيرا على الروس •

كما لم يكن بد ــ وقد القى الموضوع محاضرات ــ من أن تكون به شروح واستطرادات كثيرة ، الا تكن جميعها وثيقة الصلة بالموضوع ، فانها جميعها ، تلقى أضواء على جوانبه ٠

وقد عني بارتولد فى كتاباته التاريخية بدراسة التأثيرات الحضارية والدينية واللغوية ، وبدراسة العوامل الجغرافية والاقتصادية ، ودراسة الطرق والمسالك التجارية البرى منها والبحرى ٠٠

ومن هنا كثرت مصادره ، فهو لا يكتفي بالمصادر التاريخية والجغرافية التى أشرنا اليها من قبل ، بل يرجع أيضا الى النتائج التى وصلت اليها البعثات العلمية فى آسيا الوسطى ثم يستعين كذلك بالعلوم التاريخية المساعدة فيرجع الى الأبحاث الأتنوغرافية والأثرية ، كما يرجع كثيرا الى علم المسكوكات Numismatographie يضبط به الأسماء ، ويقف به على دقائق الوضع الاقتصادى فى العهود المختلفة ، ثم يرجع بعد هذا كله الى كتب الأدب والفولكلور ، والى كتب التصوف والمناقب والتراجم ، يدرسها ويستنبط منها ٠

فلا جرم كانت هذه المحاضرات موسوعة مجملة لتاريخ آسيا الوسطى ، كتبها بارتولد وألقاها باللغة التركية فى جامعة استانبول سنة ١٩٢٦ ــ ١٩٢٧ (١) وقد سبق أن ترجمت هذه المحاضرات الى الألمانية فى مجلة العالم الاسلامى الألمانية Die Welt des Islams بعنوان : اثنتا عشرة محاضرة عن تاريخ أتراك آسيا الوسطى ٠

Zwölf Vorlesungen uder die Geschichte der Turken Mittelasiens

ثم ترجمتها م ٠ دونسكيس عن الألمانية الى الفرنسية (سنة ١٩٤٥) بعنوان تاريخ أتراك آسيا الوسطى

Histoire des Turcs d'Asie Centrale.

---

(١) كان ذلك بدعوة من حكومة اتاتورك وكان المراد بهذه المحاضرات ان تطلع الاتراك على الاصول البعيده للقومية التركية ٠

وحاولت المترجمة آن تخرج من هــذه المحاضرات كتابا فعنونتها وعنونت فقراتها ، وحذفت كثيرا من الاستطرادات وأدرجت بعضها في الحواشي ومن هنا كان النص الفرنسي ــ وهو ترجمة الترجمة ــ أسهل تناولا ولكنه أقل معلومات ٠ وقد ترجمنا نحن هذه المحاضرات عن الأصــل التركي ، لم نغادر شرحا ولا استطرادا ثم زودناها بمقدمة ببليوجرافيــة مختصرة وبثلاثة فهارس، ليسهل الأخذ عنها ولتحفز على المضي في دراسة مهد من مهود الشعوب الاسلامية هو آسيا الوسطى٠

أحمــد السـعيد

المحاضرة الأولى :

المراد بهذه المحاضرات هو أن أطلعكم ، بقدر ما تسمح لنا ساعات الدرس ، على ما وصل اليه العلماء الروس والأوربيون عن تاريخ أقوام الترك ، ولكنكم سترون أن النتائج التى وصل اليها هؤلاء العلماء ليست عظيمة المقدار ، وسترون أيضا أن كثيرا من مسائل هذا التاريخ لم يحل حلا نهائيا • والسبب فى ذلك هو صعوبة الأخذ عن المصادر الأولى لتاريخ الترك ، وضرورة الوقوف على علوم ولغات كثيرة قل أن يجتمع العلم بها لشخص واحد •

فلئن اقتضى الأمر عادة أن نتعلم اللغة لندرس تاريخ أصحابها ولنطلع على ألوان حياتهم ، فان لدراسة تاريخ الترك وضعا خاصا • وذلك أن المصادر الأولى لهذا التاريخ لم تكتب بلغة الترك ، ومن هنا كان موقف المتخصص فيه مخالفا تماما لموقف المتخصص فى تاريخ الروس أو آية أمة من أمم أوربا الغربية ، فنحن مضطرون من أجل أن نعرف تاريخ الترك زمان بداوتهم «أى زمان جهلهم الكتابة» الى أن نقرأ حكايات جيرانهم ، فاذا أردنا دراسة تاريخهم بعد أن فتحوا الممالك المتمدينة ، وبعد أن تحولوا هم أنفسهم من البداوة الى الحضارة ، وبعد أن أصبحت هذه البلاد المتمدينة تحت حكم أسر تركية •• اذا أردنا هذا واجهتنا صعوبة أخرى وهى أن الترك فى هذا الدور من تاريخهم تأثروا حضاريا بالعناصر المغلوبة ، وتأثروا أيضا باللغات الأدبية لهذه العناصر ، وبخاصة النثر ، وبدءوا يستعملون فى كتاباتهم لغة هؤلاء المغلوبين • ويمكن أن نقول بلا تردد ان أحوال

الترك المقيمين فى شرق اسيا وخاصة فى منغوليا انما تعرف من المصادر الصينية (يظن كثيرا ان الترك هاجروا من منغوليا فى القرن العاشر الميلادى) ٠

فأما الترك الذين هاجروا الى الجزء الغربى من آسيا الوسطى وتأثروا بالحضارة الاسلامية، فان أحوالهم انما تعرف من المصادر العربية ، ومن المصادر الفارسية بوجه خاص ٠

فأما فى داخل تركستان نفسها، فلم يحرر آى أثر تاريخى فى العصور الوسطى وان كان شىء قد حرر فلابد أنه ضاع ٠ فاذا أردنا الوقوف مثلا على تاريخ خانات المغول فى آسيا الوسطى ، او على تاريخ تيمور وأحفاده ، فاننا لا نكاد نجد ذلك الا فى مؤلفات حررت داخل حدود ايران ٠ والحق أن كتب التاريخ لم تبدأ فى الظهور داخل تركستان الا فى القرن السادس عشر ، وأنها كثرت فى عهد الأوزبك ٠ وقد تكونت فى تركستان ثلاث خانيات أوزبكية ٠ احداها فى بخارى وقد ظلت تستعمل حتى زمن قريب اللسان الفارسى فى المعاملات الرسمية وفى الأدب مع استثناءات قليلة ٠ والثانية فى خيوه وكانت تستعمل اللغة التركية الجارية فى آسيا الوسطى ٠ والثالثة فى خوقند وقد استعملت اللغة التركية أحيانا ، ولكنها كانت تستعمل الفارسية أكثر ، وليس بين الدول التركية جميعها ما يمكن أن نستمد تاريخه من مصادر محررة بالتركية الا الدولة العثمانية ، ولكن لغة المؤرخين العثمانيين تحوى من الكلمات العربية والفارسية أكثر مما تحوى من الكلمات التركية ، وهى لذلك غير مفهومة لكثير من الأتراك ٠ ومن هنا يمكن القول بأنه لا توجد كتب تاريخية كتبت بلغة تركية خالصة ٠ ولئن كان صاحب الدراسات الفارسية لا يستطيع حتما أن يكون مؤرخا لايران (من المعلوم أن تاريخ ايران حتى عهد المغول لم يكتب بالفارسية واننا مضطرون لدراسته فى المصادر العربية واليونانية) فكذلك صاحب الدراسات التركية لا يمكن أن يكون مؤرخا للترك

الا نادرا ، اذ ربما اقتضت دراستك فترة من تاريخ الترك أن تكون أولا صاحب دراسات صينية ، وفترة ثانية ان تكون صاحب دراسات عربية ، وثالثة أن تكون صاحب دراسات فارسية ٠

ومن الآثار التي تهم صاحب الدراسات التركية وتهم المؤرخ ايضا اثار اورخون ، وهي تخلد اقدم ذكرى للسان التركي ٠ وقد اكتشفت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهي أقدم آثار تركية أنشأها الترك أنفسهم عن تاريخهم ، فأصحاب هذه الآثار قد سموا أنفسهم لأول مرة في التاريخ بالترك ، وهم قوم ظهروا في القرن السادس واستولوا في زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين الى ايران وبيزنطة ، ونحن من أجل ذلك الجوار نملك مصادر مختلفة تحدثنا عن هؤلاء الأتراك ٠

ولا يعرف تاريخ البدو الذين سبقوا هؤلاء الا الصينيون ، وقد كان معروفا ــ حتى قبل أن تحل نقوش أورخون ــ أن هؤلاء القوم الذين أقاموا لأنفسهم دولة في القرن السادس هم الترك ، ولئن كان تفسير كلمة Tu — Küe (تو ــ كه ــ ئه) الواردة في المصادر الصينية بمعنى «الترك» موطن خلاف ، فان كلمة توركوا Turkoi الواردة في المصادر البيزنطية قد قبلت على أنها بمعنى الترك بلا خلاف ٠

والفرق بين حكومة الترك في القرن السادس وبين غيرها من حكومات البدو هو أن الدولة عند أتراك القرن السادس كانت منذ نشأتها تحت امرة أسرة ، لا تحت امرة شخص ٠ وبناء على هذا ، فقد كان الخانات الحاكمون في غرب البلاد مستقلين من بداية أمرهم استقلالا تاما ، فكانوا يستقبلون السفراء ويعقدون المعاهدات دون أن يراجعوا في ذلك الخاقان الأكبر « باشخاقان » المقيم في الشرق كما كانت تفعل القبيلة الذهبية « آلتين أوردو » في أواخر عهد المغول ، ورغم أن دولة أتراك الغرب T'ou Kiue لم تكن تبلغ في

آواخر أيامها درجة دولة المغول، الا أنها كانت تتصل ثقافيا بالخارج وكانت واسطة لاتصال حضارة الشرق الأقصى بحضارة غرب آسيا، ومن هنا عنى بها علماء أوروبا وبخاصة أصحاب الدراسات الصينية • وآية هذه العناية الكتاب الذى وضعه عالم الصينيات الفرنسى شافان Chavannes فى أوائل القرن العشرين والذى نشرته الأكاديمية الروسية والذى تناول أتراك الغرب هؤلاء •

وفى هذا الكتاب قارن المؤلف بين الأخبار التى سجلها الصينيون عن هؤلاء الأتراك وبين المعلومات التى وردت عنهم فى المصادر الاسلامية والبيزنطية والأرمنية ، هذا على حين أن أتراك الغرب أنفسهم لم يتركوا عن تاريخهم الا بعض نقوش يسيرة على شواهد القبور •

نقوش أورخون

وتتناول نقوش أورخون فترة نصف قرن فقط من ٦٣٠ الى ٦٨٠ وهى الفترة التى كان أتراك الشرق فى أثنائها تحت حكم الصين • وتتحدث كذلك عن أن هؤلاء الترك قد استطاعوا الحصول على استقلالهم تحت قيادة بعض الخانات الجدد ، وأن هؤلاء قد استطاعوا فى زمن قصير أن يخضعوا لحكمهم أبناء جنسهم من أتراك الغرب ، ومع أن العالم الدانمركى طومسن Thomsen قد قرأ هذه النقوش منذ ثلاثين سنة (١) فانها مازالت موضع بحث وتأويل ودراسة • ويجب على من يعتمدون على ترجمة هذه النصوص « لأنهم لا يفهمون لغة النص الأصلى » أن يتحفظوا فى استنتاجاتهم التاريخية ، ولا شك أن لتراجم طومسن ورادلوف قيمة كبرى فى توضيح هذه النصوص • وكان طومسن قد أعلن بعد أن نشر ترجمته الأولى أنه لن يشتغل ثانية بهذه النقوش ، ولكنه لحسن الحظ لم يحقق هذه النية ، ووضع عنها عدة أبحاث ،

(١) اى منذ ستين سنة الآن •

وقد نشرت محاولته الاخيرة لترجمة هذه النصوص في المجلة الشرقية الألمانية Z.D.M.G سنة ٢٤ ـ ٢٥ .

ومع أنه في محاولته الأخيرة قد قام بتصحيحات صائبة موفقة لترجمته الأولى، فمازالت في ترجمته فروض قد تسوق القارىء الى اخطاء جسيمة . فمن ذلك ما يسوقه طومسن في ترجمته لوصف معركة اشترك فيها كول تكين أخو الخان ، ففي أثناء المعركة رمي الأعداء كول تكين بأكثر من مائة سهم أصابته ، ووردت في نقوش أورخون (بحسب قراءة طومسن) عبارة « يارقندا يالماسيندا » وقد ترجمها طومسن هكذا « في تطهيمته والهلال الماسى الذى على جبينه » وهكذا قرأ كلمة « يالما سيندا » كأنها آى ـ آلما سيندا ومعنى هذا أن كول تكين كان يضع على رأسه مغفرا في شكل هلال مزين بالماس ، وان صح هذا لكان أمرا مهما عند المؤرخين ولكن معنى كهذا لا يمكن مع الأسف أن يخرج من النص .

ولما لم اكن من أصحاب فقه اللغة فاني لا استطيع الجدل في معاني الكلمات ولكني مع هذا سأكتفي بالقول بأن هناك كلمات مكتوبة برسم واحد ، ولكن قراءتها وترجمتها كانت تختلف من موضع الى موضع، ويخيل الى أن مثل هذا التصرف لا يقبل الا في حالات الضرورة القصوى وقد كان طومسن في غنى عن هذا التصرف ، بل انه لو لزم معنى واحدا للكلمة لكانت الترجمة أكثر استقامة وتوفيقا . ومن الأمثلة على ذلك كلمة أولمك olmek بمعنى الموت فانها ترد كثيرا في النص، وتستعمل أحيانا بصدد شعب بأسره ولا شك أن معناها في مثل هذا المقام ليس الموت بالمعنى الأول للكلمة وانما معناها الاضمحلال والتشتت وأن هذا الشعب ينهض بعد حين ، وقد فهمها طومسن على هذا النحو ، ولكنه مع هذا يقرأ هذه الكلمة أحيانا وبغير ضرورة : (أولمك ülmak) ويكون معناها عندئذ الانقسام ، ولو لم يغير طومسن الكلمة ولا معناها واحتفظ لها بنفس الترجمة الأولى « اضمحلال » لكان المعنى أكثر

توفيقا وخاصة فى مثل عباره « يا كيليب أولمك » اى هلك بالاثم ، فمع أن العبارة تفيد أن الهلاك كان نتيجة حتميه لما ارتكب من خطأ ، فان طومسن يترجمها هكذا .. « انك انقسمت لأنك خنت العهد » وهى ترجمة خاطئة فيما أظن .

وكان رادلوف قد ترجم هذه العبارة ترجمة صحيحة فى ترجمة له قديمة . وقد نشرت ترجمة طومسن أول الأمر باللغة الدانمركية ثم نشرت مرة ثانية بالألمانية باذن منه وبعد أن أدخل عليها بعض التصحيحات بنفسه . وقد ادعى مترجم هذه الترجمة الألمانية أنها بلغت الكمال وأن ترجمة رادلوف قد أصبحت بعد ظهور الترجمة الألمانية عتيقة . ولكننا بعد أن سردنا الأمثلة المتقدمة وبرهنا على أن قراءة بعض المواضع مازالت خلافية نقرر أنه توجد فى ترجمة رادلوف تأويلات أصح من تأويلات طومسن .

النظام السياسى والاجتماعى عند أتراك الأورخون

وتصور نقوش أورخون حياة قوم من البدو وحكومتهم وقد سبق أن بين رادلوف الفرق بين قيام الدول البدوية وانقراضها، وبين ما يفهمه الأوربيون من هذا اذا هم تحدثوا عن « الدولة » بالمعنى الحديث وذلك فى كتابه Aus Sibirien وأيضا فى مقدمة طبعة قوتادغو بيليك وقد ترجمت هذه المقدمة الى الروسية بعنوان : (حول مشكلة الأويغور) وقد أيدت نقوش أورخون نظريات رادلوف كما أقر بذلك طومسن .

ويرى رادلوف أن البدو لا يفكرون فى الظروف العادية فى أن تضمهم رابطة سياسية ، بل يرى كل فرد أن أصول الادارة فى العشيرة تكفل له الأمن ، أى أن الجماعة فى هذا الدور من أدوار التطور تكون من القوة بحيث تنفذ ارادتها دون وجود سلطة تنفيذية ، بل تجرى أمورهم طبقا للعرف

الذى تولده علاقات العشائر بعضها ببعض بغير حاجة الى عقد ميثاق أو الى تكوين جهاز ادارى ، على أن الخانات وهم رمز السلطة فى الدولة كانوا يستطيعون فى أحيان نادرة أن يخضعوا لحكمهم شعبا كاملا أو عدة شعوب ، وكانوا فى مثل هذه الحال يقبضون على أزمة الأمور بالقوة فلا هم يعينون ولا هم ينتخبون ، وانما يجد الشعب أو تجد جماعة الشعوب نفسها أمام الأمر الواقع فتقبله بلا مقاومة ، أو تضطر الى قبوله بعد مقاومة طويلة . وكان الخان لا يستطيع اخضاع قومه الأقربين من البدو الا بعد معارك دامية قد تكون أحمى وطيسا من تلك التى يخوضها فى غزو البلاد المتحضرة . وكانت غنائم هذه الحروب هى التى تصلح بين الخان وبين قومه .

وتؤكد نقوش أورخون أن الخانات كانوا ينحدرون من الأتراك الغز أو التغزغز ومع هذا ، فانهم يحاربون دائما قبائل الغز وغيرها من قبائل الترك .

وتمدنا نقوش أورخون ، عن هذه الحروب الداخلية بمعلومات أكثر تفصيلا مما تمدنا به عن الحروب مع الصين وغيرها من البلاد المتحضرة المجاورة . وكانت هذه الحروب الخارجية فى نظر الخان وأتباعه وسيلة طبيعية للحصول على الغذاء والكساء للجياع والفقراء .

وقد تناولت هذه النقوش عاملا من عوامل قيام الدولة عند البدو غفل عن ذكره رادلوف وذلك العامل هو اشتداد النزاع بين الطبقات وتوتر العلاقات بين الأغنياء والفقراء وبين « البكوات » والعامة . وتروى هذه النقوش أنه حين حكم الصينيون بلاد الترك سارعت الأرستقراطية التركية — استبقاء لامتيازاتها — فوطنت نفسها فى يسر على ذل الحكم الأجنبى وتنكرت للتقاليد وللعادات القومية فكانت لذلك خائنة . هذا على حين لم يسغ العامة الحكم الأجنبى بسهولة ، ولم يتخلوا عن تقاليدهم ، بل ازداد بغضهم للبكوات بسبب

تقليدهم للصينيين وتخلقهم بأخلاقهم . وقد أفاد أبناء الخان من هذا الوضع فأثاروا الشعب ضد الحكم الصيني وحصلوا بذلك على الاستقلال للدولة التركية .

وفي تاريخ الأقوام البدوية لآسيا الوسطى مثل آخر لشعب ، ولدولة قامت نتيجة للصراع الداخلي بين الطبقات ، وتلك هي دولة جنكيز خان أو دولة المغول . الا أن هذه الدولة قامت نتيجة انتصار الأرستقراطية ، فقد كان جنكيز خان ــ مثله كمثل خاقان الترك في القرن الثامن ــ لا يذكر مصلحة العامة ولكن يتحدث عن الخدمات التي أداها لأبناء طبقته من أصحاب الأرستقراطية . والحق أن هذا النصر للأرستقراطية قد ضمن لها ولطبقة البكوات حياة آمنة في الوطن ونصيبا عظيما في غنائم الحروب .

والمعلومات الخاصة بكفاح هذه الطبقة لم تحفظ الا في قصص البطولة المغولية ولا ذكر لها في المصادر الصينية ولا الأرمنية ولا الأوربية ، وكذلك لا يوجد في المصادر الصينية ولا في غيرها ذكر للصراع بين الطبقات في ذلك المجتمع التركي ، ولو كان البدو قد سجلوا عن أنفسهم أكثر مما سجلوا لكان أثر الصراع بين الطبقات في تكوين دول البدو أكثر وضوحا .

وتشتمل نقوش أورخون على كثير من المعلومات الخاصة بالنظام الداخلي للدولة التركية فهي تعدد مثلا أسماء المناصب المختلفة وان كان من المحتمل أن تكون أسماء هذه المناصب لم تقرأ قراءة صحيحة . وعلى أية حال ، فانه يفهم من الأسماء التي أمكن قراءتها حتى الآن أنها ليست من أصل تركي وانما وردت على الأتراك من الخارج فمثلا اللقب شاد « وهو لقب أعضاء أسرة الخان الذين يرأسون القبائل » يحتمل أن يكون فارسيا وأن يكون أصله كلمة شاه . ومما يلفت النظر أيضا وجود علامة الجمع المغولية وهي حرف التاء في أواخر بعض هذه الأسماء . وقد ذهب الأستاذ بليو Pelliot في محاضرة

له القاها فى لينجراد خريف سنة ١٩٢٥ الى أن الأبر Les avares المذكورين فى المصادر الصينية باسم « جو ــ جن » J'ou-Jan من نسل المغول ، وذهب كذلك الى أن أسماء المناصب المنتهية بحرف « ت » ليست الا ميراثا أخذه الأتراك « تو ــ كيو » عن المغول · ويرى بليو أن الترك أخذوا أصول الحكم ونظام الدولة عن الأبر ·

وتدعونا هذه المسالة الى ان نتساءل : كيف كانت العلاقات بين الترك وبين الاقوام المتمدينة فى الغرب من ناحية وبينهم وبين من سبقهم من البدو في اوربا وآسيا من ناحية اخرى؟ ·

كان يعتقد حتى زمن قريب أن مدنية الشرق الاقصى لم تتاثر مطلقا بالمدنية الغربية ، وأن الأقوام التى عاشت فى منغوليا لم تتاثر بدورها الا بحضارة الصين، وقد ذهب ادجار بلوشيه فى الكتاب الذى نشره سنة ١٩١٠ بعنوان « مدخل تاريخ المغول لرشيد الدين » الى أن كل كلمة غير تركية فى نقوش أورخون فهى صينية ، وذهب كذلك الى أن المغول عرفوا منذ أقدم عصورهم حضارة الصين وأنهم لم يقفوا على الحضارة الاسلامية الا بعد أن تكونت لهم حكومة قومية وبعد أن خرجوا لفتح بلاد الاسلام · ولعل أقوى ما تنقض به هذه الفكرة هو وصول الرسم الأبجدى من غرب آسيا الى الترك فى القرن الثامن والى المغول فى القرن الثالث عشر ·

أبجدية نقوش أورخون

وقد لوحظ منذ عرفت آثار ينيسى فى القرن الثامن عشر أن حروفها هى عين الحروف المسطورة على آثار الأورخون، ولوحظ أيضا أن بعض هذه الحروف يشبه حروف الأبجدية الأوربية ، وأن الحروف التى على آثار ينيسى أقدم من الحروف التى على آثار أورخون ، ويحتمل أن ترجع الى القرن السابع ·

ولكن ليس من الممكن تحديد تاريخها بالضبط · ومما يلفت النظر فى نقوش ينيسى أنها لم تستعمل أى تاريخ حتى

ولا طبقا لتقويم الاثنى عشر حيوانا ، وهو التقويم المستعمل عنـد أتراك الاورخون ، وبما ان القيرغيز فى ذلك الزمان كانوا يقيمون فى سهل ينيسى الأعلى طبقا لما ترويه المصادر الصينية والمصادر الاسـلامية . فيحتمل أن تكـون هـذه الحروف هى حروف القيرغيز .

وتروى المصادر الصينية أن تقويم هؤلاء القيرغيز هـو تقويم الاثنى عشر حيوانا ، بل لقد ذهب بعض العلماء الى أن القيرغيز هم مبـدعو هـذا التقويم . وقد درس العـالم الفنلندى دونر Donner أصل نقوش اورخون وينيسى ورأى أن هذه النقوش تشبه الكتابة الموجودة على مسكوكات الدولة الاشـكانية التى وليت الحـكم فى ايران من القـرن الثالث ق . م . الى القرن الثالث بعد الميلاد .

وقد عثر الباحثـون فى المنطقـة التى يحـدها شرق تركستان وغرب الصـين عـلى وثائق مكتـوبة بلغة ايران الشرقية وهى اللغة التى تسمى عادة لغة الصغد « والصـغد منطقة فى حوض نهر زرفشان محصورة بين مدينتى بخارا وسمرقند » . وترجع هذه الوثائق الى القرن الأول الميلادى ويرى جوتيو gauthiot ، وهو أكثر العلماء اشتغالا بآثار الصغد ، أن نقوش أورخون وينيسى مأخوذة فى الأصـل من الحروف الصغدية وأنها ترجع الى رسم قديم لهذه الكتـابة يرجع الى ما قبل القرن الأول للميلاد ، هذا عـلى حين أننـا لا نستطيع ارجاع النقوش التركية التى عثر عليها الى ما قبل القرن السابع ، وبناء على هذا فانه ما لم يعثر على أثر تركى تشابه كتابته الكتابة الأولى للصغد ويقاربها زمانا ، فانه لن يمكن تعيين أصل الأبجدية التركية القديمة تعيينا علميا .

ولم يكن الترك يكتفون بأن يستعيروا الأبجدية كما هى بل كانوا يضيفون اليها علامات من عندهم فمثلا اذا أرادوا التعبير كتابة عن جرس الكلمة التركية (أوق) رسموا سهما هكذا « ↑ » ذلك أن السهم يسمى بالتركية أوق وبالاضافة الى هذا فانهم أخضعوا الأبجدية المستعارة للقوانين الصوتية للغة

التركية وبخاصة قانون تناسب المقاطع ويمكن لهذا أن يقال ان أقدم أبجدية استعملها الترك كانت أكثر تطورا من بعض الأبجديات التى استعملوها فى الأزمنة الأخيرة (١) . وليس بعيدا أن يكون الترك قد كتبوا وثائق أخرى بهذه الأبجدية وأنهم لم يقتصروا على كتابتها فوق الآثار، ويلاحظ أن الرسم الخطى لهذه الأبجدية كان أكثر ضبطا وتطورا فوق أثر أقامه أحد أحفاد الخان لجده ، وأثر آخر أقيم باسم «تونيوقوق» وهو رجل استوزر لثلاثة خانات ، ويدل أسلوب هذه النصوص على أن نصيب الترك من المدنية لم يكن منخفضا بنسبة ما كانوا عليه من حياة البداوة حتى ان الخان ليدعو جميع أقوام الترك الى أن تنظر فيما خلف من آثار لترى ألوان ما أحرز من نجاح ، ولترى المشاكل التى واجهها نتيجة لعصيان الشعب ، وانه ليصعب أن نعتقد أن الشعب كان كله قارئا كاتبا ولكن وصية الخان هذه تدل على أن سلطاته وواجباته كانت أوسع مما تصور شافان حين زعم أن الخان انما يصف فى هذه الكتابات رؤيا مجد عنيف Rêve de gloire brutale ، فان هذه النصوص تبكى الدماء التركية التى أزيقت أنهارا فى الأيام السود ، ولكنها لا تذكر ما أراق الأتراك من دم العدو ولا تصرح بعدد القتلى منهم ولا تفخر بما أظهر الترك فى حومة الوغى من عنف وتعطش للدم ، على حين أن كل هذه الأمور كانت مدار فخر فى نقوش الحكام الآشوريين .

الدين

اذا أردنا أن نفهم الحياة الروحية لقوم ما وجب أولا أن ندرس عقائدهم الدينية . ولكن الآثار الموجودة لا تذكر شيئا عن هذه العقائد ، وان كانت تتحدث عن عبادة السماء

(١) يعرض المؤلف هنا بالخط العربى وذلك فى سنة ١٩٢٧ أى قبل أن تفرض الأبجدية اللاتينية فى تركيا بعام واحد - (المترجم) .

والارض ، وذلك آننا كثيرا ما نصادف فى تلك النقوش عبارة تورك كوكى « سماء الترك » وعبارة تورك يرصوبى «ارض الترك وماؤهم » وتستعمل كذلك كلمة (ته كرى) بمعنى « سماء » وبمعنى « الآلوهية » • ويمكن أن نستنتج من العبارات المشتملة على كلمة يرصوب اى « الأرض والماء » أن الارض والماء يكونان ألوهية واحدة لا ينفصل جزآها وانه لا يراد بهذه الكلمة مجموعة الأرواح الآرضية ، وانما يقصد بها اله واحد معين • وقد زاد طومسن غموض هذه الكلمة « يرصوب » فى ترجمته الأخيرة ، حيث ذكرها بصيغة الجمع « أراضى الترك ومياههم المقدسة » • ومن بين الآلوهيات المنعزلة عن غيرها يذكر روح واحد هو الروح الحارس للأطفال الرضع والمسمى (آوماى) umay وقد كان الخان يقرن دائما بين هذا الروح الحارس وبين أمه • ومازال الاتراك الشامانيون فى الألتاى يقدسون أوماى حتى أيامنا هذه •

ولا شك أن الأتراك (توكيو) كانوا شامانيين مع أن الكلمة التركية المقابلة لكلمة (شامان) وهى « قام » لا ترد آبدا فى النقوش الأثرية ، وتذكر نقوش ينيسى كلمتى (ته كرى) و (بل Be) ولا شك أن Bel هذا هو آحد الأرواح (الجن) التى يقدسها الشامانيون وان كانت هذه الكلمة لم ترد فى نقوش أورخون الأثرية ، ومع أن انتشار الديانات المتحضرة بين الترك كان موضوع بحث فى المصادر الصينية فانا لا نجد شيئا بخصوصه فى نقوش أورخون • وتروى المصادر الصينية أن الخان آراد اقامة معبد بوذى فى عاصمة ملكه ولكن مستشاره (تونيوقوق) حوله عن هذا الرأى بقوله ان الديانة البوذية تؤثر تأثيرا سيئا على خصائص الترك العسكرية •

هذا وما زالت المعلومات قليلة عن الدعاية الدينية الآتية من الغرب • وقد كان انتشار الأبجدية الايرانية بين الترك نتيجة محضة للعلاقات التجارية (مثلها كمثل الأبجدية الفينيقية فى العصور القديمة) ومن هنا، فلم يكن لانتشارها

بين الترك أى تأثير دينى فضلا عن أن الديانة القومية للايرانيين وهى الزرادشتية لم يكن لها نشاط تبشيرى عالمى، وقد ظلت الولايات الشرقية لايران مفصولة عن الولايات الغربية بعد فتح الاسكندر وتعرضت بذلك للتأثير البوذى الوافد من الهند ، وقد كان مروجو الديانة البوذية من الهنود يستخدمون فى تبشيرهم الأبجدية الهندية · وان بين أيدينا الآن بفضل البعثات الأوربية لكشف الآثار وثائق تركية مكتوبة بالحروف الهندية · ومع هذا فان البوذيين ما لبثوا بعد استخدام هذه الحروف أن تحولوا بسرعة الى الحروف

الصغدية التى انتشرت بينهم فيما بعد كما سنرى · وقد دخلت فى آسيا الوسطى أبجديتان أخريان هما الابجدية المانوية والأبجدية السريانة ، وذلك أن الديانتين المانوية والمسيحية دخلتا هذه المنطقة ابتداء من القرن الثالث الميلادى ودخلت مع كل منهما أبجديتها الخاصة، ومع أن المانوية ترمى الى التوفيق بين الزرادشتية والمسيحية والبوذية ، فانها فيما يبدو دخلت فى آسيا الوسطى قبل المسيحية ومعنى هذا أنه قد نشأت علاقة بين الدين وبين الأبجدية فاستعمل المانويون أبجديتهم واستعمل النصارى أبجدية أخرى سموها السريانية · وكانت الفرق المسيحية المختلفة التى انتشرت فى آسيا

تستخدم أنواعا مختلفة من هذه الأبجدية السريانية وهكذا ظل الترك والايرانيون الذين قبلوا المسيحية أو المانوية ، يستعملون أبجدية هذه أو أبجدية تلك بحسب الديانة التى أدخلوا فيها · ومع هذا فان هناك نصوصا مسيحية ومانوية كتبت بالأبجدية القومية ، وهى الأبجدية الصغدية ويوجد الى هذا نص مانوى كتب مرة بالمانوية وأخرى بالصغدية · ولم تكد تسقط دولة الأتراك الغز حتى أخذت المانوية تنتشر بين الترك على نطاق واسع كما سنبين فيما بعد · والآن نتساءل : الى أى مدى كان نجاح التبشير الدينى مطردا مع اتساع التجارة الصغدية فى الاستبس فيما بين القرنين السادس والثامن ؟ لا شك أن الطريق التجارى المؤدى الى الصين كان

مجالا لنشاط المبشرين والتجار من الصغد ، وقد تأسست فى هذا الطريق مستعمرات صغدية حتى منطقة لوب ــ نور · وقد أدت أبحاث بليو الى اثبات أن مستعمرة صغدية أقيمت فى لوب ــ نور فى القرن السابع وأنها كانت لا تزال تتمتع بعد قرن من الزمان بنوع من الحكم الذاتى ، وفى نفس الــوقت كان التجار من الصغد يجدون لبضائعهم ســوقا فى منــاطق الاستبس التركية ، وبخاصة فى معسكرات الخان ، وعلى هذا النحو تكونت مستعمرات صغدية فى تلك المناطق ·

ويروى السائح الصينى هيــوان ــ تســانج الذى جاب آسيا الوسطى حوالى سنة ٦٣٠ أن مدنا تجارية صغدية كانت موجودة فى المناطق التى يسكنها أتراك الغرب والتى كانت تمتد حتى نهر جو ·.وعلى الرغم من أن هذا السائح قد مر بالساحل الجنوبى لبحيرة ايصيغ ، فانه لا يذكر المدن الواقعة هنـــاك ·

ولكنا نجد ذكر بعض المدن المؤسسة فى تلك المنطقة فى ثنايا تاريخ أسرة تانج Tang (الا أن تاريخ آسيا الوسطى ينتهى بتاريخ الأحداث التى وقعت فى الســنوات الأولى من القرن التاسع) ·

الشــامانية

تظهر العقائد الشامانية فى مراسم الجنائز والدفن عند الترك ، وتروى المصــادر الصــينية أن الأتراك يقيمون الى جوار قبور الجند تماثيل لقتلى هؤلاء ، وقد عززت نقــوش أورخون هذه الرواية الصينية ، وهى تحدثنا بأن هذا النوع من التماثيل كان يسمى «بالبال» Balbal ، ويظهر أنها كلمــة من أصل صينى ·

ولكن نقوش أورخون لا تحدثنــا عما اذا كانت هنــاك مراسم خاصة تقام فى أثناء وضــع هــذه التماثيــل ، فأما المصادر البيزنطية فتحدثنا بأن الرؤساء العســكريين الذين

يقعون في أسر الترك كانوا يذبحون عادة الى جوار قبر الخان ، ولا شك أن أساس هذا التقليد يرجع الى عقيدة توجد عند شعوب أخرى شامانية ، وهي أن القتلى يصبحون في العالم الآخر خدما لقاتليهم أو لمن كان القتل باسمهم •

وهذه العقيدة حد فاصل بين ديانة الشعوب البدائية وديانه الشعوب المتحضرة ، وذلك أن الشامانية وما شابهها من ديانات البدائيين لا تقوم على أسس أخلاقية وليس معنى ايمانهم باليوم الآخر أنهم يؤمنون بالحساب وبأنهم سيسألون عما يفعلون • ولذلك فان القاتل عندهم لا يخاف عقابا يوم القيامة ، بل يعتقد أن منزلته ذلك اليوم تزداد ارتفاعا بازدياد عدد من قتلهم •

وقد أيدت آثار أورخون بالتماثيل التى اكتشفت معها المعلومات التي وردت في الكتب ، وأبطلت الأفكار التى كانت تنزع الى تجريح هذه المعلومات ، وقد لوحظ أن هذه التماثيل المسماة (بالبال) ، والتى ترجع الى القرن الثامن هى من حيث الشكل عين التماثيل التي يسميها الروس (المرأة الصخرية) .(طاش نيته) (Kamennaya baba) والتى توجد في مساحات واسعة فى مناطق الاستبس الروسية وبالاضافة الى المعلومات الصينية الخاصة باقامة (البال بال) فان لدينا معلومات اخرى أمدنا بها أحد رجال القرن الثالث عشر وهو المروج الكاثوليكى جيوم روبروق فقد روى أن الأتراك المقيمين فى جنوب روسيا ويسمون قومان أو بالوويتس طبقا لرواية الحوليات الروسية كانوا يقيمون على عهده تماثيل مشابهة (للبالبال) وكانت تقام بحيث تكون وجوهها متجهة الى الشرق • وعلى الرغم من أن المصادر الصينية قد اتفقت مع مصادر أخرى مستقلة عنها وهى المصادر الأوروبية ، فان رادلوف فى كتابه Aus Sibirien يخطىء مؤرخى الصين ويخطىء روبروق ، ويدعى أن هذا النوع من التماثيل قد أقيم فى روسيا قبل ظهور الترك وقبل أن يتوغلوا فى هذه المناطق بقرون عديدة •

وقد كان هذا الراى ممكنا قبل أن تحل النقوش التى وجدت على آثار ينيسى ولكن الكتابة التى وجدت على تماثيل بالبال الينيسى وعلى نفس التماثيل بجوار أورخون قد حلت وتبين أنها تركية خالصة ، فلا شك اذن بعد فى أن التماثيل المسماة (المرأة الصخرية) من أصل تركى .

وقد اعترض رادلوف في نفس الوقت على بعض المعلومات الصينية الخاصة بالترك ، فهو يكذب مثلا ما ترويه هذه المصادر من أن الترك كانوا يشتغلون بالحدادة قبل أن يؤسسوا لأنفسهم دولة ، ويرى أن صناعة التعدين لا تلائم حياة البداوة . وليس بنقوش أورخون ما يؤيد الرواية الصينية ولا ما ينقضها ، ولكن الروايات الشعبية عند الترك وعند المغول تؤكد امكان استعمال الأسلحة الحديدية مع الحياة البدوية . ويرى رادلوف أن ما ترويه المصادر الصينية من أن الترك يحرقون جثث الموتى يمثل تناقضا بين روايات الكتب وبين ما تدل عليه الآثار المادية ، ذلك أنه لم يجد أى أثر لمادة احراق الموتى فى كل القبور التى درسها ، وكل ما تمدنا به نقوش أورخون في هذا الموضوع هو أن الترك يعتقدون أن روح الانسان تتناسخ بعد موته فتصبح طائرا أو حشرة ، ويقول الترك اذا مات ميتهم انه (طار) « او جدى » ومعلوم أن أتراك الغرب حتى بعد اسلامهم كانوا يقولون فى مكان كلمة « أولدى » = (مات) العبارة التركية (شونقار بولدى) أى لقد صار صقرا ويفهم من هذا أنهم كانوا فى الغالب لا يعنون بالمحافظة على الجسم الانسانى ، ومع هذا فهناك رواية خلاصتها أن جثة قائد تركى وقعت فى أيدى العرب فكان ذلك عند الترك أشد من الموت نفسه ، ولكن يحتمل أن يكون هذا الاحساس غير راجع الى الدين ولكن الى الشعور بالكرامة ، فقد كان الترك يرون أن الذل كل الذل هو أن تقع المرأة أو أن تقع جثة القائد فى يد العدو أثناء الحرب . وربما كانت الحفريات التى تجرى فى أماكن دفن الخانات أقدر على اعطائنا معلومات مفصلة عن مراسم

الدفن والجنازة عند الترك · وقد قام بهذه الحفريات رادلوف وزملاؤه ثم قام بنفس العمل من بعدهم الأستاذ فيلاديميرتسوف Veadimirtsoff سنة ١٩٢٥ ولكن هذه الحفريات لم تؤد الى ظهور اى قبر حتى الآن ويحتمل أن يكون الترك ــ شأنهم شأن غيرهم ــ يحفرون عند دفن الخان حفرا كثيرا ويضعون جثة الخان أو رماده فى احداها ــ صونا للخان من أن يهان أو أن يحقر بوقوع جثته فى يد العدو ·

ولعل النتيجة اللافتة لحفريات فيلاديميرتسوف هى وجود تمثال قد حفظ بعناية شديدة فى قبر أحد رجال الحرب من الترك · وقد رؤيت فى هذا التمثال كل ملامح الترك ، وكان هذا النوع من التماثيل يوجد فيما قبل فوق سطح الأرض ولكن رءوس التماثيل كانت دائما لا توجد ، وكان كسر رءوسها من فعل المغول فانهم كانوا يعتقدون أن صور القدامى تورث الشر للأحياء ، ويرى من هذا أن كسر رءوس التماثيل عرف فى أماكن لم ينتشر فيها الدين الاسلامى الذى جرت العادة حتى يومنا هذا على أن ينسب اليه هذا الفعل · ويحتمل أن تعطينا الحفريات التى ستجرى مستقبلا معلومات جديدة كثيرة عن هذا الموضوع ولكن لا يصح ــ حتى تظهر نتائج الحفريات ــ أن ترد روايات الصينيين الخاصة باحراق الترك جثث الموتى ، بخاصة أنه ظهرت بعد حفريات رادلوف بعض قبور فى الاستبس وبداخلها آثار الاحراق ، وكان الصينيون يستطيعون رؤية مراسم الدفن عند الترك من قريب ، وقد اضطر بعض الخانات ــ تحت سيطرة الأعداء ــ الى الفرار الى الصين ، وكانوا يدفنون طبقا لعاداتهم تحت أعين الأهالى ، ومن هنا يمكن القول بأن احتمال خطأ المصادر الصينية بعيد ·

وبعد فقد أردت بهذا الدرس توضيح الأفكار التى حصلناها من دراسة النقوش والآثار والتماثيل التى خلفها قوم تسموا لأول مرة فى التاريخ ب (الترك) ·

وأمامنا الآن مسألتان : الى أى حد يمكن أن تعيننا هذه النتائج على معرفة أى الشعوب السـابقة عـلى الترك كان يؤاخيهم من قريب أو من بعيد ، والى أى حد يمكن ان توضح لنا أحداث دولة الترك بين القرنين السادس والثامن حيـاة الترك فيما أعقب ذلك من عصـور ، وسيكون الدرس القادم خاصا بهذه الموضوعات ·

المحــاضرة الثانيــة

أصول اللغة التركية :

بالاضافة الى الصعاب التي تعترض دراسة تاريخ الترك بآسيا الوسطى ، والتى عددناها فى المحاضرة الماضية ، توجد صعوبة أخرى مهمة وهى انعدام التناسب من حيث الكم بين المعلومات التى تخص حقب التاريخ المختلفة ، فبينما تكثر المعلومات وتعمق عن حقبة معينة من تاريخ قوم من الترك أو عن بلد معين من بلادهم ، اذا نحن نقنع مضطرين ، اذا أردنا أن نقف على حياة هؤلاء القوم أنفسهم قبل هــذه الحقبــة أو بعدها ، ببضع كلمات مأخوذة عن أى مصدر ، هــذا على حين أن فهم تطور الأحداث التاريخية لشعب أو لبلد ما يقضى بأن نكون قادرين على تأمل كل صفحة من تاريخ هذا الشــعب ، ولقد يدفعنا خلو المراجع من المعلومات المطلوبة الى ســوق الفروض والأفكار الشخصية ، ومن هنا يستحيل حسم المشكلة بالوسائل العلمية الصحيحة •

ان لنقوش أورخون ــ كما بينا فى المحاضرة الماضية ــ منزلة خاصة فى تاريخ الدول البدوية التى قامت على حدود الصين حتى عهد المغول •

وأما الدول البدوية التى قامت فى مناطق الاستبس قبل تكون الامبراطورية التركية ، أى قبل القرن السادس ، فان مراجعها التى لا مناص من القناعة بها هى الاشارات المقتضبة الواردة فى المصادر الصينية ، لابد من القناعة بهاالآن هــؤلاء الترك أنفسهم قد اختفوا من مسرح التاريخ، دون أن يخلفوا ولو بضع كلمات من لغاتهم واذا أردنا أن نجد اللغة التى كان يتكلمها أى قوم من أقوام الترك ، فان مرجعنا الأول المعترف

به حتى الآن هو تلك الألفاظ المفردة الواردة فى التواريخ الصينيه والمسطورة أيضا بالحروف الصينية وهى على الخصوص اسماء ، وألقاب ، وأسماء مناصب ثم نستطيع (مستعينين بقواعد التلفظ الصينية) أن نرجع هذا اللفظ او ذاك الى هذه اللغة أو تلك ، كما نستطيع أيضا أن نضبط تلفظه ، وقد أعانت نقوش أورخون العلماء القدامى على مراجعة هذه الطريقة من طرق الاستدلال ، وعلى مراجعة النتائج التى وصلوا اليها ، ومع هذا فان هذه المراجعة لم تشف ، بل ان ما قام به أكابر علماء لغات الترك من أبحاث كان خطأ ، مع أن الكلمات التى تصدوا لها كانت تركية من تراث أقوام لا شك فى تركيتهم ، ومن ذلك مثلا أن رادلوف ــ قبيل أن تكشف نقوش أورخون ــ حاول أن يدرس ألقاب الحكام الأتراك الواردة فى المصادر الصينية وبالرسم الصينى ، ولكن نقوش أورخون دلت فيما بعد على أن جل الفروض التى ساقها رادلوف لحل تلك الكلمات كانت بلا أساس (هذا وقد نشرت أبحاث رادلوف في جملة من تآليفه ، منها مقدمة لطبعة قوتا ــ دغو بيليك) • كان رادلوف يقرأ مثلا فى المصادر الصينية « به ك » وحقيقتها « بيلكه » وكان يقرأ « آيدينلق » وصوابها « آى ته كرى » ، بل ان كلمة « آيدينلق » لم تكن موجودة فى اللغة التركية فى ذلك الزمان •

وتبين نقوش أورخون أن الصينيين كانوا يطلقون أحيانا على بعض هذه الشعوب أسماء مغايرة تماما لما تطلقه هذه الشعوب على نفسها • فكلما تحدثت المصادر الصينية مثلا عن (قيطا) ذكرت معهم اسم شعب آخر هو (هى) ، على حين أن نقوش أورخون تسمى هذا الشعب الذى يذكر دائما مع الخطاى باسم (تاتابى) ويتفق العلماء فى أوروبا على أن هاتين الكلمتين المختلفتين (هى) و (تاتابى) اسمان لشعب واحد •

ومما يزيد الصعوبة على الباحثين فى تاريخ الدول البدوية أن علماء الصينيات لم يحددوا قواعد نطق الحروف

الصينية فى المدة المقابلة لقيام كل من هـذه الدول · وقد تكررت محاولة تعيين لغات بعض الشعوب فى آسيا الوسطى ، بالاستعانة بما خلفته تلك اللغات من ألفاظ مسطورة بالحروف الصينية وكانت أولى هـذه المحاولات خاصة بلغة أقدم هذه الشعوب وهو شعب الهياطلة ·

ومعلوم أن الهياطلة اقاموا دولة قوية على حدود الصين فى القرن الثانى ق · م · ثم هاجروا الى أوربا حيث عرفوا تماما فى القرن الخامس ويعتبر الهياطلة تركا ، ويقول الصينيون عن الأتراك فى القرن السادس انهم من سلالة الهياطلة ·

وقد قام الاستاذ اليابانى شيراتورى Shiratori ببعض الأبحاث على المفردات المنسوبة للهياطلة فى المصادر الصينيه، وذلك لمعرفة ما اذا كانت لغة الهياطلة لغة تركية ام لا ، ويكفى لمعرفة مدى فشل هذه التجربة أن تعلم ان الاستاذ شيراتورى رجع هو نفسه عن فكرته وقرر أن الكلمات المنسوبة للهياطلة يمكن توضيحها أكثر بالاستعانة بلغة التونغوز · ذلك أن البدو الذين أقاموا حكومتهم على حدود منغوليا الشرقية بعد الهياطلة أصلهم على الأرجح من التونغوز ، ولم نعرف اسم هؤلاء القوم الا من الكلمة المكتوبة بالرسم الصينى : (سيانبى) *Sienpi* ويذكر هؤلاء التونغوز بوصفهم أعداء الهياطلة وجيرانهم من الشرق وقد حلوا محل الهياطلة فى منغوليا فى أواخر القرن الأول للميلاد ، وأسسوا ـ مثلهم فى ذلك كمثل الهياطلة ـ أسرات حاكمة فى المناطق الشمالية للصين ·

ولم ينسب مؤرخ واحد هؤلاء السيانبى الى الأصل التركى كما حدث للهياطلة بل قيل انهم تونغوز ، ولكن الأستاذ بليو يقول فى بعض محاضراته بلننجراد ان معجما للغة السيانبى قد وجد بين بعض الآثار الصينية، وأنه قد تبين بدراسة هذا المعجم أن لغته تركية خالصة · ومن هنا فلا شك

في أن السيانبي قوم من الترك ، وهذا الذى أعلنه بليو بالغ غاية الأهمية لانه يدل على امكان استنباط معلومات محددة وصريحة عن لغات البدو المتاخمين للصين من المصادر الصينية وليس العثور على معجم للغة السيانبي حادثا مفردا ، فقد سبق أن أعلن بليو في مقال مطبوع عن العثور بين بعض الآثار الصينية على معجم للغة (خطاى) وهم قوم مذكورون فى نقوش أورخون ويفهم من هذا المعجم أن الـ (خطاى) الذين كانوا يعتبرون حتى الآن من التونغوز كانوا يتكلمون اللغة المغولية ٠

والحق أن آراء بليو التى عرضتها في المحاضرة السابقة لم تتضح لى تماما ، فهو يعتبر الأبر les avars من سلالة المغول ٠ وقد كانت لهؤلاء الأبر حكومة قبل الترك ، وهى ان لم تبلغ ما بلغته حكومة الترك من سعة ، فقد استطاعت فى القرن الخامس وفى النصف الأول من القرن السادس أن تحكم كل القسم الشرقى من آسيا الوسطى) فعلى أى أساس بنى بليو هذا الرأى ؟ لا أدرى !

ان الاسم الذى أطلقه الصينيون على الأبر لا يمت بصلة لاسمهم الحقيقى فقد سماهم الصينيون « جوجن » أو جوان جوان Jouan Jauan وهو اسم لنوع نادر من الذئب ولا شك أن الصينيين يعبرون بهذا الاسم عن استخفافهم بالبدو وبغضهم لهم ٠

ولا نصادف كلمة أبر في المصادر الصينية ولا ندرى أموجودة فى نقوش أورخون أم لا ٠ وقد وردت فى هذه النقوش كلمة بارباروم par parum أو آبا آبوروم وقد وردت مرة واحدة على أنها اسم لشعب عاش فى الماضى ولم يكن معاصرا لكاتب النقوش ، وقد قرأها طومسن فى آخر ترجمة له على أنها كلمتان مستقلتان كل منهما اسم لشعب مستقل ، ولكن طومسن وضع علامتى استفهام بعد الكلمتين فدل بذلك على غموض المعنى ٠ أما كلمة أبر فانها تصادف

في المصادر البيزنطية والأوروبية والروسية.(وترد فى كتب الوقائع الروسية فى صيغة Obry أو برى) ويفرق البيزنطيون بين الأبر الحقيقيين واللصقاء ، وعندهم أن الحقيقيين قد بادوا واندثروا في الشرق وأن الأبر الذين هاجروا الى أوروبا انما تسموا فقط باسم الأبر الحقيقيين وانتسبوا اليهم ، ولا يخلو فأما أن يكون الأبر قوما واحدا أو قومين متشابهين ٠

على ان هناك حقائق تعزز راى بليو منها أن بعض الكلمات البلغارية القديمة وردت فى كتاب حوليات سببى يرجع الى عهد الأرستقراطية البلغارية القديمة على نهر الدانوب ، وبما أن البلغار ليسوا صقالبة حتى انهم مازالوا يحتفظون فى مظهرهم بعلامات غير صقلبية ، وبما ان من المحقق ان هذه الكلمات الملغزة لا علاقة لها بلغة الصقالبة ، فقد حوول تقريبها الى اللغة التركية أو الى لغة قريبة منها ، وأشهر رأى فى هذا الصدد هو رأى العالم الفنلندي ميقولا Mikkola فقد ذهب الى أن هذه الكلمات الملغزة هى الأسماء الواردة فى تقويم الاثنى عشر حيوانا ولكن لوحظ أن عام الحصان وهو بالتركية (بيلقى) أو (أت) قد سمى اسما مغوليا هو (مورين) Morin ، وقبل أن تظهر النظرية القائلة بأن الأبر من أصل مغولى كان وجود كلمة مغولية فى مثل هذا التقويم يعتبر شيئا غريبا ، واذا تحقق أن الأبر من أصل مغولى كان معنى هذا أن هذه الكلمة وردت على البلغار من الأبر الآتين من الشرق ٠

وسأكتفى بهذا المثال ، ولن أتعرض لمحاولات أخرى قليلة الأهمية لبعض العلماء الذين يحاولون العثور ببعض الكلمات المغولية فى الغرب في تواريخ سابقة على ظهور المغول على مسرح التاريخ ، ولقد ذهب بعض كبار هؤلاء العلماء الى فروض علمية غاية فى الجراءة ومن بين هؤلاء العالم «مار كارت» ، فانه يقارن مثلا بين كلمة جغانيان وهى

اسم لمنطقة فى حوض جيحون وبين الكلمة المغولية تساغان (بمعنى أبيض) وعلى الرغم من أن المسألة خلافية فان ماركارت يبدأ قوله بتأكيد أن هذه الكلمة مغولية ٠

ومن ناحية أخرى يمكن أن تقوم بعض الاعتراضات على رأى بليو القائل بأن الأبر من سلالة المغول ، ذلك أن حكم الأبر أو جوان جوان كان قد امتد غربا منذ القرن الخامس حتى أشرف على حدود قار أشهر فى تركستان الصينية وقد ألجأ توسعهم هذا قوما من الهياطلة ــ كان الأتراك قد فتحوا بلادهم ــ الى الهجرة غربا نحو حوض جيحون ، فان كان هؤلاء الأبر وهم على هذا القدر من الأهمية مغولا فكيف لم تتمخض الحفريات ولا الأبحاث الكثيرة فى آسيا الوسطى عن نص مغولى واحد يرجع تاريخه الى ما قبل جنكيزخان ؟

ومع هذا فهناك فكرة ربما عززت رأى بليو، ذلك أنه من المحتمل أن العلاقات التجارية بين تجار الصغد وبين البدو فى آسيا الوسطى لم تبلغ فى عهد الأبر ما بلغته فيما بعد فى عهد الأتراك الـ (تو ــ كيو) ٠

وذلك رغم ما نعلمه من أن العلاقات التجارية كانت قائمة فى القرن الخامس بين (الصغد) وبين الهياطلة سواء المهاجرون منهم الى أوروبا ، أو أولئك الذين كونوا لأنفسهم دويلات على حدود الصين ٠ ومهما يكن من شىء فان ما ساقه بليو يدعونا الى أن ننتظر من علماء الصينيات معلومات أكثر فيما يتعلق بأصل أقوام البدو فى آسيا الوسطى ، واننا ننتظر أيضا أن تستفيد الدراسات التاريخية من التقدم الذى أحرزه علم اللغات ، أو أن يفيدنا هذا التقدم على الأقل فى اصلاح بعض الأخطاء ٠ ولا مجال اليوم للمقارنات اللغوية التى قام بها اللغويون القدماء على أصول غير علمية ، فقد كانوا يستعينون مثلا على توضيح كلمة من كلام الهياطلة أو غيرهم من الشعوب البدوية باللهجات التركية الموجودة الآن ، ولا يتساءلون اذا كانت هذه الكلمة قد وجدت بصورتها

الحالية فى تلك اللغة القديمة أم لا • ومن ذلك أن الأستاذ شيراتورى حاول أن يشرح لقب الحاكم عند قوم عاشوا قبل الميلاد، فاستعان على ذلك بكلمة موجودة الآن فى بعض اللمحات التركية بآسيا الوسطى وهى كلمة (بى Bi) مع أن هذه الكلمة ليست الا تحريفا محدثا للكلمة التركية (به ك) وهى صيغة لا تصادف قبل القرن الخامس عشر •

وحاول ماركارت أيضا أن يوضح كلمة وردت فى نقوش أورخون بكلمة تستعمل الآن بمعنى نهر وهى كلمة اتيل ، على حين أن هذه الكلمة أخذت من لغة الجوفاش ولا تصادف الا فى لغة التتار أى أتراك الفولجا •

ويمكن القول بأن النقوش التركية التى اكتشفت فى آسيا الوسطى والآثار الدينية ، تساعد كلها على معرفة التطور التدريجى للغة التركية ، وعلى تحديد المكان واللهجة اللذين تنتمى اليهما الكلمة ، كل أولئك بصورة علمية •

ولو أن النماذج الأولى للغة المغول كانت قد اكتشفت لبلغت الآن الأبحاث المتعلقة باللهجات التركية والمغولية ــ من حيث المنهج العلمي ــ ما بلغته اللغات الهندية الأوروبية واللغات السامية •

ولكن ما دامت آثار اللغة المغولية قبل القرن الثالث عشر غير موجودة ، فسيظل تاريخ لغة المغول ــ حتى يتم كشف هذه الآثار ــ أكثر ابهاما وغموضا من تاريخ لسان للترك ، على أن دراسة اللهجة الموجودة الآن للغة ما تفيدنا فى تاريخ هذه اللغة • ذلك أن اللغات جميعها تحتفظ فى لسان الخطاب ببعض الكلمات العتيقة التى انعدم استعمالها فى لغة الأدب، ولكن هذا أيضا لا يساعد علماء اللغتين التركية والمغولية مثلما يساعد علماء اللغات الهندية الأوروبية والسامية ، لأن اللغة المغولية كانت متشابهة اللهجات بحيث لا يمكن أن تؤدى المقارنة بينها الى استنباط أية فذلكة تاريخية •

وبما أن الترك قد انساحوا فى بقعة من الأرض أرحب من التى انتشر فيها المغول ، فقد كان ينتظر أن تكون الفروق بين اللهجات التركية اكبر ، ومع هذا فان معظم اللهجات التركية متشابهة وليس امام عالم التركيات سوى لهجتين اثنتين متميزتين احداهما عن الاخرى وهما لهجة (ياقوت) ولهجة (جوفاش) وهكذا يمكن اذا قورن هذان اللسانان باللهجات التركية الأخرى أن نحصل على المواد الأساسية التى تلزم لايضاح تاريخ اللغة التركية وتاريخ الترك أنفسهم ٠

الياقوت والجوفاش

انسلخ الناطقون بلغة (الياقوت) عن الاقوام الـرئيـة منذ أقدم العصور وهاجروا الى المناطق الشمالية القصوى ٠ وهم بذلك لم يشتركوا فىالحياة التاريخية للأتراك، واما لغة جوفاش فقد استعملت على الضفاف الوسطى لنهر الفولجا وصودفت آثارها فى الطريق الذى سلكته أقوام الترك المهاجرة من آسيا الوسطى ويظن أنها كانت فى العصور الوسطى أوسع استعمالا منها الآن ، اذ يسجل جغرافيو العرب أن الأقوام التركية التى تبدأ بالبجنك فى جنوب روسيا ثم تنتشر حتى حدود الصين تتكلم بلغات متشابهة الا البلغار فى حوض الفولجا والا (الخزر) ، فان لغتهما لم تكن تفهم عند سائر الأقوام التركية ، ويزيدون على هذا أن ذلك اللسان كان مغايرا للسان الفن Finn ، ولهجة الجوفاش الآن هى بنفس هذا الوضع فهى أشبه باللهجات التركية منها بلهجة الفن ، ولكنها مع هذا غير مفهومة لا عند الترك ولا عند الفن ٠ ويسمى البلغار والخزر نهر الفولجا (أتيل) وهى كلما جوفاشية بمعنى نهر ، ومن هنا ذهب أصحاب الدراسات التركية الى أن لغة الجوفاش هى بقايا اللسان القديم للبلغار وربما كذلك للخزر ٠

وقد درست فى زمن ما خصــائص لغة الجوفاش وذهب رادلوف ــ فى ذلك الوقت الى أن هذه اللغة هى نتــاج خلطة اللغة التركية باللهجات الفنية ٠

وقد حاول بعض العلماء بعد ذلك اثبات أن لغة الجوفاش قد حفظت بقايا اقدم دور من ادوار تطور اللغة التركيــة ، وكان آخر من درس هذا الموضوع ووصل الى نفس النتيجــة هو بوب poppe ، وقد نشر مقالاته فى « أخبار الأكاديمية الروسية » وكان بوب يرى فى أول الأمر أن اللسان الجوفاشى ــ مع دخوله فى مجموعة اللهجات التركيةالمغولية ــ لا يرتبط بهذه ولا بتلك بل يكون فى هذه المجموعة شعبة ثالثة ــ ولكن ما لبث بوب بعد المناقشات التى دارت حول هذا الموضوع فى أكاديمية لينبجراد أن قرر أن اللسان الجوفاشى هو اللســان التركى ، الا أنه يمثل أقدم مرحلة لتطور هذا اللسان ، وقد انفصل اللسان الجوفاشى عن أصله ، زمان انفصل اللســان المغولى عن اللسان التركى ، ولم يكتسب هــذا اللســان بعد الملامح المميزة للغات الترك الأدبية ولهجاتهم الحالية ، واذا قبلت هذه النتيجة علميا بصورة نهائية ، كانت لهــا عنــد المؤرخين أهمية كبرى ٠

ولئن كان البلغــار والخزر لم يذكروا قبــل القــرن السادس ، فان من المحقق أنهم وفدوا على حوض الفولجا قبل أن تتــكون امبراطــورية الأتراك (توكيــو) فى منتصف ذلك القرن ٠

ويمكن الجزم بأنهم وفدوا على تلك المنطقة فى الفترة التى يقال انها دور هجرة الهياطلة ، وقد كان هؤلاء الهياطلة يقيمون بالقــرب من نهــر الفولجا فى القرن الثانى ، زمن الجغــرافى بطليموس وفى ذلك الوقت لم يكن يذكر الاســم الجوفاشى لنهر الفولجا : (آتيل) وهو الاسم الذى صار فيما بعد عاما فى ســائر اللهجات التركية ، ولكن نهر (يابيق) كان يحمل اسمة الحالى التركى الأصل ، والذى نصادفه عند

بطليموس فى صيغة (دايبق) ، والظاهر أن استعمال الدال بدل الياء الواقعة أول الكلمة يطبق فى اللسان المحلى لأواسط الفولجا بعد زمن بطليموس حتى ان كلمة (يوغ) الواردة فى نقوش أورخوش ومعناها « مراسيم الميتم » ترد فى مصادر القرن السادس البيزنطية بصيغة دوخيـا Dochia . ولا تتفق هذه الظاهرة مع قواعد النطق الحالية للسان الجوفاش ، ذلك أن الياء فى اللهجات التركية تنقلب فى لسان الجوفاش وفى لسان الياقوت الى « س » ومهما يكن ، فان التطور الصـوتى للهجات الجوفاش والترك لم يوضح بعد كما ينبغى ، وأما كلمة « دايبق » الواردة عند بطليموس فربما كانت أقدم كلمة تركية وردت فى نص موثوق به ·

واذا كان لسان الجوفاش يمثل بقايا مرحلة من مراحل التطور الأولى للسان التركى، فان الأحداث التاريخية تسمح لنا بأن نفرض أن لسانالهياطلة كان بنفسالوضع· ويستنتج من هذا أن لسان الهياطلة لم يكن تركيا بمعنى الكلمة أى أنه لم يكن اللسان الذى تتكلمه الأقوام التركية جميعها ما عـدا الجوفاش والياقوت · ويحتمل أن يكون الهياطلة قد وطنوا لسانهم فى أقصى المناطق الغربية وأنهم استطاعوا أن يدخلوا آثارا من لغتهم فى لغات الأقوام التى تأثرت بهجرتهم مباشرة أو بالواسطة ، ومن هذا القبيل الكلمات التركية فى اللغـة المجرية ·

ويحتمل أن يكونوا هم الذين نشروا بعض اصـطلاحات الصين الحضارية فى المناطق الواقعة فى أقصى الغرب ، فكلمة كتب مثلا فى اللغة المجرية مشتقة من كلمة من أصل صينى هى بيتيمك ، ويجب أن يكون لسان السيانبى ـ وهم جيران الهياطلة من الشرق ـ راجعا الى أبعد دور من أدوار تطـور اللغة التركية ، ولكن حل هذه المسألة يتطلب المبادرة الى نشر المعجم « السيانبى ـ صينى » الذى حدثنا بليو عن وجوده ·

ومازالت الفروض العلمية المتعلقة بنشاط الترك ، فى الجزء الغربى من آسيا الوسطى فى القرنين الأولين قبل الميلاد وبعده غير مؤيدة بالأدلة ٠

الهنــد / ســكيت

ويفهم من الكتب اليونانية القديمة وبخاصة كتاب (الأقاليم والأماكن) لبقراط أن اليونان عرفوا عدا الأقوام الهندية الأوروبية أقواما أخرى ولكننا لا نعرف بصورة حاسمة اذا كان الترك من بين هذه الأقوام ، ويميل شافان Chavannes وهو يحاول ان يثبت أن تقويم (الاثنى عشر عاما) تركى الى أن يقول بأن القوم الذين كونوا بأواسط آسيا فى القرن الثانى ق ٠ م ٠ دولة عاشت فيما بعد قرونا ، كانوا كذلك من الترك ، وأنهم هم الذين غزوا كثيرا من الأقاليم الهندية ، وأنهم هم الذين سماهم اليونان (هند / سكيت) ٠

وقد اعترض على شافان بأن تقويم الاثنى عشر حيوانا يحتوى على (عام القرد) ، على حين أن القرد لا يوجد فى بلاد الترك ، ويرد شافان بأن الترك ـ وقد فتحوا الهند فى القرن الأول قبل الميلاد ـ قد رأوا القرد ، والآن فلا يكاد يوجد من يؤيد نظرية شاوان الخاصة بتقويم (الاثنى عشر حيوانا) ولا نظريته الخاصة بأن (الهند / سكيت) أصلهم من الترك ، الا عالم الصينيات المشهور فريدرخ هيرث Hirth الذى يصر على هذا الرأى ، ويبدو أن هذا التقويم نشأ فى الهند وأن الصينيين قد أخذوه عن الهنود ، ثم انتقل فى الأزمنة القديمة من الصين الى الترك ٠

الطــوخاريون

والطوخاريون يكونون الطبقة الأولى بين الـ (هند / سكيت) وقد سميت المناطق الواقعة فى أعالى مجرى نهر

جيحون باسم (طخارســتان) نسبة الى هؤلاء الطوخاريين ، ولكن المؤلفين المسلمين لم يعرفوا الأصل الاتنوغرافي لهــذه التسمية • وكان الطوخاريون يعيشون أول الأمر في تركستان الصينية ، ويعد لسانهم بين ألسنة آسيا الوسطى التي حررت بها نصوص بوذية ، وقد عثرت البعثات الأوروبية للتفتيش عن الآثار على وثائق في شرقي تركســتان مكتــوبة بلغــات مختلفة ، ولكن لم يكمن بعد المناقشات الطويلة تحديد اللسان الطوخارى من هذه اللغات •

ومهما يكن ، فان الخلاف محصور بين لغتين من العائلة الهندية ــ الأوروبية كتبت احداهما على الآثار القريبة من ختن وكتبت الأخرى على الآثار القريبة من كوجا •

الترك

ولا شك أن الترك الذين يتــكلمون ما نســميه اليــوم (اللغة التركية) كانوا موجودين منذ أقدم العصور ، ولكن من العبث أن نفرض أن كلمة (ترك) كانت موجــودة قبــل القرن السادس ، وقصارى ما يمكن قوله في أصل هذه الكلمة ومعناها هو أن نسوق بعض الفروض •

يرى طومسن في آخر مؤلفاته أن كلمة (تورك) اســم لقبيلة مستقلة أو على الأرجح اسم لأسرة حاكمة ، ويحتمل أن يكون المعنى الأول للكلمة (تورك) أو (توروك) هو القــوة والاحكام •

ويعترض على هذا بأن نقوش أورخون لا تؤيده ، فقــد وردت كلمة (ترك) في هذه النقوش بمعنى (قوم) ووردت مرة واحدة بغير هذا المعنى ، ولكنها حتى في هذه المرة المفردة لا تدل على معنى القوة أو الاحكام •

ويتحدث الخان عن قاغان التوركش فيقول : (توركم بودونم) أى تركيي وقومي (كندى توركم كنــدى تومم) ، ويترجم طومسن هــذه العبارة هــكذا : (انه ملك لأتراكي ،

الشعبى) فاذا لم تكن كلمة (تورك) اسم جنس وكانت صفة ، للزم أن يكون المعنى (المسوى والمهيأ) أو نحو هذا ، ذلك أن الخان يريد أن يقول فى هذا المقام أن قاغان تركش خرج عليه بعد أن سواه بيديه وجعل منه شيئا .

ويمكن أن نفرض أن كلمة تورك لها علاقة بكلمة (تورو) التى يكثر استعمالها فى نقوش أورخون بمعنى الجماعة المتحدة بالقانون وبالتقاليد ، ويقول الخان ان قومه (بودون) منحوه السلطة وولوه سيادة القوم (تورو) .

وليس فى نقوش أورخون ما يعين على تحديد القبائل التى كانت تسمى (تورك) تحت حكم الـ (توكيو) ، كما أننا لا نعلم كيف اتسع مدلول الكلمة حتى شمل القبائل الأخرى ، ولا كيف تطور حتى اكتسب معناه الحالى ، كان الخان يقول لقومه : (التورك) و (لغز) و (التغزغز) ، على حين تصف بعض المصادر الأخرى الـ (تغزغز) بأنهم أعداء الخان ، وقد وصل رادلوف ــ قبل أن تحل نقوش أورخون ــ الى أن الأتراك الذين دامت دولتهم من القرن السادس الى القرن الثامن كانوا ينتسبون الى الأتراك الغز ، وقد صدقت النقوش الأثرية ما ذهب اليه رادلوف . وقد كان هؤلاء (الغز) أو (الترك) ينقسمون قبائل عدة ، ففى الشرق يوجد الـ (ثولوس) و الـ (طاردوش) ، وفى الغرب يوجد الـ (توركشن) ، ويذكر عدا الغز قبائل أخرى من الترك أى (الترك) بالمفهوم الحالى للكلمة ، وأشهر هؤلاء هم الـ (قارلوق) و (الاويغور) والقيرغيز ، ولكن ليس لدينا دليل على أن هذه الأقوام كانت تسمى نفسها (تركا) ويحتمل أن يكون المفهوم الحالى لكلمة تورك اصطلاحا اسلاميا .

وقد لاحظ العرب أن أقواما كثيرة ممن حاربوها فى القرنين السابع والثامن كانت تتكلم نفس اللغة التى يتكلمها الأتراك ، فأطلقوا عليهم كلمة ترك ، وبعد هذا بدأت الأقوام التى دخلت فى الاسلام تسمى نفسها (تركا) ومع هـذا

فيوجد الآن من الأتراك الذين دخلوا في الاسلام من لا يسمون لغتهم (تركية) . ولم تنتشر كلمة ترك خارج المحيط الاسلامي كثيرا ، الا أن لدينا في هذا الخصوص حالة استثنائية ، ذلك أن هناك أثرا خاصا بالديانة البوذية ، وقد ذكر فيه أنه كتب باللسان التركي (تورك أويغورتيلي) على أن الروس والأوربيين الغربيين في الأزمنة المتأخرة لم يطلقوا كلمة (ترك) لا على البجنك Petchénegues ولا على البولوفتسي Polovtsy (قومان) ، وانما أطلقوها على السلاجقة ثم على العثمانيين .

وهم جميعا (العثمانيون والسلاجقة) منحدرون من الغز مثلهم كمثل أتراك الأرخون وترد في كتب (الحوليات الروسية) كلمة تركي Torki وهي في الغالب بمعنى كلمة (ترك) وان كانت تشير مع هذا الى الشعب المسمي في المصادر البيزنطية (Uz) أي (الغز) .

ومن بين أسماء الأقوام التي ذكرت في نقوش أورخون لا نجد اسما ذكر في المصادر الصينية (السابقة على تلك النقوش) غير اسم القيرغيز ، ذلك أن هذا الاسم يرد في الحكايات المتعلقة بوقائع حكم الهياطلة أي في الفترة الواقعة قبيل ميلاد عيسى وبعيده ، وهو يرد في أقدم المصادر الصينية بهذه الصورة (قين ـ قون Kien - - Kun) وقد حاول الأستاذ بليو أن يوضح هذه الكلمة بكلمة أخرى مغولية في صيغة المفرد وهي قيرقون Kyr — Kun وهكذا يكون الصينيون قد عرفوا القيرغيز بواسطة قوم من أقوام المغول ، وترجع أصدق المعلومات الصينية عن القيرغيز وعن مواطنهم في حوض ينيسي الأعلى الى عهد الحكم التركي ، ويسمى الصينيون قيرغيز ذلك العهد (هاقاس Hakas) وهي تحريف لكلمة Ki—li—Ki—sli المسطورة بالهيروغليقية الصينية . ولما منحت روسيا بعد ثورتها الحكم الذاتي للأتراك القاطنين في أعالي ينيسي أي في منطقة مينوسنسق Minoussinsk (سابقا)،

احتاجوا بعد هذا الاستقلال الذاتي الى أن يتخذوا اسـما يشملهم جميعا (ولم تكن بهم حاجة الى مثل ذلك في عهـد القيصرية) ، وقد اختار المثقفون منهم اسم (هاقاس) لأنه وارد في المصادر الصينية ولأن له أهمية سياسية ، ولم يكونوا يعلمون أنه تحريف اسم القيرغيز ممن لا يعيشون الآن في منطقة (مينوسنسق) وتوجد بعض الكلمات القيرغيزية في تاريخ أسرة T'ang الصينية ، وهي تدل على أن القيرغيز كانوا يتكلمون التركية في ذلك الزمان ، ومن هذه الكلمـات كلمـة (آى) بمعنى (القمر) ، وتدل أوصـاف الصينيين للقيرغيز على أنهم كانوا مغايرين من الناحية الأنثروبولوجية لغيرهم من الترك فقد كان شعرهم أشقر — وعيونهم زرقا وأيدت المصادر الاسلامية فيما بعد معلومات المصادر الصينية ، فالكرديزى وهو مؤرخ ايرانى عاش في القرن الحادى عشر يقرر — مستقيا معلوماته من مصادر مجهولة لنا — أن شـعر القيرغيز أشـقر ، وأن ذلك أدى الى الظن بوجـود قرابة بين القيرغيز والصقالبة ٠

ولا يمكن في هذا الصدد اثبات ما ذهب اليه ماركارت من أن هذه المشابهة تدل على أن قوما قد هاجروا من أوروبا الى تلك البقاع ٠ ولا تكفى المعلومات التى بين أيدينا لتعليل التغيرات التى اعترت هـؤلاء القيرغيز عـلى مر الزمان حتى اكتسبوا شكلهم الحالى وسموا (قاراقيرغيز) أى (القيرغيز السمر) ، ويدل ذكر هـؤلاء القيرغيز في المصـادر الصينية القديمة على أنهم كانوا داخل نطاق العلاقات التجارية الدولية منذ أقدم العصور ولعل ولاية مينو سـنسق أن تكـون أكثر الولايات دخولا في هذا النطاق ، وقد وجدت في مينو سنسق آثار قديمة يصعب ردها الى عصر معين ، بل مازال الجـدل دائرا حول معرفة أيهـا يرجع الى الترك عامة وأيهـا أبعـد قدما ٠ وكانت قوافل التجار المسلمين تفد على ديار القيرغيز ، وكان المسك (وله يومئذ قيمة كبيرة) أهم صادراتهم ٠

واذا قارنا بين ما كتبه القدماء من الجغرافيين المسلمين عن القيرغيز ، وبين ما كتب المحدثون منهم لراينا ان المدنيه في هذا الاقليم قد تطورت تدريجيا فتحدثنا المصادر الصينية والاسلامية القديمة بانه لم يكن بديار القيرغيز سوى مدينة واحدة هى مقر الخان ، ولا يوجـد بعـد ذلك مدن ولا قرى وكان القسم الاكبر من السكان بدوا ، وأما القسم الاخـر فيمكن القول بأنه كان بدائيا يعيش على الصـيد • ولـكن رشيد الدين (١) يقرر أن بلاد القيرغيز فى عهد المغول كانت حافلة بالمدن • وبغض الطرف عن أثر الصلات التجارية فى انماء المدينة الزراعية ، فقد كان لخصوبة التربة في ولاية مينوسنسق آثر فى هـذا الانماء ، والغالب أن القيرغيز هم أقدم مثل للأقوام المتتركة وليست من أصل تركى •

حـركة التترك

وقد كانت هذه الأقوام كثيرة منها البدوى ومنها الحضرى ـ وكان من آكثر الأقـوام اتصـالا بالترك (الصـامويد Samoyedes) وبخاصـة القاطنـون منهم فى الجنـوب ، والصامويد هؤلاء قوم من خمسة أقوام تتكون منهم الأسرة (الأورالتائية) وهم من الشرق الى الغرب (الفن ـ ال صامو يد ـ ال تورك ـ ال موغول ـ ال تونغور) ومازالت عملية التمثل هـذه ماضـية ـ ومن الصـامويد المتتركين حديثـا قوم ال (قاراغاص Karagasse) ومن الأقوام التى لم يتم تتركهـا قوم (قاماسين) وتقع ديار هؤلاء شرق ديار (الياقوت) وهى بذلك أقصى ديار الناطقين بالتركية نحو الشرق •

ويقرر كاسترن Castren وقد زار بلادهم سنة ١٨٤٨ أن لغتهم كانت ماتزال حية بينهم ، فلما زارهم بعـد ذلك رادلوف سنة ١٨٦٣ وجد أنهم قد تتركوا الا قليلا منهم كانوا فى دور التترك ، فلما زارهم بعد ذلك بمدة طويلة العـالم

(١) مؤرخ المغول وصاحب جامع التواريخ ، القرن الثامن الهجرى •

الفنلندى دونير K. Donner وجد تتركهم قد تم وان يكن رأى أن بعض المعمرين مازالوا يعرفون لغــة الصامويبد · واسم الصامويبد بالتركية هــو (طوبا Tuba) وهو اسم لم يذكر فى نقوش أورخون ولكن المصادر الصينية المعاصرة لهــذه النقوش تذكره بصيغة طوبا Tuba ·

ومن الاقوام غــير التركية التي ورد ذكرها فى نقــوش اورخون قوم الـ (آز) وهو اسم يذكر دائما مع اسم القيرغيز، وقد اختلف أول الأمر فى مفهوم كلمة از أهى اسم قوم أم لا، وكنت أنا أول من قال ان هذه الكلمة اسم قوم ، وقد قبــل هذا الرأى طومسن فى ترجمته الأخيرة وقال عن هذه الكلمة (انها تدل على قوم لا يعرف أصلهم) · وتوجــد فى الجــزء الأسفل من حوض نهر ينسى عند منطقــة (طورفان) أطلال قوم يسميهم الروس خطأ (أوستياق الينسى) Ostiaks du Inisséi اذ لا توجد علاقة البتة بين هــؤلاء القوم وبين الأوســتياق المنسوبين للفن والقاطنين وادى نهر أوب qo ولا بينهم وبين الأسرة الأورالتائية على العموم ويسمى (أوستياق الينسى هؤلاء أنفسهم قوت Kott أو آسين Assin وقد درس كاسترن هؤلاء الناس سنة ١٨٥٤ ثم درس بعد ذلك آتوجين Antoutchin لغتهم ونظم معيشتهم بالتفصيل ·

وربما كان هؤلاء الأوستياق القدماء قد شغلوا فى سالف العصور مســاحات واســعة ، ويحتمل كذلك أن يكونوا هم الـ (آز) المذكورين فى نقوش أورخون · ومن الأقوام التى تذكر على الآثار مع القيرغيز قوم الـ جيك Tchik ولكن لم يعثر حديثا على أية معلومات تتعلق بهم ·

وكان للقيرغيز منذ ذلك الوقت أهمية سياسية خاصة ، فقــد كان لهم (قاغانات) مســتقلون تتحــدث عنهم نقوش أورخون ، أكثر مما تتحدث عن القومين اللذين أخذا مكان الأتراك الغز وهم الأويغور فى الشرق والقارلوق فى الغرب ،

وقد ارتقى هذان القومان بسرعة ، وترد كلمة أويغور مرة واحدة فى نقوش أورخون ، ولكن ترد فى فقرة واضحة تماما ولا مجال للشك فى قراءة الكلمة وفى دلالتها على الأويغور الذين لا يمكن أن يلتبس اسمهم باسم الغز ، وكان رؤساء (الأويغور) يحملون لقبا متواضعا بالنسبة لما يحمله رؤساء القيرغيز وهو لقب الـ (ئلتبير) Eltebir ويرى طومسن أن هذه الكلمة عند الترك بمعنى (والى) ، ولكننا لا نجد كلمة واحدة تدل على أن الـ « ئلتبير Eltebir » كان يعين من قبل الخاقان ، ومهما يكن فقد كان القوم الذين يرأسهم الـ « ئلتبير » (ئلته بيرلك بودون) أقل أهمية من القوم الذين يرأسهم [قاغان] (قاغا نلغ بودون) ٠

ولم يكن كذلك للقارلوق قاغان ٠

التتــــار

ومن الأقوام غير التركية التى ورد ذكرها فى نقوش أورخون التتار ، وقد وسم المغول أنفسهم فيما بعد بهذا الاسم ، ويرد بالنقوش اسم « طوقور تاتار » و « أوتوز تاتار » ويفهم من هذا أن التتار كانوا حينذاك قسمين ، قسما يتكون من تسع قبائل ، وقسما يتكون من ثلاثين قبيلة ٠

وتوشك مسألة العلاقة بين الترك فى ذلك الزمان وبين حياة الحضر أن تكون معضلة ، فيلاحظ أن الترك مع تأثرهم بأهل الحضر المتمدنين ولا سيما الصينيين فى الشرق ، والصغد وغيرهم فى الغرب كانوا يحيون حياة بدوية ٠ وتوجد فى الآثار التركية كلمة صغدية شاعت فيما بين الترك والمغول وهى كلمة « قاتون أو خاتون » بمعنى ملكة ٠

وتذكر بلاد الصغد فى النقوش الأثرية على صورتين « صوغد وصوغداق » وهما كلمتان نصادفهما فى النقوش الاسلامية المتأخرة ٠

وقد صحبت كلمة « صغد » فى بعض الأحيان عبارة « به رجه كه ربوقارا قولوس » التى يحتمل أن تقرأ أيضا

بتقديم الكلمة الثانية « بوقار فولوس » على الكلمة الاولى وقد ترجم ماركارت هذه العبارة هكذا : « أقوام امة فارس وبخارا » ومع أن كلمة أولوس تؤدى معنى قوم فى النقوش التركية الدينية القديمة ، فان هذا المعنى لم يصادف فى نقوش أورخون • وقراءة الكلمة على أنها « أولوس » ثم اعطاؤها معنى « قوم » ضعيف الى حد كبير وذلك بأن كلمة « بودون » واردة فى نفس المكان ، وهى أيضا بمعنى «قوم» ومن المستبعد أن تستعمل كلمتان بمعنى واحد فى مكان واحد •

وأما تحويل كلمة بارسيك الدالة على « فارس » الى كلمة « به رجه كه ر » فانه يجافى قواعد علم اللغة ، ومع هذا فان طومسن في ترجمته الأخيرة قد قبل هذا الطرز من القراءة مع وضعه أمامه علامة استفهام •

واذا كان البدو لا يزاولون الحياة الزراعية الا تحت تأثير الضرورة الاقتصادية ، فان هذه الضرورة كانت أوضح فى شرق تركستان منها فى أى مكان آخر • فهناك لا توجد مراع تساعد على علف الماشية وتربيتها • بل اذا لم ترو الأراضى هناك بواسطة الجداول ، فان المنطقة تتحول الى صحراء لا تصلح للزراعة ولا لتربية الماشية ، وتدل الآثار العتيقة التى عثر عليها فى أحدث الحفائر على أن شرق تركستان لم يكن أصلا آهلا بالترك ولكنه ترك فيما بعد مثله فى ذلك كمثل غرب تركستان • وكان تترك سكان الحضر وتحضر الأتراك فى تلك البقاع يمضيان جنبا الى جنب، متجهين اتجاها واحدا طبيعيا من الشرق الى الغرب• وقد هاجر الترك بكثرة الى شرق تركستان بعد أن سقطت دولة ال«دقوزاوغوز» ثم دولة « الأويغور » فى منغوليا • وتصادف فى نقوش أورخون كلمة « باليق » بمعنى مدينة كذلك عبارة « بش باليق » بمعنى المدن الخمس ، ومن المعروف أن مدن « بش باليق » أسست الى جانب « كوجين » فى الجزء الشرقى من تركستان الصينية الحالية •

ويفهم من المعلوسات التى اوردها مؤلف من القرن الحادى عشر سنتناوله فى المحاضرات القادمة أن كلمة «باليق» كانت تستعمل استعمال الكلمتين التركيتين « بالجيق » و « جامور » وهما بمعنى الطين • وقد كان العرب كذلك يطلقون على البدو (أهل الوبر = كجه ليلر) وعلى أهل الحضر (أهل المدر = جامور ليلر) • والأتراك الذين كانوا يعيشون فى ذلك الزمان فى (بش باليق) هم هؤلاء الذين تذكرهم المصادر الصينية باسم (باسمل) • ومذكور فى معجم دوكانج Ducange وهو من معاجم القرون الوسطى أن كلمة (باسمل) تدل على الانسان غير خالص النشأة ، ومن الطبيعى جدا أن هؤلاء القوم الذين مارسوا الحياة الحضرية والمدنية قبل الترك لم يكونوا أتراكا خلصا من ناحية الدم ، ولكنهم اختلطوا بالعناصر القديمة المتمدنة فى تلك النواحى• حتى ان محمود الكاشغرى يعد هؤلام الـ (باسمل) بين الأقوام غير خالصة التركية • ولما كان تترك شرقى تركستان على صورة واسعة مرتبطا بالنتائج التى ترتبت على سقوط دولتى الغز والأويغور ، فسنبحث ذلك فى محاضرتنا القادمة •

المحـــاضرة الثالثة

الترك فى تركستان

تصـــور نقوش أورخـــون خواقين الأتراك الغز أقوياء أصحاب شوكة ، لا يتطرق اليهم الخوف من أى جانب على حين نرى أن الحكم فى منغوليا قد انتقل فى سنة ٧٤٥ اى بعـــد عشرة أعوام من وفاة الخاقان الذى كتبت باسمه هذه النقوش الى قوم آخرين من الترك هم (الأويغور) وقبل ذلك ببضـــع سنين كانت الشعبة الغربية من الأتراك قد فقدت وحدتهـــا السياسية نتيجة لصراعها مع العرب .

ونعلم من المصادر الصينية أن الغز المقيمين غربا كانوا ينقسمون عشر قبائل . خمس منها تقيم شـــمال نهر « ايله (Ili) » وخمس منها فى جنوبه وتسمى هذه القبائل العشر كما يذكر طومسن فى ترجمته نقوش أورخون « اون اوق » أى « السهام العشرة » . ومن بين هـــذه القبائل علا شأن قبيلة توركه ش Turguesh فترة ما وخـــرج منهـــا خـــواقين أتراك الغرب المتأخرون .

وكان العرب حتى ذلك الوقت يكتفون بصد غارات الترك على البلاد المتمدينة ولم يكونوا يستطيعون التوغل فى بلاد الترك ولا التقدم الى مقر خاقانهم الى جوار نهر جو Tchou

ومع هذا ، فان الحروب التى خاضها أتراك الغرب ضد العرب فى حوض نهر (سيردريا) ، ثم انهزامهم ، وهلاك خاقانهم كل أولئك أدى الى انقسام مملكتهم ، وعلى الرغم من أن العرب لم يكن لهم تأثير كبير ، فقـــد ظلت البـــلاد زمانا فى الفتن

والقلاقل ، ولم يحتــل الأتراك (القارلوق) محــل الأتراك (الغز) على ضفتى نهو جوالا فى سنة ٧٦٦ ٠

الاتصـــال بالاسلام

أحرز العرب أهم انتصاراتهم فى آسيا الوســطى أثنــاء ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان بين سنتى ٧٦ ــ ٩٨ هـ (٧٠٥ ــ ٧١٥) وتنبئنا نقوش أورخون بأنه فى النصــف الثانى من هذه السنوات العشر، أى بين ٧١٠ ــ ٩٢،٧١٥ ــ ٩٧ هـ استولى الأتراك الشرقيون عــلى دولة توركه ش لمــدة محدودة ٠ وفى غزواتهم هــذه المتجهــة غربا وصــلوا الى (تيمر قابوغ) = (البــاب الحــديدى) أو الى ممر بزغاله Bouzghala الذى يفصل الصــغد وطخارستان أى البـــلاد المتمدينة الواقعة فى حوض زرفشان وقاشقادريا عن البلاد الواقعة قرب المجرى الأعلى لنهر جيحون ــ ويرى طومسن ــ وهو على صواب ــ أن هذا الممر يصل بين سمرقند وبلخ ولكنه أخطأ فى تحديد مكان الممر حين قال انه بين الصغد وفرغانه فمن المعروف أن الطريق بين (الصغد) أو (صوغديانا) الى (فرغانه) يتجه شمالا بشرق وليس جنوبا كالطريق المؤدى الى بلخ ٠

ويفهم من مجرى الحــوادث أن أتــراك الشرق حاربوا العرب كما حاربهم أتراك الغرب وعــلى هــذا الأساس تفسر بعض المواضع فى نقوش أورخون ٠ ولــكن بعض العلمــاء يشكون فى صحة هذا التفسير ، وقد رده علماء منهم العــالم الانجليزى «الشاب» جب فى كتابه « فتوحات العرب فى آسيا الوسطى » وهو أحدث الكتب المتعلقــة بالموضــوع ظهورا ٠ والواقع أن كلمة « عرب » لم ترد فى نقــوش أورخون وفى نفس الوقت فان كلمة « تازيك Tâzik » التى كان الايرانيون أول من أطلقها على العرب والتى انتقلت الى الصينيين ويحتمل

ان تكون قد وصلت أيضا الى الترك ، « ونكون بحسب النطق التركى « ته زيك Tàzik - Tczik » • هذه الكلمة يبعد ان تكون واردة فى نقوش أورخون ••

ومن المعلوم أن دلالة هذه الكلمة قد تغيرت تماما ، ففى القرن الحادى عشر كانت تطلق على غير العرب ، وربما على الايرانيين وأغلب الظن أن الأتراك أطلقوها أولا على العرب وحدهم ، ثم أطلقوها على كل المنتسبين الى المدنية الاسلامية، ثم بعد ذلك على الايرانيين خاصة لأن الأتراك كانوا يعرفونهم اكثر من غيرهم من المسلمين •

وعلى العكس من الايرانيين ثبت الأتراك ولم تستطع قوات المسلمين أن تفتح بلادهم وقد كان العرب يلتزمون سياسة الدفاع طوال القرن الثامن ، وذلك بعد أن تم لهم فتح الأماكن المتحضرة فى أحواض جيحون وزرفشان وسيحون •

واتبع العرب أيضا سياسة من سبقهم فبنوا الأسوار وحفروا الخنادق،ليحافظوا على البلاد المتحضرة الواقعة على تلك الأنهار من هجمات البدو • ومن المعروف أن البلاد المتمدنة كانت منذ القدم تبنى الاستحكامات لتصون المدنية من غارات البربر ، وهكذا انتشرت أمثال هذه الاستحكامات فى كل العالم المتمدين من بريطانيا الى الصين ومنشوريا • أما فى آسيا الوسطى فان أول ما بنى من الاستحكامات يرجع الى زمن بعيد قبل الاسلام •

ففى القرن الرابع قبل الميلاد بنيت الاستحكامات للمحافظة على مرو وعلى ما جاورها من البلاد المتمدينة من غارات قوم من البدو يحتمل ألا يكونوا تركا • وأما السد الذى أقيم قبل حكم العرب للمحافظة على القسم الشمالى الشرقى من ولاية الصغد، فقد كان المراد به حماية هذه الولاية من الأتراك البدو ، وأما الأسوار والخنادق التى أعدها العرب فى الصغد وفى ولاية بخارى وفى أطراف طشقند فمازالت آثارها قائمة الى الآن •

وبعد الحكم العربى ـ وابتداء من حكم السامانيين الايرانيي الأصل ـ بطل بناء هذا النوع من الأسوار ، ولم يستصلح ما كان باقيا منها ، فقد كان السامانيون يتبعون سياسة الهجوم ٠ ولكن هجومهم هذا كان أقرب الى الغارات منه الى أى شيء ولذلك لم تتسع على أيديهم حدود البلاد التى فتحها المسلمون ، فان كل ما أضافوه اليها هو المناطق الممتدة من وادى نهر جيرجيق Tchirtchiq الى نهر (طالاس) ٠

أثر ايران الثقافى

وعلى الرغم من أن الاتراك لم يستسلموا لأسلحةالمسلمين، فان تأثير المدنية الغربية عليهم قوى بعد دخول المسلمين فى آسيا الوسطى ٠ والواقع أنه منذ العهد الساسانى كان تأثير المدنية الايرانية قد بدأ يحل محل المدنية الهندية فى آسيا الوسطى ، وكانت ايران تسيطر على طرق التجارة العالمية البرية والبحرية ٠ ومعنى هذا أن ايران قبيل سقوط الدولة الساسانية كانت قد بلغت أقصى المدى فى ميدان التجارة كما كانت قد بلغته فى سائر الميادين ٠

ولا تعطينا ايران الساسانية صورة لدولة ارتفعت تدريجيا ثم أخذت تسقط رويدا رويدا شأن غيرها من الدول الشرقية ، وانما كان مثل الدولة الساسانية والشعب الايرانى كمثل الحكومة الألمانية والشعب الألمانى فى العصر الحديث : انهارت الدولة بعد أن وفقت فى مجاهدة الأعداء الخارجيين بما بذلت من قوى هائلة ٠ وكان توفيق الساسانيين فى الغرب بخاصة اى فى حروبهم مع البيزنطيين ٠ وقد أحرزوا أيضا بعض النجاح المؤقت فى الشرق بفضل اتفاقهم مع الترك ولكن العلاقات بينهم ما لبثت أن ساءت ثم انقطعت ٠ وعدا هذا فقد كان الساسانيون كما كان الأكمينيون من قبلهم لا يستطيعون ـ وهم يخوضون الحروب فى الغرب ـ أن يحافظوا على حدودهم فى الشرق ، وقد أفاد الترك من هذا الوضع فسلبوهم حوض نهر جرجان الذى يصب حاليا فى بحر

الخزر ولكن الاتراك باستيلائهم هذا وقعوا تحت تأثير المدنية الايرانية ودخلوا الديانة الزرادشتية • ويدلنا هذا المثل على ان ايران الساسانية كانت تؤثر بفضل مدنيتها واهميتها الاقتصادية على جيرانها دون أن تنتصر عليهم عسكريا • وربما أمكن بهذه الصورة أن نتبين كيف رسخت اقدام المدنية الزرادشتية فى الصغد بعد اضمحلال الديانة البوذية هناك ، ويمكن بفضل أوصاف الرحالة الصينى هيوان ـ تسانج الذى جاب أواسط آسيا فى سنة ٦٣٠ أن نقول ان انتصار الديانة الزرادشتية على الديانة البوذية فى أواسط آسيا بدا فى أواخر أيام الساسانيين ففى عهد هيوان ـ تسانج كانت البوذية قد انقرضت تماما فى بلاد الصغد ، فبعد أن جاوز هذا الرحالة تركستان الشرقى ، حيث بلغت البوذية غاية الازدهار لم يقع نظره على أديرة بوذية الا بعد أن تجاوز الحدود الجنوبية للصغد ووصل الى طخارستان ، وفى سمرقند عاصمة الصغد وجد ديرين اثنين للديانة البوذية وكانا خاليين • ولم يكن الزرادشتيون يدعون رجال الدين البوذى يجتمعون فى هذين الديرين، بل كانوا يطردونهم ويقذفونهم بالحطب المشتعل ولكن هيوان ـ تسانج استطاع أن يبعث الحياة فى تلك الأديرة البوذية لمدة قصيرة جدا • ويفهم من روايته عن سمرقند أن اخراج البوذية ومطاردتها من الصغد وقعا قبل وروده على تلك البلاد بقليل •

البـــوذية

وقد كشفت لنا بعثات الآثار فى تركستان عن وجود نصوص بوذية فى لغة الصغد وعن أن هذه النصوص قد ترجمت الى لغة الترك وأنها أثرت عليهم • وأول من حقق هذه الوثائق هو عالم الايرانيات الفرنسى جوثيو Robert Gauthiot وقد قرر أن هذه الوثائق لا ترجع الى أبعد من القرن السابع ، ولكننا اذا سلمنا بصحة ما ذهب اليه لزم أن تكون هذه الوثائق قد كتبت فى غير بلاد الصغد • وليس

معنى هذا ان راى جوثيو خاطىء من اساسه ، بل يحتمل ان تكون بعض مستعمرات الصغد المتعددة في اواسط اسيا قد احتفظت بالبوذية حتى ذلك العصر • وفى اثنـــاء سـيطرة المدنية البودية على بلاد الترك لم يكن مروجو الديانة البوذية من الهنود هم وحدهم الوافدين عـلى تلك البـلاد ، بل كان التجار الهنود يفدون عليها كذلك ، ومن مخلفات ذلك العصر التى مازالت باقية الى الان كلمة (ســارت) وقد اسـتعملها الأتراك أولا بمعنى (تاجر) وظلت تستعمل بهذا المعنى حتى القرن الحادى عشر • وثبت الآن أن هذه الكلمة وردت عـلى الترك من الهند ، ولابد أنها دخلت عندهم زمان كان اغلب الوافدين على الترك من التجار هنودا ، ثم انتقلت التجـارة بالتدريج من أيدى الهنود الى أيدى الايرانيين ولم تكتسب هذه الكلمة عند الترك والمغول مدلول عنصريا الا فى العهد الاسلامى وبعد القرن الحـادى عشر ، فأطلقت على قوم من ايرانيى آسيا الوسـطى كان الأتراك يعتبرونهم (قوما من التجار) •

تأثـير ايـران

وقد زاد تأثير ايران على أسيا الوسطى بعد الاسلام فلم يظل تأثيرها فى العهد الاســلامى ثقافيا فقط كمـا كان من قبل ، فقد اتحد الايرانيون فى فارس مع الايرانيين فى أسيا الوسطى فى دولة واحدة لأول مرة منـذ عهـدى الاسـكندر المقدونى والسلوقيين ، وجاء كثير من الايرانيين مع العرب وتوطنوا تركستان ، ووقف ايرانيو آسيا الوسطى (بواسطة الايرانيين الوافدين حديثا) على مناقب ملوك ايران القدماء • وبدأ اللسان الفارسى يحل محل اللهجات الايرانية فى آسـيا الوسطى ، وظهرت لغة آدبية فارسية واحدة لايرانيى ايران وايرانيى تركستان •

وانقرضت لغات ايرانيى تركستان القديمة ومن بينها لغة الصغد الأدبية ، وظهرت فى مكانها اللغـة المسماة الآن

« تازيك » وليس بينها وبين الفارسية الا فروق يسيرة · ولم يكن للفارسية هناك الا خصم واحد هو اللغة التركية وكان صراع اللسان الفارسى ضد اللسان التركى فاشلا فى أكثر الأحيان ·

وتوجد منذ القرن الأول للاسلام حتى الآن ظاهرتان من مظاهر التطور :

١ ــ فاللغة الفارسية الادبية تضيق بالتدريج لهجات الحديث المحلية فى ايران وتلاشيها ·

٢ ــ واللغة التركية ، تضيق اللهجات الفارسية ومن بينها الفارسية الأدبية وتلاشيها ·

والى هذا ، فمن الجدير بالملاحظة أن اللسان التركى يوسع مجال انتشاره داخل ايران نفسها ، فاذا عاش الترك والفرس معا فى قرية واحدة مثلا ، صار اللسان التركى بعد مدة لسانا عاما للفريقين ·

بدأ المسلمون (بعد أن وطدوا حكمهم فى آسيا الوسطى) يفيدون من طرق التجارة القديمة ، وتحدثنا المصادرالصينيه بأن قوافل المسلمين التجارية كانت فى القرن الثامن تصل الى القيرغيز ، مارة من بلاد القارلوق الى أعالى نهر ينيسى وفى المصادر الاسلامية معلومات عن الطريق المؤدى الى هؤلاء القيرغيز ، وتتفق هذه المعلومات الى حد ما مع ما ورد فى نقوش أورخون ، فسلسلة جبال (سايان) تسمى فى نقوش أورخون وفى المصادر الاسلامية باسم واحد هو « كوكمه ن Kögmen » وترد بعد ذلك معلومات عن الطريقين المؤديين الى « ايرتيش Irtich » وقد ورد ذكر هذا النهر فى نقوش أورسون أثناء الحديث عن غزوات خاقانات أتراك الشرق فى تلك الجهات ، فأما الأتراك القاطنون فى منطقة «ايرتيش» ، فلم يرد لهم ذكر لا فى نقوش أورخون ولا فى المصادر الصينية · ولكن المصادر الاسلامية تذكرهم لأول مرة ، فقد كان العرب أكثر اهتماما بالطريق المؤدى الى الصين ، ولهذا

كثرت المعلومات فى المصادر الاسلامية عن هذا الطريق وعن الأقوام التركية القاطنة بمحاذاته ·

ومع هذا ، فان المصادر الاسلامية لا تذكر شيئا عن سكان بلاد المغول ولا عن أحداث هذه البلاد قبل ظهور جنكيزخان . على حين أننا نعلم من المصادر الصينية أن التجار المسلمين كانوا منذ سنة ٩٢٤ يترددون على بلاد المغول ·

وتقف معلومات العلماء المسلمين عند حدود القيرغيز ، بل كانوا يتصورون أن بلاد القيرغيز تنتهى عند البحر المحيط الشرقى ·

واذا نظرنا الى سعة المجال التجارى للمسلمين والى كثرة مؤلفاتهم الجغرافية ، توقعنا أن تكون معلوماتهم عن وسط آسيا وشرقها أوسع مما هى ، ولكن هذه المعلومات — الى ضيقها — أقل وضوحا وصراحة مما نتصور ، بل ان الافادة منها أمر ملىء بالصعاب · وقد لا نقدر هذه الصعاب قدرها فى بعض الأحيان فنصل بذلك — الى نتائج خاطئة ومن أهم الصعوبات أننا لا نستطيع ارجاع ما ترويه هذه المصادر من أحداث الى زمان وقوعه وقد نهج العرب فى مؤلفاتهم الجغرافية منهجهم فى سائر مؤلفاتهم، فأخذوا المعلومات من الكتب وألفوا بينها ومن المحقق أن التصنيف والأخذ عن الكتب المدونة يغلب فى الكتب التى بين أيدينا على روايات الرحالة الذين يصفون ما رأوا بأعينهم · وفى أكثر الأحيان تتكرر الحكاية الواحدة الواردة فى مؤلف بعينه فى كتب أخرى فى أزمنة مختلفة ولا يصرح المؤلف بأن هذه الحكاية قد وقعت قبله بقرن أو بعدة قرون ·

وأحيانا يخلط المؤلف ما جمعه هو أو ما جمعه معاصروه عن بلد معين بما دون عن هذا البلد فى كتب ألفت قبله بقرون عديدة ، ثم يعطينا عن هذا البلد صورا وتفصيلات ولا يشير مطلقا الى أن معلوماته ترجع الى عصور مختلفة

وهكذا يخطىء القارىء الفهم لانه يظن أن كل ما ورد فى الكتاب راجع الى زمن المؤلف ٠

وقد يلجأ بعض العلماء الكبار دون جدوى الى فروض علمية ليبرروا رأيا لمؤلف معين ٠ على حين أن المؤلف قد نقل هذا الرأى حرفيا من كتاب يسبقه بعدة قرون، وقد وقع من زمن قريب خلاف حول كلمات أوردها أحد جغرافيي القرن الثالث عشر وهو ياقوت الحموى ، فقد ذكر ياقوت أن الأتراك والبيزنطيين هم أعداء الاسلام وأنهم أوقعوا بالعالم الاسلامى أضرارا كبيرة ، وتبدو هذه العبارة عجيبة لأن الأتراك فى القرن الثالث عشر كانوا يحتلون منزلة مهمة فى العالم الاسلامى ، وقد حاول بعض العلماء ايضاح هذه العبارة ، فذهبوا الى أن الأتراك وان كانوا مسلمين فقد كانوا يختلفون عن غيرهم من أهل الاسلام لانتشار التشيع والمذاهب المبتدعة بينهم ، وقد تأكد فيما بعد أن ياقوت نقل هذه العبارة بحروفها من المقدسى وهو من رجال أواخر القرن العاشر ، ولابد أن يكون المقدسى قد نقلها بدوره من كتاب آخر ، وبناء على هذا فان القول بأن الأتراك أعداء الاسلام يرجع الى زمن لم يكن فيه مسلم من الأتراك الا عساكر الخلفاء العباسيين وغيرهم من الحكام المسلمين ، وفى ذلك الوقت كان الأتراك غير المسلمين ـ شأنهم شأن البيزنطيين ـ أعداء خارجيين للاسلام وقد كانوا هكذا فى نظر المؤلفين فى القرن العاشر ، ومما يزيد الأمر صعوبة أن العرب لم يعنوا بالحروب الداخلية بين قبائل الترك ، ولا بما كان يحدث أحيانا من أن تقوم دولة من بدو الترك على أنقاض دولة أخرى فخلت بذلك المصادر الاسلامية من اية اشارة الى الأحداث التاريخية فى صحارى الترك ٠ ولولا المصادر الصينية والمصادر اليونانية لعجزنا الى حد ما عن تكوين فكرة عن تلك الأحداث ، ولعل هذا هو السبب فى أن الأحداث التى وقعت فى الشرق أى فى منغوليا

وفى تركستان الصينية كانت أوضح من تلك التى وقعت فى الجزء الغربى من مناطق الاستبس فى آسيا الوسطى ٠

الأويغـور

وتحدثنا المصادر الصينيه وحـدها بأن دولة الاويغـور حلت محل دولة الاتراك الغز في منغوليا سـنة ٧٤٥ ، وكان المقر الرئيسى لخاقان الأويغور يقع ايضا على نهر أورخون ، قريبا من مدينة قاراقورم التى بنيت فيما بعد فى عهد المغول وقد نشأت مدينة جديدة الى جوار مقر الخاقان ٠ ويفهم من دراسة أطلال هذه المدينة ورسومها أنهـا كانت أوسـع من المدينة التى بناها المغول فيما بعـد أى « قراقورم » وبقيت دولة الأويغور مائة سنة تقريبا ثم انقرضت سنة ٨٤٠ عـلى يد القيرغيز الزاحفين من الغرب ، ولـكن المصـادر الصينيه تروى أن الأقوام البدوية التى كانت تقطن منغوليا قد تشتتت بسبب ما كان يقع بينهما من حـروب وان المطـرودين منهم اتجهوا الى تركستان ، حيث توطنوا وألفوا بالتدريج المدنية وحياة الحضر وأول من توطن القسم الشرقى من تركسـتان الصينية هم الأتراك المعروفون باسم «باسميل»، ويلاحظ أن تقاليد هؤلاء « الباسـميل » قد حفظت عـلى الرغم من كثرة الانقلابات وقيام قوم مكان قوم آخرين فى تلك البلاد ٠ وفى نقوش أورخون تستعمل كلمة « ايدوق قوت » لقبا لحـاكم الباسميل والمعنى الحرفى لهذه الكلمة هو «السعادة المقدسة» أو « العظمة » وكلمة « قوت » فى اللغة التركية تستعمل مقابل الكلمة الأوربية Majestat . « حشمت مآب » = صاحب الجلالة ٠

وفى القرن الثالث عشر كان نفس هذا اللقب يستعمل للحـاكم الأويغـورى فى نفس المنطقـة ، فقد كان يلقب « ايديقوت » ٠ وقد أطلق الصينيون على جماعة الأتراك الغز المهاجرين من منغوليا الى شرقى تركستـان الصـينية اسـم (شا ــ تو) أى سـكان الاستبس وكانت مدينـة بش باليق فى أيدى هؤلاء الترك منـذ القرن التاسـع ٠ ولما تعرضوا

للضغط من ابناء جنسهم المتـوطنين فى الغرب لم يقـاوموا ولكن هاجروا مضطرين الى الشرق ، فدخلوا الصين وهنـاك اشتركوا فى قمع ثورة قامت فى النصف الثانى من القـرن التاسع ، واستطاعوا بذلك أن ينقذوا عرش الامبراطور • وكانت لهؤلاء الأتراك الـ « شا ــ تو » دويلات بين تلك التى ظهرت فى النصف الأول من القرن العاشر فى الشمال الغربى من الصين •

وفى النصف الثانى من القرن التاسع حوالى سنة ٨٦٠ هاجر قوم من الاويغور ، بعد أن عجزوا عن مقاومة القيرغيز المتوطنين فى منغوليا، الى أطراف « بش باليق » واستوطنوها وتكونت هناك دويلة أويغورية استطاعت أن تعيش حتى عهد المغول أى الى القرن الرابع عشر ، وكون فـرع آخـر من الأويغور دويلة فى المكان الذى توجد به الآن مدينة « غانجزو Kan-Tcheou وقبيل تكون هذه الدويلة كان هناك صراع بين الصينيين وأهل التبت حول ذلك المكان ، وكانت كفة أهل التبت فى هذا الصراع أرجح فى نهاية الأمر • وفى القـرن الحادى عشر وفق « التانكوت » وهم قوم من أهل التبت فى الاستيلاء على ذلك المكان وتكوين دولة غزاها المغول فيما بعد ومن ذلك التاريخ سمى الاقليم « اقليم التانكوت » وما زال الأويغور يعيشون هناك حتى الآن ، دون أن يكون لهم طوال تلك المدة دخل فى أى عمل سياسى ، وهم يحتفظون الى حـد ما بلغتهم التى تمثل احدى اللهجات التركية القديمة ، وقد بقيت فى هذه اللغة وحدها طريقـة العـدد كمـا وردت فى نقوش أورخون وفى بعض النصـوص الأويغـورية ، وهى عبارة عن وضع الآحاد قبل العشرات التى تليها فهم يقولون مثلا « واحد وعشرون » بدلا من « أحـد عشر » و « واحـد وثلاثون » بدلا من واحد وعشرين ، فواحد وعشرون عندهم معناها واحد فى اتجاه العشرين أى أحد عشر وواحد وثلاثون معناها واحد فى اتجاه الثلاثين أى « واحد وعشرون » •

وقد خلف هؤلاء الاويغور ـ كما خلف الأتراك الغز ـ بعض النقوش أهمها وأطولها مكتوب باللغة الصينية وتعزز هذه النقوش ما ترويه المصادر الصينية من ان الاويغور لم يستمسكوا بالديانة الشامانية ولم يتأثروا كما فعل الاتراك الغز بالديانة البوذية ولكن دخلوا فى احدى الديانات الغربية وهى الديانة المانوية وقد نجح المانويون فى نشر دينهم بين الصغد كما نجح البوذيون والمسيحيون من قبلهم ، ثم استغل المانويون فيما بعد نجاح الأويغور التجارى فى نشر ديانتهم المانوية • وقد ذكر دخول الأويغور فى الديانة المانويه فى النقش الصينى الطويل الذى أشرنا اليه من قبل والموجود بنواحى أورخون ـ ويذكر نقش صغير باللسان الصغدى وموجود بنفس المكان أن دخول الأويغور فى الديانة المانوية تم على أيدى بعض المبشرين من الصغد ـ وتذكر المصادر الصينية أن هؤلاء المبشرين لم يخرجوا من بلاد الصغد نفسها ليبشروا الاويغوريين ، ولكنهم التقوا بهم سنة ٧٦٢ أثناء غزوة قام بها قاغان الأويغور فى الصين ، ويدل هذا على أن تجارة الأقوام الغربية مع الصين كانت أهم كثيرا من العلاقات بين هذه الأقوام وبين البدو • وقد بدأ تأثير الصغد الحقيقى على الأتراك البدو بعد أن تكونت للصغد مستعمرات تجارية فى داخل الصين وعلى الطريق المؤدى اليها ، وزاد هذا التأثير بزيادة غارات الترك على الصين وعلى ما نسميه الآن بتركستان الصينية • وكان تأثير الصغد الدينى على الترك أقوى وأكثر تنوعا مع تأثير الأقوام الهندية الأوربية المستوطنة فى تركستان الصينية ، فعلى حين لا يوجد فى بقايا اللغتين الهنديتين الأوزبيتين المكتشفتين فى كوجه koutcha وختن Khotan الا نصوص بوذية ، فان الآثار المحررة باللغة المسماة بالصغدية « على الرغم من أن منطقة انتشار هذه اللغة لم تحدد جغرافيا فيحتمل أنها كانت لغة سكان كاشغر وما حوليها » تحوى الى جانب النصوص البوذية نصوصا مانوية ومسيحية •

وأما اللغة التركية فان فيها نصوصا مترجمة ونصوصا أصيلة عن هذه الديانات الثلاث •

وقد أحرزت المانوية والمسيحية أكبر التوفيق فى أواخر القرن السابع وأوائل الثامن ، أى فى نفس الوقت الذى قوى فيه حكم المسلمين فى غرب آسيا •

ولم ينتشر الاسلام فى أول الأمر على أيدى المبشرين ولكن انتشر بفضل علاقات الدولة العدائية أو السلمية مع الدول الأجنبية ، وكان من الطبيعى أن تستفيد الديانات السابقة على الاسلام من الفرص المواتية ومن الامكانات التى ترتبت على الفتوحات الاسلامية • وقد كان لدخول الترك فى ديانة مانى أهمية كبيرة فى تاريخهم ، اذ ليس لدينا ما يثبت مهما يكن توفيق المبشرين أن البوذية أو المسيحية أصبحت دينا لشعب كامل من الترك لا فى القرن الثامن ولا قبل ذلك، ولكن المانوية كانت أول دين دخله الترك بوصفهم شعبا بعد الديانة الشامانية • وكانت أول دين ذى أسس أخلاقية يعتنقه الترك ، فبينما ترى الديانة الشامانية أن قتل الانسان يفيد يوم القيامة ، فان ديانة مانى لا تكتفى بتحريم قتل الانسان بل تحرم أكل لحم الحيوان •

وقد كان الأتراك يفهمون التضاد بين الديانتين • ومسطور فى نقوش أورخون أن الأمة التى كانت تأكل اللحم ستأكل الأرز والبلد الذى يكثر فيه القتل يسود فيه فيما بعد الأمر بالمعروف •

الأبجدية الأويغورية

وجد مع نقش خاقان الأويغور المكتوب بالصينية نقش صغدى صغير الى جانبه أسطر من اللغة التركية كتبت بالرسم الأورخونى • ويرجع هذا النقش الصغدى الى النصف الأول من القرن التاسع ــ وهو يمثل أول خط غير أورخونى انتشر بين الأتراك وهو الخط الأويغورى وكان المانويون قد نقلوا

معهم خطهم الخاص من ارض بابل (العــراق العــربى) ، ولكنهم كانوا فى نفس الوقت يستعملون الأبجدية الصغدية القومية ، وقد استعملوها فى النص المنقوش على قبر خاقان الأويغور ولما أسلم الصغد الايرانيــون نبــذوا تلك الكتابة القومية واستعملوا الحروف العربية ، ولا يدرى اذا كانت الكتابة الصغدية قد استعملت ولو قليلا فى تحرير النصوص الاسلامية • وفى نفس الوقت حافظ الأويغور على الكتــابة التى انتقلت من الصغد الى الترك وتعرف هذه الكتابة عنــد العلماء باسم الكتابة الأويغورية • ومن المعروف أن الأتراك واصلوا استعمال هذه الكتابة بعد دخولهم فى الاسلام ولم يتركوها بسهولة ، وفى نفس الوقت نشر الأويغــور هــــذه الأبجدية في منغوليا ، ثم جاء بها المغول ثانية الى الغرب وبعد قليل انتقلت من المغول الى المانجو Manchous وهكذا نرى كيف وصلت الأبجدية الســامية الأصــل الى المحيط الهــادى بواسطة الصغد والأويغور ثم المغول • ولا شك فى أن هــذه الأبجدية صغدية ، وقد عرف ذلك العلماء المسلمون وصرح به المؤلف المسلم فخر الدين مباركشاه المروروزى وهــو من رجال أوائل القــرن الثالث عشر ، ولم يكن اســتبدال الخط الأويغورى بالخط الأورخونى بداية رقى ، بل كان خطوة الى الوراء لأن الأبجدية الأويغورية لا تدل على الأصوات التركية دلالة الأبجدية الأورخونية •

الأويغور فى تركستان الصينية

لما طرد الأويغور من منغوليا حملوا الديانة المانوية الى الامارات التى أسسوها فى تركســتان الصينية وفى غانجــو Kan Tchov • ويحتمل أن تكون هذه الديانة قد انتشرت فى تركستان قبل أن يفد عليها الأويغور أى فى حكم الغــز المعروفين باسم (كوك ــ ترك) أو فى زمان خلفائهم ، وربما كانت كتابات الجغرافيين العرب مؤيدة لهذه الفكرة ، فبين أيدينا كثير من كتبهم التى ترجع الى القرن العاشر الميلادى

وهو العهد الكلاسيكى لكتابة الجغرافيا عند العرب ، وتحوى هذه الكتب وصفا مفصلا للعالم الاسلامى ، وفيها كذلك معلومات قليلة عن الأماكن الآهلة بالترك والواقعة على الطريق الذى يربط العالم الاسلامى بالصين .

ويوجد طبقا لما تصوره هذه الكتب ثلاثة أقوام من الترك فى الأرض الممتدة من بحر الخزر الى حدود الصين وهؤلاء هم:

١ ـ الغز وينتشرون فى الأراضى الممتدة فى بحر الخزر الى أواسط مجرى سيرداريا .

٢ ـ القارلوق وينتشرون فى الأراضى التى تمتد الى مسيرة عشرين يوما شرقى فرغانة .

٣ ـ التغزغز أو طوقوز ـ أوغوز ويسكنون الأراضى التى تبدأ من حدود أراضى القارلوق وتمتد حتى الصين .

وهذا الوصف لبلاد الترك يرجع حسب ما تروى المصادر الصينية الى عهد الحكم الآويغورى فى شرق تركستان الصينية . وأول من تحدث عن الطريق المؤدى الى الصين وعن الاتراك الذين يقطنونه هو ابن خرداذبه ، ولكننا لا نعرف بالضبط متى ألف كتابه أقبل سنة ٨٦٠ أى قبل أن يتوطن الأويغور فى تركستان الشرقية أم بعد ذلك . ومع هذا فيمكن أن نستنتج أن الأتراك الذين يسميهم جغرافيو العرب (تغزغز) هم هم الذين تسميهم المصادر الصينية (أويغور) وفى وقت ما قرئت كلمة تغزغز على أنها (طقوزغور) أى (طقوزاويغور) ثم عدل عن هذه القراءة .

وتنفى مصادر التاريخ العربية أن يكون الأويغور هم (الطقوزاوغوز)، فيروى ابن الأثير أن الغز الغربيين منحدرون من الـ(طقوزاوغز) ويروى الطبرى أن الـ(طقوزاوغوز) أغاروا بعيد سنة ٨٢٠ على أشروسنه وهى عبارة عن الأراضى الواقعة بين مدينتى جزاق وخجند الحاليتين ، ومعنى هذا أن كلمة (طقوزاوغوز) لم تكن تطلق على الأتراك المتوطنين

في الجــزء الشرقي من تركستان الصــين فحسب ، بل كانت تطلق كذلك على الأتراك المتاخمين مباشرة للبلاد الاسلامية ، ويؤيد هذا ما يروى من أن بعض (الطوقوز أوغوز) كانوا يقعون أسرى في أيدى المسلمين ، كما يمكن أن يستنتج منه أن أبا أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونيــة في مصر كان من الأتراك (طوقوز اوغوز) •

ولم يرحل ابن خرداذبه وهو أقدم من وصفوا الطريق المؤدية الى الصين الى تلك النواحي، ولكن صنف كتابه بما جمع من الروايات ، وقد أورد ياقوت الحموى نفس الوصف الذى أورده بن خرداذبه ، الا انه ينقل عن رجل طوف بنفسه في ذلك الطريق وهو تميم بن بحر المطوعي ، ولــكن ياقوت لم يذكر مع الأسف تاريخ رحلة تميم ولابد أن نقبل ــ على ضوء ما ورد في هــذه الرحلة من تفاصــيل ــ أنها كانت بين عام ٧٦٠ وبين بداية القرن التاسع ، فأما عام ٧٦٠ فهو تاريخ نشأة حكم القارلوق في منطقة (سميريتشي) = (يتى صو) = (بلاد الأنهار السبعة) في الجــزء الغــربي من تركســتان الصينية ، وأما بداية القرن التاسع فهي تاريخ هجرة الأتراك (شا ــ تو) من منطقة (بش باليق) الى الشرق ، أى الى داخل الصين • وهؤلاء الأتراك هم المذكورون في المصادر الصينية والمنحدرون من الأتراك المذكورين في نقوش أورخون أى الأتراك التغزغز •

ولا شك في أن العرب قد عرفوا عن كثب نــواحي بش باليق حين كان يسكنها التغزغز، ولكن فاتهم أن هؤلاء التغزغز هاجروا شرقا فيما بعــد ، وأن قوما آخرين من الترك حلوا محلهم وظلوا كعادتهم يطلقون عــلى ســكان تلك النــواحي التغزغز • ولعل أوضح دليل على أن كلمة (طقوزاغوز) كانت تطلق أول الأمر على الـ (شــا ــ تو) لا عــلى الأويغــور أن المسعودى يروى أن امبراطــور الصــين اســتطاع بمعاونة التغزغز قمع ثورة قامت ببلاده في النصف الثاني من القرن

التاسع ، على حين تروى المصادر الصينية أن ذلك تم بمساعدة الأتراك « شا ــ تو » وهكذا نسب العرب هذا الحادث التاريخي « الذى يعتبر وروده فى المصادر العربية والصينية معا احدى النوادر » الى التغزغز وعزاه الصينيون الى (شا ــ تو) ٠

وفي أثناء رحلة تميم بن بحر كان بأراضى التغزغز من لا يزال يدين بالزرادشتية ومن لا يزال يدين بالمانوية ، وفى أول الأمر كانت ديانة زرادشت هى السائدة ، وكانت المانوية فى العاصمة فقط ٠ ولكن بما أن العرب يتحدثون عن التغزغز بوصفهم جميعا مانويين ، فلابد أن الزرادشتية كانت آخذة فى السقوط بالتدريج مما قوى المانوية ، ويقال ان هذه الديانة ــ مثلها كمثل البوذية ــ ترقق شمائل الانسان ومزاجه ، ولذلك أضعفت الروح العسكرى عند التغزغز ٠ ويروى الجاحظ المتوفى سنة ٨٦٩ أن التغزغز كانوا قبل اعتناقهم المانوية أمة محاربة باسلة وأن الغلبة كانت لهم على القارلوق فى الحروب التى خاضوها ضدهم ، حتى حين كان عددهم أقل ٠ فلما دخلوا ديانة مانى بدءوا يذوقون الهزائم ٠

ويرى ماركارت أن الأويغور البدو هم المقصودون بكلام الجاحظ ويرى أيضا أن العرب قد بلغتهم أخبار تدمير الدولة الأويغورية فى منغوليا على أيدى القيرغيز ، هذا مع أن الحرب المذكورة فى رواية الجاحظ والتى نقلها ماركارت كانت ضد القارلوق لا ضد القيرغيز ٠ ومن هنا يفهم أن الحرب التى أشار اليها الجاحظ لم تكن بمنغوليا كما يرى ماركارت وانما كانت احدى الوقائع التى دارت فى تركستان الصينية ، ويفهم أيضا أن أولئك الذى تسميهم المصادر العربية « تغزغز » كانوا مستوطنين قبل مجىء الأويغور الى تركستان الشرقية ، وكان وصول هؤلاء الأويغور الى تركستان الشرقية قبل وفاة الجاحظ بثلاث سنين ، ولكن يؤخذ من رواية الجاحظ أن التغزغز كانوا يعيشون منذ زمن بعيد فى تركستان

الشرقية حيث عرفهم العرب وانهم كانوا فى صراع طويل مع جيرانهم الغربيين : القارلوق •

ومع ان الاويغور كانوا يعيشون فى شرق تركستان ، فقد ظل العرب — بتاثير المصادر المكتوبة — يطلقون على سكان هذا الاقليم (التغزغز) وكانت أخبار هؤلاء الاويغور الواردة فى المصادر العربية جزئيـة مقتضبة ولعل أكبرها أهميـة ما أورده المسعودى والنديم ، وهما من رجال القرن العاشر ، فهما يرويان أن خان الأويغور كانت له من أجل حماية أبناء ديانته المانوية مساع لدى امبراطور الصين ولدى ثلاثة من الأمراء المسلمين من آل سامان • وقد روى ابن النديم أن خان التغزغز لما علم بما يبيت الأمير الساماني للمانويين المقيمين بسمرقند بعث اليه بأن المسلمين فى أراضى التغزغز أكثر عدداً من المانويين فى أراضي السامانيين، وبأنه ان مس المانويين أذى أو اضطهاد فسيمس المسلمين ببلاد التغزغز مثله • فعدل الأمير السامانى بسبب هذا التهديد عن سياسة التضييق التى كان يزمع اتباعها ازاء المانويين وتدل هذه الرواية على أن الجاحظ بالغ حين زعم أن المانوية أضعفت الروح العسكرى عند التغزغز ، وقد قيل أيضا ان البوذية أضعفت روح القتال عند المغول، وفى ذلك مبالغة، فقد خاض المغول فى سبيل الاستقلال حروبا ضد الصينيين دلت على أنهم لم يفقدوا صفاتهم العسكرية ، وكذلك ظهر أهل التبت على مسرح الحوادث غزاة محاربين وكان ذلك فى القرن السابع وهم ما يزالون حديثى العهد بالديانة البوذية •

وفى أوائل القرن العشرين رأى الانجليز وهم يدخلون بلاد التبت مقاومة باسلة من أهل البلاد مع أنهم تحت سيطرة البوذية منذ قرون ، ويكفى فى هذا الباب المثل الذى ضربه المسيحيون الأوربيون فى القرون الوسطى ، فانهم برهنوا على أن الأمة المحاربة تستطيع أن تجعل من دين السلام والحب دين حرب ، وكذلك الأويغور البدو فانهم تذرعوا بالمانوية

بعد اعتناقها ليهددوا الصين وكان على امبراطور الصين وهو يضطهدالديانات المنتشرة فى بلاده ، ما عدا البوذية، ان يحسب حساب الحماية التى بسطها خاقان الأويغور على المانويين بالصين ولم يضطهد الصينيون الديانات الأجنبية ببلادهم الا بعد أن انهارت دولة الاويغور على يد القيرغيز ، فهناك اضطهدت الديانات ومن بينها المانوية • وبعد أن توطن الاويغور شرقى تركستان استأنفوا سياسة التهديد ازاء الصين ولكنها لم تكن فعالة كما كانت من قبل أيام كانت لهم حكومة قوية فى منغوليا • ومع هذا فيستنتج من هذه الروايات التى أوردها المسعودى والنديم أن الأويغور كانوا لا يحجمون حتى بعد استيطانهم شرقى تركستان عن استعمال السلاح ذيادا عن أبناء دينهم فى البلاد الأجنبية : أى أنهم لم يفقدوا ميزاتهم العسكرية •

الديانة المانوية عند الأويغور

يستطيع علماء اوربا لأول مرة ان يدرسوا الديانة المانوية فى وثائق حررها المانويون أنفسهم ، وذلك بعد أن كشفت بعثات الآثار فى آسيا الوسطى عن وثائق مانوية مكتوبة بالفارسية والصغدية والتركية والصينية، فحتى الآن تدرس الديانة المانوية فى المصادر المسيحية والاسلامية وهى جميعها مصادر جدلية معادية • كانت المانوية ترمى ـ كالبوذية تماما ـ الى أن تنتشر بين جماهير الشعب ، وكانت تعاليم الزهد فى الديانة موجهة ضد نظام الطبقات الذى كانت الديانة الزرادشتية ـ وخاصة فى ايران ابان حكم الساسانيين ـ تحتفظ به • ومن أجل هذا كتبت النصوص المانوية بحيث يفهمها العامة ، وتتميز مخطوطات تلك الديانة بين مخطوطات ذلك العهد بوضوح الأسلوب وبخلوها من الرموز اللفظية السامية التى كانت تحشد بها النصوص البهلوية والتى استعملها المسيحيون الايرانيون أيضا •

فقد كان هؤلاء يكتبون كثيرا من الكلمات باللغات السامية حتى اذا قرءوا نطقوا باللغة الفارسية •

وكذلك كانت كتابات المانويين التركية واضحة وبسيطة، وأهم نصوصهم المكتوبة بالتركية « صلاة التوبة » المسماة خواستوانيفت Khwastwanift ويرى رادلوف أن هذا الأثر يفوق كل ما وقع بين أيدينا من النصوص التركية سلاسة ٠

ومن خلال هذا النص تبدو المانوية ـ كما كنا نتوقع ـ قريبة الشبه بالبوذية : فقد كان يعاقب على التطاول بالمقدسات المانوية بنفس الطريقة المتبعة في الديانة البوذية ، ويظهر تقارب الدينين بوجه خاص فيما كان بينهما من الاصطلاحات المشتركة التى تدل فى نفس الوقت على أنهما كانا يتأثران أحدهما الآخر ، حتى اننا لا نستطيع بسبب هذا التأثر أن نجزم أى الدينين انتشر أولا بين الترك : المانوية أم البوذية، فالمانويون يسمون قديسهم « بورخان » وهى الكلمة التركية التى تدل على « بوذا » وعلى التماثيل البوذية ، والبوذيون يطلقون على كتبهم المقدسة كلمة « نوم Nom » وهى اصطلاح مانوى مازال مستعملا حتى الآن في اللغة المغولية ٠ وقد حاول البوذيون والمانويون كما حاول المسلمون والمسيحيون فيما بعد أن يصوغوا اصطلاحاتهم الدينية من اللغة التركية حتى يسهل انتشارها ، ولكن ذلك لم يكن ميسرا في كل الحالات ٠ فلئن كان الاصطلاحان الدالان على كلمتي « الله » و «ابليس» موجودين فى الديانة الشامانية ، فلم يكن بتلك الديانة اصطلاح يدل على « الملك » وقد اضطر المبشرون المانويون والنصارى والمسلمون المزاولون نشاطهم بين الترك أن يستعملوا الكلمة الفارسية « فرشته » وأن يكتفوا بها ، وقد أشار محمود الكشغرى الى أن الترك ليس عندهم تصور لمعنى « الملك » ٠

ولم يستطع العرب أن يفرقوا تماما بين المانوية والبوذية وآية هذا أن كثيرا من المؤلفين ومن بينهم البيرونى يقولون ان المانوية انتشرت بين الترك انتشارا واسعا ، على حين يجزم المسعودى بأن المانوية كانت منتشرة بين التغزغز

وحدهم وأنها لم توجد عند غيرهم ، ولا شك أن المراد بالتغزغز هنا هم الأويغور وبعد ذلك (بعد القرن العاشر بقليل غالبا) حلت البوذية والمسيحية محل المانوية عند الأويغور ، ولكن كيف كان ذلك ومتى ؟ ذلك مالا تجيب عنه مراجعنا فحتى محمود الكشغرى وقد حرر كتابه فى القرن الحادى عشر لا يشير الى أن المانوية كانت وقتذاك موجودة عند الأويغور ، مع أنه بالنسبة لغيره أعلم كثيرا بدولتهم ٠

ولعل أهم ما يلفت النظر أن محمود الكشغرى ــ وهو الوحيد بين من كتبوا بالعربية الذى اعتمد على مشاهداته ولم ينقل عن كتاب مدون ــ لا يستعمل كلمة (تغزغز) البتة ، ولكن يستعمل كلمة أويغور ويثبت هذا ان المؤلفين نقلوا كلمة (تغزغز) عن الكتب القديمة ثم تناقلوها خلفا عن سلف ، وأن هذه الكلمة لم تكن موجودة بين الآتراك فى شرق تركستان فى ذلك الزمان ٠

واذا لم يكن الأويغور في زمان الكشغرى قد احتفظوا فعلا بالديانة المانوية ، فقد كانوا يحتفظون يقينا بالبوذية والمسيحية ، ذلك بينما كان جيرانهم الغربيون تحت تأثير الاسلام ٠

فهل يمكن أن نلم بشيء عن هذا الأمر الجلل فى تاريخ الترك ؟ سأحاول ذلك فى المحاضرة القادمة ٠

المحـاضرة الرابعـة

دخول الترك فى الاسلام

أخـذ الاسـلام ينتشر بين الترك حين بسـطت دولة آل سامان الايرانية نفوذها فى أواسط آسيا ففى القرنين التاسع والعاشر (من ٨٢٠ الى ١٠٠٠ تقريبـا) كانت المنـاطق المتحضرة بتركستان الروسية الحالية فى قبضتهم ، وتسـمى الولايات الواقعة بالجـانب الآخـر من نهر آموداريا (نهـر جيحون) بلاد ما وراء النهر، وكان سكانها يسمون أحيانا فى أثناء الفتوحات الاسلامية بالأتراك ، ومن المحتمل أن يكون بعض الأسرات التركية قد حكم بعض المناطق هناك ، ويقال ان فى قصير عمرا الأموى الموجود بسوريا صورة لأمير بخارى التركى ماثلة الى جانب صـور شـاه ايران وقيصر بيزنطـة وملك الويزغوت الأسبانى ونجاشى الحبشة ، ولـكن اللغـة التركية لم تكن وقتذاك منتشرة بين سكان البـلاد • وأغلب الظن أن العرب سموا لغة السكان الايرانيين باللغة التركية ، فبهذا فقط يمكن أن نفسر قول الجاحظ بأن الفرق بين لغـة خراسان واللغة التركية فرق لهجة ليس غير كالذى بين لهجـة مكة ولهجة المدينة •

المسلمون فيما وراء النهر

ويبدو أن الحد الشمالى للاسـلام وللخـلافة فى آسـيا الوسطى كان فى فترة ما مطابقا لحدين آخرين : الحد الجنسى الذى يفصـل بين العنصرين الايرانى والتركى ، ثم الحـد الحضارى الذى يفصل بين مناطق الزراعة ومنـاطق تربيـة

الحيوان ، ولئن كان بعض المدن قد أسس شمالى تلك الحدود فقد كان ذلك على يد جاليات من سكان المناطق ذات الحضارة الزراعية هاجرت وأقامت هناك .

وكان الجغرافيون المسلمون في القرن العاشر يتحدثون عن الترك بوصفهم أجانب وأعداء للاسلام مع أن هذا الوضع أخذ يتغير منذ ذلك الوقت .

وينتمي السامانيون كما كان ينتمي البرامكة وزراء العباسيين الى بلخ حيث سادت البوذية قبل الاسلام ، وقد صعب على هذه الديانة أن تتعايش فيما بعد مع الاسلام ، لأن المسلمين اعتبروها لكثرة الأصنام بمعابدها ديانة وثنية .

وبينما تماسكت الديانة البراهمية فى الهند ابان الحكم الاسلامى تلاشت البوذية هنالك بسرعة ، وتلاشت أيضا فى بلخ وفى طخارستان بوجه عام ، هذا ، على حين بقيت الديانة الزرادشتية متماسكة بعض الوقت ببلاد ما وراء النهر ، وعدا ذلك فقد كانت هناك جماعات من المانوية والنصارى واليهود واستطاعت الديانة اليهودية وحدها أن تعيش هناك حتى الآن ، ومع أن البوذية عجزت عن مواجهة الاسلام واختفت فقد بقيت لها بعض الآثار ، ومن بينها مدارس العلوم الاسلامية العالية التى كانت فى الغالب تقليدا للويهارا Vihare البوذية ويدل على ذلك أن هذه المدارس ظهرت أول الأمر فى شرق العالم الاسلامى ولم تظهر فى غرب ايران وفى دار الخلافة بغداد الا فى القرن الحادى عشر ، وتنم كثرة هذه المدارس فى بلخ وما حولها عن تأثير الديانة البوذية .

وتدل الوثائق التى بين أيدينا على أن المدارس التى كانت بخراسان وبما وراء النهر فى القرن العاشر ، لعبت الدور الأهم فى نشر الاسلام وكانت هذه المدارس مستقلة عن تدبير الحكومات وسياساتها . وفى ذلك القرن كانت الدعوة للاسلام خارج حدود الخلافة أكثر نجاحا فى آسيا الوسطى

منها فى أى مكان آخر ، وذلك بفضل هــذه المدارس . وقد رأينا فى المحاضرات السابقة أن السامانيين عدلوا عن خطة الدفاع التى كان يتبعهـا أمراء خراسـان وما وراء النهـر المعينون من قبل الخليفة ، ونفضوا أيديهم من بناء الأسوار التى كانت تقام وقاية للأقاليم المتحضرة من غارات البدو ، وبدءوا هم يغيرون على مناطق الاستبس ، وكانت غزواتهم تنتهى أحيانا بفتح بعض المدن ، ففى سنة ٨٩ فتحت مدينـة (طراز) أو (طالاس) وكانت فى مكان مدينة (أوليا أتا) الحالية . ويقال انه بمناسبة هـذا الفتح حـولت الكنيسـة الكبيرة بالمدينة الى مسجد ، مما يدل على أن التبشير المسيحى كان قد سبق الاسلام الى هناك .

ولكن هذه الفتوحات ظلت قاصرة على الأماكن القريبـة من بلاد ما وراء النهر ، وبالإضافة الى هذه الفتوحات كان المهاجرون يأتون أحيانا من بلاد ما وراء النهر ليستعمروا الصحراء صلحا ، وكان العنصر الذى هاجر قبل الاسلام من بلاد ما وراء النهر واستعمر صحراء الترك هو عنصر الصغد ، فلما دخلت جمهرة سكان ما وراء النهر فى الاسلام واصـلوا سياسة الصغد القديمة الاستعمارية . وهكذا أنشئت ثلاث مدن اسلامية فى القسم الأسفل من نهر سيحون وهى (جند) و (خـواره) و (ينغى كنت) وبالتركية (يكثى كنت) ، وبالفارسية (ده نو) وبالعربيـة (القرية الحديثة) . وقد انتقلت كلمة (كنت) من الصـغد الى الترك وأمكن تحـديد موضـع (ينغى كنت) بالضـبط وتسـمى أطلالهـا الآن (جانكه نت) .

ويؤخذ من أقوال الجغرافيين العرب أن سكان هذه البلاد وان كانوا مسلمين فانهم خاضـعون للأتراك الغـز الذين لم يقبلوا الاسلام ، أى أن المدن لم تكن من تلك التى نشأت فى الأقاليم التى غزاها السامانيون ، وانما كانت مستعمرات أنشـأها المهاجرون مما وراء النهر برضا الحـكام الأتراك

المحليين ، وقد اتسعت تجارة طالاس التي فتحها السامانيون ، وتجارة ينغي كنت التي أسسها المهاجرون صلحا مع بلاد آسيا الوسطى • وفي الطرف الشمالي لكل من هاتين المدينتين كان يوجد طريق يؤدى الى القبيلة التركية (كيمه ك) Kimak المشهورة عند الصينيين باسم (كيماك) والتى كانت تعيش على نهر ايرتش ومن هؤلاء الكيماك ينحدر القبجاق الذين شغلوا فيما بعد مناطق شاسعة •

خوارزم والخزر

كانت خوارزم ، وهى احدى الولايات الواقعة على حدود المدنية الاسلامية محاطة بمناطق الاستبس من ثلاث جهات ، وكانت لها من قديم الزمان تجارة واسعة مع الجماعات البدوية ، الا أنها في أغلب الظن كانت أنشط قبل العهد الاسلامي منها بعده ، ويبدو أن أهل خوارزم قد أسهموا فى تأسيس المستعمرات الاسلامية بالقرب من سيحون ، وان كان مجال نشاطهم قد اتجه خاصة الى الغرب والى الشمال الغربى أى الى حوض الفولجا (ايديل) حيث كان يقيم البلغار والخزر ، ويرجع نشاطهم هذا الى ما قبل العهد الاسلامى • فان رئيس عسكر الخزر الذين هاجموا الولايات الاسلامية فى قافقاسيا سنة ٨٦٤ كان خوارزميا ، وبعد هذا التاريخ نجد أيضا بعض المسلمين من أهل خوارزم فى خدمة الخزر ، الا أنهم كانوا يحصلون عند التحاقهم بالخدمة على حق الحياد اذا دخل الخزر فى حرب ضد بلد اسلامى • وعدا هذا ، فان عدد التجار المسلمين كان كثيرا فى بلاد الخزر وخاصة فى العاصمة (ايتيل) الواقعة على نهر الفولجا • وبفضل التجارة وحدها أمكن أن تنشأ مدينة كبيرة كهذه فى منطقة قال فيها العرب انها غير ذات حاصلات •

وكانت بلاد الخزر تشترك فى حدودها الجنوبية الغربية مع داغستان ومع بلاد الخلافة الاسلامية ، وهناك كانت تحدث المصادمات العسكرية التى ألجأت خواقين الخزر الى ترك

عاصمتهم القديمة بداغستان وتاسيس عاصمة جديدة عـلى مصب نهر ايديل (الفولجا) ، ومع أن العرب غادوا فاتبعوا فى فافقاسيا نفس الخطة التى اتبعوها فى تركستان ــ وهى خطة الدفاع ــ ومع أن داغسـتان (ماعدا الدربند وضواحيـه) كانت فى قبضة الخزر ، فان عاصمتهم بقيت على منصب نهر الفولجا ٠

وأما فى الشرق فقد كانت هناك دائما منطقة ليست ملكا لاحد (No man's Land) بين بلاد الخزر وبين حـدود البـلاد الاسلامية، ولم تكن هذه المنطقة خاضعة لا للخزر ولا للمسلمين ولكن يمكن أن يستنتج من بعض المراجع العربية أن عساكر الخزر كانت تتجاوز هذه المنطقة وتشترك فى الأحداث التى تدور فى حوض الفولجا وأهم هذه الأحداث هو هجوم الروس على حوض هذا النهر فى القرن العاشر وقبل هذا الهجـوم كان الخزر قد أغاروا على ما جاورهم شرقا من بلاد الصقالبة ٠ وتحدثنا الحوليات الروسية بأن بعض أقوام الصقالبة كانت تدفع الجزية حتى النصف الثانى من القرن التاسـع لخاقان الخزر ، ومما يدل على أن تأثيرهم كان بعيد المدى من ناحية الشمال أن الأمراء الروس الذين كانوا يقيمون عـلى مقربة من (نوغورود) كانوا يحملون اللقب التركى خاقان ٠ هذا، والروس وقتذاك مازالوا نورمانديين يتكلمـون السـويدية ولكنهم ما لبثوا بعد ذلك أن نسوا اللسان السويدى وتصقلبوا وبدءوا يتكلمون اللغة الروسية ، ومع أن حـكامهم كانـوا يحملون لقب (كناز) وهى كلمة جرمانية قبلهـا الصـقالبة عامة ، فقد كانت كلمة قاغان تستعمل أيضا فلما تكونت دولة الروس فى القرن التاسع وامتدت من البحر البلطى الى البحر الأسود كان ذلك ضربة شديدة لسلطان الخزر وشوكتهم ٠

وكان الروس يغيرون عـلى كل الجهـات ، فلما اتجـه هجومهم الى نهـر ايديل والى بحـر الخزر لم يكن بد من أن تصطدم الأمتان ولم تذكر الحوليات الروسية شيئا عن هـذه

الغارات باستثناء اخراها وهي غارة (أسواتوسلاف) ، فقد وردت عنها بضعة أسطر ، وكل معلوماتنا عن هذه الغارات مأخوذ من المصادر العربية • وأكثرها تفصيلا رواية المسعودى عن أولى هذه الغارات ، وقد وقعت غالبا بين ٩١٠ و ٩١٥ أو على الأرجح عام ٩١٣ وتمت هذه الغارة باذن خاقان الخزر ، وكان الروس قد وعدوه بجزء من الغنائم ، ولكن هذا الخاقان نفسه أذن لرعاياه المسلمين بمهاجمة الروس (أثناء عودتهم) وانضم الى المسلمين التجار النصارى المتوطنون فى مدينة ايديل والمهتمون بأن تظل تجارة المدينة فى مأمن من الغارات ، وهكذا كاد الروس أن يبيدوا تماما •

وأما الغارة الثانية التى قام بها الروس ٩٤٣ ــ ٩٤٤ والتى انتهت بتخريب ونهب احدى المدن المركزية بقافقاسيا الاسلامية وهى مدينة (بردعه)، فان المصادر الاسلامية لا تذكر اذا كانت تلك الغارة قد تمت برضا خاقان الخزر أو رغم أنفه • ولا ندرى اذا كانت أراضى الخزر قد أصابها من هذه الغارة مثل الذى أصاب الأراضى الاسلامية ، والغارة الثالثة هى غارة أمير الروس اسواتوسلاف فى سنة ٩٦٥ وكان هدفها هو بلاد الخزر نفسها وانتهت بأن خضعت تلك البلاد للروس بعض الوقت ، بما فى ذلك أجزاؤها فى داغستان وهى الأجزاء الواقعة على حدود البلاد الاسلامية ، ولكن الروس لم يتجاوزوا بلاد الخزر ولم يتعرضوا للبلاد الاسلامية ولم يتتبعوا الأهالى الذين فروا الى شبه جزيرة أبشيرون وهى بلد اسلامى (بالقرب من باكو) • ويفهم من قول ابن حوقل ــ وكان يعيش ذلك الوقت بالجزء الجنوبى الشرقى من بحر الخزر ــ أن معاصريه كانوا يعتقدون أن الروس قد فتحوا بلاد الخزر كلها وبصفة دائمة ، وكان الفارون يفاوضون الروس لكى يعودوا الى وطنهم ويعيشوا تحت الادارة الروسية وحتى بعد ذلك لم يعلم ابن حوقل أن الروس قد تركوا تلك البلاد وأن مملكة الخزر قد بعثت من جديد •

واذا أردنا أن نفهم كيف وقعت هذه الغزوة ، فيجب أن ننظر في غزوات أسواتوسلاف في البلاد الاخرى ، كان الهدف من غزات النورمنديين سواء منها ما وقع في روسيا أو أوربا الغربية هو السلب والنهب وكان السلب أيضا هو الهدف من الغزوات الأولى لروسيا في مناطق بحر الخزر ، ثم بدأت هذه الغزوات تصطبغ بصبغة الفتح ولم يكن القصد من الفتح هو ضم البلاد المفتوحة فقط ، بل كان يراد به التوطن والبقاء في الأماكن الغنية ، ولما دخل اسواتوسلاف في بلاد بلغار الطونه وكانت أرفع مستوى من روسيا حضاريا واقتصاديا وتجاريا أراد التوطن والبقاء فيها ولم يكن يريد ــ رغم نصائح حاشيته ــ أن يرجع الى كييف ومن المحتمل جدا أن يكون أسواتوسلاف قد فطن في أثناء غارته على بلاد الخزر الى الأهمية التجارية لمدينة اتيل، فأعجب بها وبدت له بالنسبة الى كييف أهم وأغنى وأجدر بأن تكون عاصمة ملكه ، وكان يمكن أن يكون لذلك أثر حاسم في تاريخ روسيا فلو أن أسواتوسلاف توطن مدينة ايتيل لتأثر الروس بالمدنية الاسلامية . وحينما خرج اسواتوسلاف من بلاد الخزر لم تكن غايته أن يعود الى وطنه ولكنه خرج اجابة لرجاء امبراطور بيزنطة الذى طلب معاونته على صد بلغار الطونه ، ويبدو أن سفير بيزنطة لم يجد اسواتوسلاف في كييف ولكن وجده ببلاد الخزر فهل كان أسواتوسلاف حين ترك هذه البلاد طامعا فى بلاد أخرى وعده بها البيزنطيون أم هل خرج باختياره ، أم أنه عانى فشلا في بلاد الخزر أم خاف عدوا آتيا من الخارج ؟ اننا لا نجد عن هذه الأسئلة جوابا لا في المصادر الروسية ولا في المصادر البيزنطية ، ولكن المصادر الاسلامية تتحدث عن اشاعات وصلت الى بغداد في ذلك الوقت يحتمل أن يكون فيها الجواب .

تروى هذه المصادر أن جيشا تركيا هاجم الخزر سنة ٩٦٥ وهى نفس السنة التى هاجم فيها استواتوسلاف وطلب الخزر العون من الخوارزميين ، فاشترط عليهم هؤلاء أن

يسلموا فقبلوا الاسلام وعاونهم الخوارزميون وانقذوهم من استيلاء الأعداء • وتذكر المصادر الاسلامية دخول الخزر فى الاسلام فى مناسبة أخرى ، وبين أحداث عهد آخر ــ فعلى رواية ، آنهم أسلموا نتيجة للغزوات التى قام بها (مأمون) فى بلادهم بعد أن غادر كركانج (حاليا كوهنه أوركانج) ولا شك أن المقصود هنا ليس الخليفة المأمون كما يظن ماركارت ولكن الأمير مأمون بن محمد حاكم كركانج •

ولا شك أن رواية دخول الخزر فى الاسلام كما صورت فى الحادثتين السابقتين تعتمد على شائعات غير صحيحة ، لان الخزر ظلوا على دينهم الذى اعتنقه الخاقان والطبقة الأرستقراطية فيالقرن الثامنالميلادى فى عهد هارونالرشيد وهو الدين اليهودى، أى أن اليهودية ظلت ديانة رسمية للخزر حتى انقراض دولتهم • وكان دخول الخزر اليهودية آخر صفحة من صفحات التبشير اليهودى المذكور فى الانجيل وعند بعض المؤرخين القدماء ، فبعد ذلك أخذت اليهودية تفقد بالتدريج صفتها كدين عالمى تبشيرى ، واضطرت أن تترك مجالها للمسيحية والاسلام ، وأصبحت كما هى الآن دينا قوميا للأمة اليهودية فقط حتى انه ليعد من العجيب أن يدخل فيها شخص من أمة أخرى •

وتقول المصادر الاسلامية ان اليهودية لم تكن ديانة شعب الخزر ، ولكن كانت ديانة الحكومة فقط وأن الحكومة كانت تحمى اليهود ، فلما بلغها مرة أن احدى الحكومات الاسلامية هدمت معبدا يهوديا ، ردت على ذلك بأن هدمت فى سنة ٩٢٢ مئذنة اسلامية فى مدينة ايتيل ، ولكن أغلبية الشعب كانت من المسلمين والمسيحيين وكان اليهود أقلية ــ والآن فما زالت مشكلة القارائيم بالقرم مبهمة ، ما أصلها وما منشؤها ؟ لم تكن كلمة قارائيم فى العصور الوسطى اسم شعب لكن كانت اسم مذهب لفريق من اليهود لم يعترف بالتملود وهذا هو مذهب قارائيم الذين يعيشون حاليا فى القرم ، وهم يتكلمون التركية وكتبهم المقدسة مترجمة الى التركية ، ولذلك بقى

لسانهم نقيا ، وكان جزء من القرم خاضعا للخزر ويحتمل ان يكون اخر ملوك الخزر قد عاش فى القرم فى اوائل القرن الحادى عشر ، ومهما يكن فقد كان اسم هذا الملك (جورجى) مما لا يبعد معه أن يكون مسيحيا ، وليس فى المصادر التاريخية أية اشارة الى دخول الخزر فى مذهب القارائيم وتشهد اللغة على أن القارائيم شعب غير الخزر ، وكانت لغة الخزر ــ كلغة البلغار ــ غير مفهومة للترك ، وربما اختلطت بلغة الخطاب التى تمثل لغة الجوفاش حاليا آخر بقاياها ، ولكن لغة القرائيم فى القرم ، ولغة كتابهم المقدس (التوراة) لا تختلف كثيرا عن سائر اللهجات التركية ، ولا تمت بأية صلة للغة الجوفاش وعلى هذا ، فان العلم بأن القارائيم كانوا يهودا وبأن لسانهم كان تركيا لا يكفى لحل مشكلة أصلهم وعلاقتهم بالخزر .

وعلى هذا فان ، الاسلام لم يستطع أن يسود فى بلاد الخزر ، واذا صرفنا النظر عن نجاح التبشير الاسلامى أو فشله عندهم ، فقد كانت هناك أسباب تدعو الخوارزميين لمساعدتهم عندما يهاجمهم عدو خارجى ، فان وجود الخوارزميين فى خدمة خاقان الخزر ، والضرر الذى يلحق هؤلاء من هجوم الروس كل أولئك كان يدفع الخوارزميين الى مساعدتهم . ومن أجل هذا يحتمل كثيرا أن يكون خروج استواتوسلاف من بلاد الخزر نتيجة ولو جزئية لتدخل الخوارزميين ، أى لهجومهم من الشرق ضد الروس المحتلين ايتيل .

خوارزم وبلغار الفولجا

وتشير المصادر الاسلامية الى أن بلغار الفولجا وهم جيران الخزر كانوا أكثر اتصالا بالمدنية الاسلامية ، ففى سنة ٩٢١ وفد على الخليفة المقتدر سفراء من البلغار الذين اهتدوا الى الاسلام وطلبوا أن يرسل اليهم بعض العسكريين المتخصصين فى بناء القلاع والاستحكامات ، وكذلك بعض

العلماء لتدريس الاسلام • وكان بين الهيئة التى اوفدها الخليفة ابن فضلان الذى وصف الرحلة من بغداد الى بلاد البلغار ثم العودة الى بغداد مارا ببلاد الخزر ، وحتى عهد قريب كانت رحلة ابن فضلان تعرف فقط مما نقل عنها ياقوت فى القرن الثالث عشر ، ولكن ثبت حديثا أن نسخة من رحلة ابن فضلان موجودة بمكتبة مشهد وهى نسخة تنقصها بضع ورقات من آخرها ، ولكن أوصافها تلتقى مع تلك التى قرأها وأفاد منها ياقوت •

والظاهر أن ابن فضلان كان هو المكلف بأن يلقن البلغار تعاليم الاسلام وأنه لم يعن بالجانب السياسى فى هذه السفارة ، وقد عين لدى البلغار سفير من قبل حكومة بغداد غير ابن فضلان •

واذا حكمنا بناء على القسم الذى نشر حتى الآن ، فان ابن فضلان لا يتحدث عن المهمة الأخرى وهى المهمة العسكرية ، فلا يتحدث عن الاخصائيين العسكريين هل أدوا مهمتهم وهل أسسوا القلاع أم لا ، ولا يحدثنا عن هؤلاء البلغار كيف عرفوا الاسلام قبل ايفاد هذه الهيئة • ولكن وصف طريق الرحلة يجيب جزئيا عن هذه المسألة ، فقد قامت الهيئة من بغداد الى بخارا ثم الى خوارزم ، ثم الى بلاد البلغار • ولا يمكن تعليل اختيار هذا الطريق بالذات الا بأن البلغار اتصلوا بالمدنية الاسلامية أول الأمر بواسطة الولايات التابعة للخوارزميين والسامانيين ، والا فان أقصر طريق من بغداد الى حوض الفولجا هو طريق قافقاسيا ، ولا شك أن العلاقات الثقافية بين البلغار والخوارزميين هى التى جعلت المؤرخين الروس يظنون أن هناك قرابة بين الخوارزميين والبلغار ، وفى نفس الوقت تدل العملة التى سكها البلغار المسلمون فى القرن العاشر على تأثرهم بالسامانيين ، ذلك أن هؤلاء السامانيين لم يكونوا يعترفون بالخليفة (المطيع) فلم يكتبوا اسمه على العملة ولكن ذكروا اسم الخليفة السابق وهو

(المستكفى) ، وقد قلدهم البلغار فسكوا اسم هذا الخليفة على العملة المضروبة فى نفس الوقت ٠

ومع أن العلاقات بين البلغار والخوارزميين كانت سليمة، فان المصادمات كانت تقع بينهم فى بعض الأحيان ، وقد كانت غزوات الخوارزميين فى بلاد (الصقالبة) موطن بحث ، وانه ليبعد أن يكون السكان فى غرب الفولجا صقالبة حقيقيين ، وقد كان ابن فضلان يسمى ملك البلغار (ملك الصقالبة) وكان يمكن اعتبار هذه العبارة خطأ من ياقوت ، ولكن تبين الآن أن ابن فضلان استعمل العبارة نفسها فى نسخته الأصلية ٠

وأغلب الظن أن بلغار الفولجا ــ مثلهم كمثل بلغار الطونة ــ نتاج اختلاط (الترك ــ جوفاش) بالصقالبة ، وذلك مع فرق واحد وهو أن اللسان الصقلبى غالب عند أتراك الطونة ، وأن اللسان (التركى ــ جوفاشى) غالب عند بلغار الفولجا ٠

وربما كانت مساعدة الخوارزميين قد حمت دولة الخزر لمدة قصيرة من الاندثار نتيجة لاستيلاء الروس عليها ، ولكن ما كان الخزر ليبعثوا من جديد بهذه المساعدة فقد انقطع ذكرهم ابتداء من القرن الحادى عشر وعندما أغار المغول فى القرن الثالث عشر لم يلاقوا خزرا ، وقد أفاد بلغار الفولجا أكثر من الروس من انقراض دولة الخزر ٠ ومع أن ابن حوقل يذكر أن الروس دمروا الخزر والبلغار كليهما ، فان الحوليات الروسية لا تذكر شيئا عن هذا الأمر، بل ان الاحداث التى وقعت بعد ذلك لا تتفق مع قول ابن حوقل ٠

وقد كان البلغار فى المدة بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر يبسطون نفوذهم من (ويليكى أوسيتوك) الى جنوب (ساراتوف) ومن (موروم) الى حدود (أوفا) ٠

وأما من الناحية السياسية فان دولة البلغار كانت تعانى ــ كدولة الروس فى ذلك الوقت ــ من الانقسام الى امارات ٠

وقد تحدث ابن فضلان عن حاكم البلغار ومع ان الحاكم لم يكن يحمل لقب (خان) مثل حاكم الخزر ، فقد كان اكبر من الحكام الآخرين • ويتحدث أصحاب الحوليات من الروس، فيما ولى ذلك من عهود ، لا عن حاكم واحد لكن عن (كنازات البلغار) ومن ناحية أخرى كانت مدنية البلغار فى القرن الثالث عشر أرقى منها فى القرن العاشر •

وكان للبلغار ــ حسب رواية الجغرافيين العرب فى القرن العاشر ــ مدينة بلغار ومدينة سوار على بعد ٥٠ كيلا • (ويحتمل أن يكون هذا الاسم الأخير اسم قبيلة) والحق أن هذه المدن كانت مضارب بدو أكثر منها مدنا ، كانت عبارة عن أكواخ وخيام من اللبد ، لم تكن تسكن صيفا بل كانت تخلو تماما • هذا على حين أن مدينة (بلغار) فى عهد المغول كانت كما تدل خرائبها مبنية بالآجر والحجارة ، وكان بها خمسون ألفا من السكان وكانت تصدر ــ فى القرن العاشر ــ منتجات الصين : الجلود والفراء ، وكذلك مقادير كبيرة من الشهد • وتطورت بعد ذلك الدباغة وارتقت وصارت النعال والأحذية من أهم ما يصدر من بلاد البلغار الى المسلمين (وعن البلغار أخذ الروس صناعة الدباغة) وكذلك ارتقت الزراعة وكان الروس اذا أقحطوا تداركوا الأمر فاستوردوا المؤن من بلاد البلغار ، وكانت الحروب بين البلغار والروس سجالا ــ يغلبون ويغلبون وكانت تحركات الروس تتجه نحو مصب الفولجا ببطء شديد ، لأن البلغار كانوا يمنعونهم •

وفى القرن الثالث عشر قبيل الغزو المغولى وصل الروس بشق النفس الى نقطة التقاء نهر (الفولجا) بنهر (أوقا) وهناك أسسوا مدينة (نيزنى ناوغورد) Nijnii-Novgorod ومن ناحية أخرى فليس لدينا مصدر موثوق به يعين ويحدد حضارة البلغار المعنوية •

وعلى الرغم من وجود بعض النقوش البلغارية على بعض القبور التى ترجع الى العهد المغولى (أى الى القرن الرابع

عشر) فليس من الممكن معرفة مدى رقيهم الأدبى • وبعد ذلك بقليل سادت اللغة التركية التى كانت منتشرة بين أتراك (آلتون آوردو) فى بلاد البلغار القديمة ، ولا يكاد يحفظ لسان البلغار الا فى لهجة الجوفاش ، وهم فريق من البلغار لا علم له بالاسلام ولا بالأبجدية العربية ، وليس له رسم خطى خاص ، وظل كذلك الى العهود الأخيرة حيث استعمل الخط الروسى وهو (على العموم) أقل أقسام البلغار اتصالا بالمدنية الاسلامية وتأثرا بها •

تغلغل الاسلام بين الترك

والآن ، فانا نرى من الطريق الذى وصفه ابن فضلان أن الأمم البعيدة عن البلاد الاسلامية كانت تتأثر بالاسلام قبل البلاد ذات الحدود المشتركة مع ديار الاسلام ، وقد راى ابن فضلان ــ فى البلاد الواقعة بين بلاد الخوارزميين وبين بلاد البلغار الداخلة فى الاسلام ــ قوما من الترك شامانيين يثبتون فوق قبور الموتى من محاربيهم عددا من الحجارة يعادل عدد الأعداء الذين قتلهم هؤلاء الموتى ، وكانت الاقوام التركية فى آسيا الوسطى فى ذلك الزمان تمثل مستويات مختلفة من المدنية ، فكان بينهم فريق لم يعرف الأسلحة الحديدية وانما يستعمل أسلحة من العظام • ويدل دخول البلغار فى الاسلام على أن هذا الدين كان ينتشر بين الأتراك الذين لهم نصيب من الحضارة ، ويروى ياقوت أن الخليفة هشام (٧٢٤ ــ ٧٤٣) أوفد سفيرا الى خاقان الترك يدعوه الى الدخول فى الاسلام وكما لم يذكر ياقوت ــ مع الأسف ــ الى خاقان أى قوم من الترك أوفد السفير ، فانه لم يذكر أيضا خط سيره ، وقد نظم الخاقان ــ كما يروى ياقوت ــ عرضا عسكريا فى حضرة السفير المسلم وقال له : « ان قوما كهؤلاء ليس بينهم صانع ولا اسكاف ولا حلاق ولا حائك ، لن يعيشوا اذا دخلوا فى الاسلام ولزموا أوامره » •

ولا يوجـد دليل واحد عـلى الزعم بأن السبب الرئيسى لدخول الترك فى الاسـلام هو عسـكريتهم ، وبانهم كانـوا متأثرين بفكرة الجهاد ، وبالجنة التى وعدها شهداء لحرب ٠

وكان ظهور التبشير الفردى الاسلامي ــ سواء فى داخل العالم الاسلامى أو خارجه ــ مرتبطا بالتصـوف الاسلامى ، فيحكى دائما فى مناقب الصوفية أنهم استطاعوا ادخال كثير من الكفار فى الاسلام وكان هؤلاء الصـوفية يذهبـون الى الصحارى لادخال الأتراك فى الاسلام ، وقد ظلوا حتى وقت قريب أكثر توفيقا من العلماء الذين درسوا فى المـدارس ، ولم يكن هؤلاء الصوفية ــ وهم يلقنون الاسلام فى منـاطق الاستبس ــ يتحدثون عن الجهاد وعما يجد الشهداء من نعيم فى الجنة ، بل كانوا يتحدثون عن الاثم وعن العـذاب الأليم فى نار جهنم ، ويؤكد الرحالة الأوربيون فى أواسط آسـيا وأفريقيا (وكل منهم مستقل عن الآخر) أن سبب انتشـار الاسلام هو الحكايات التى تروى لأهل تلك البلاد عن عذاب الجحيم ٠ ومع هذا ، فان الاسلام لم يأت الأتراك بجديد من هـذه الناحيـة فقـد كان المبشرون البوذيون والمانـويون والنصارى يحـدثون الأتراك أيضا عن العـذاب ، وقد نجح التبشير الاسلامى حتى فى الأماكن التى كان سكانها على علم بواحد من هذه الأديان ، وكان تفوق الاسلام عـلى الديانات الأخرى يعتمد فى ذلك الزمان على تفوق العـالم الاسـلامى ماديا ومعنويا على كل البلاد المتمدينة ٠

وكان البدو فى كل وقت بحاجة الى حاصلات البلاد المتحضرة والى الملابس بخاصة ، فقد لوحظ فى البلاد التى بينها وبين البدو تجارات (الصين والبلاد الاسلامية ثم روسيا أخيرا) أن البدو يحرصون دائما عـلى استيراد المنسـوجات وكانت التجارة مع البدو مفيدة أيضا للبلاد المتحضرة ، لأنها كانت تستورد من البـدو الحاصـلات الحيوانية وخاصـة اللحـوم بأثمان منخفضة ، ولكن هـذه التجـارة كانت أكثر ضرورة للبدو ولهذا ، كانوا يأتون ومعهم قطعانهم الى حـدود البلاد

المتمدينة ولا ينتظرون حتى يذهب اليهم تجار هذه البلاد فى الصحراء ٠

وبينما كان هؤلاء البدو يألفون البضائع الاسلامية ويتأثرون بطراز حياة المسلمين بوجه عام ، كانوا يتأثرون كذلك بالاسلام لا من الناحية الدينية فحسب ولكن من الناحية المدنية بوجه عام ٠

ولكن الانضمام الى عالم الاسلام المتمدين لم يكن ممكنا لهؤلاء البدو الا اذا دخلوا فى الاسلام من حيث هو دين ، ومن العوامل على انتشار الاسلام بين الترك خاصة امتاز بها الاسلام على سائر الأديان العالمية ، فعلى الرغم من أن اتباع البوذية وأتباع المسيحية أكثر عددا من المسلمين، فان الاسلام دين عالمى بمعنى الكلمة أى أنه ليس مقصورا على جنس أو مدنية ، ولئن كانت بعض الديانات قد بزت الاسلام فى هذه الناحية ، فان توفيقها كان مؤقتا ولم يستطع الحصول على نتائج دائمة كالتى أحرزها الاسلام ، فالديانة المانوية مثلا كانت فى وقت ما دينا عالميا وكان أتباعها منتشرين فى أماكن تمتد من جنوب فرنسا الى الصين ، ولكن هذه الخاصة لم تمنع المانوية من الاضمحلال الكامل ٠ وقد بدأت البوذية نشاطها العالمى بحركة دعاية فى الغرب فانتشرت هنالك ، ولكنها فى ـ نهاية الأمر ـ ظلت دينا للشعوب المتحضرة فى شرق آسيا فقط ٠

وقد كان للمسيحية أتباع كثيرون بين الترك حتى بداية انتشار الاسلام ، وفى وقت ما كان لها اتباع فى غرب منغوليا وفى شرقها وجنوبها حتى ان الدعاية الاسلامية لم تستطع ان تكسب شيئا ، ولكن نجاح المسيحية هذا كان مؤقتا ، وبقيت المسيحية بعد هذا دينا أكثر أتباعه من شعوب اوروبا المتحضرة ٠

وأما المسيحيون غير الأوروبيين فانهم من القلة بحيث لا يذكرون الى جانب مسيحيى أوروبا وهم كذلك متخلفون

حضاريا ، واذا كان الاسلام هو دين العالم المتمدين في غرب آسيا ، فان عدد المسلمين في شرق آسيا وخاصة في الهند وجزر (زوند) أكبر من المسلمين في غرب آسيا ، وآما في الصين فان المسلمين قوة مستقلة ولهم أدبهم الديني الخاص . ولا حاجة الى أية مساعدة من الخارج ، ذلك ، على حين آن مشروع المسيحيين بالصين لتكوين المسيحية القومية بالصين قد باء بالفشل ، وكذلك لم تستطع المسيحية في أفريقيا أن تصنع مثل ما صنع الاسلام وها قد نجحت الدعوة الاسلامية منذ القرن التاسع عشر ، في بلد له وحده في كل أفريقيا كنيسة قومية وهو الحبشة .

وفي التاريخ أمثلة كثيرة لأمم بوذية أو مسيحية تركت ديانتها ودخلت في الاسلام، ولكننا لا نجد أمة اسلامية واحدة تخلت عن دينها ودخلت في البوذية أو المسيحية .

أول مملكة تركية اسلامية : القراخانيون

وكان النصر الثاني الذي أحرزه الاسلام بعد أن أسلم بلغار الفولجا هو اسلام عدد من الترك يبلغ مائتي ألف خيمة (أسرة) وذلك في سنة ٩٦٠ أي بعد أربعين عاما من عودة سفارة المسلمين من بلاد البلغار الى بغداد ، وقد سجل هذا الحادث في كتاب واحد مكتوب ببغداد ، ولم يرد عنه شيء فيما كتب ببلاد السامانيين ولا في كتب جغرافيي العرب ، واليكم السبب في غموض هذا الخبر وفي انعدام المعلومات عن هؤلاء الترك : من هم ، وما المكان الذي يعيشون فيه .

ورد في بعض كتب المناقب التي وضعت متأخرا في آسيا الوسطى (وهو كتاب أخذ عن أقدم الكتب التي حررت في هذا الموضوع في القرن الحادي عشر ، ولكنه حرر في القرن الرابع عشر) أن خان الترك الذي دخل الاسلام هو (ساتوق بغراخان عبد الملك) ، وهو ينتمي الى الأسرة التي قضت على السامانيين فيما وراء النهر في نهاية القرن العاشر وأقدم رواية وردت بهذه الكتب بخصوص بغراخان ودخوله

فى الاسلام رواية اسطوريه ، وقد زاد العنصر الاسطورى فى هذه الرواية في الكتب المسماة (تذكرة بغراخان) والمنتشرة الآن في آسيا الوسطى ٠

فالى أى قبائل الترك تنتمى أسرة بغراخان ؟ أن المراجع الجغرافية والتاريخية ، لا تجيب عن هـذا السـؤال ٠ وأما العلماء الروس ابتداء من جريجوريف ، فانهم يطلقون عـلى بغراخان لقبـه الآخر (قاراخان) وأما كتب غـرب أوروبا فتستعمل لقب (ايليك خان) وهـو تعبير غـير موفق ، لأن استعمال لقب (ايليك) مع لقب (خان) نادر وان كان قد ورد فى بعض الأحيان ٠ وبالاضافة الى هذا فان كلمة (ايليك) لم تكن تطلق على كل خانات تلك الأسرة ٠

فى أى وقت ظهرت دولة القاراخانيين ، وبأى هجرات الأقوام التركية يتصـل هذا الظهور ، والى أية قبيلة ينتسب الخانات ؟ ان هذه المسائل لم تتضح تماما حتى بعد أن اكتشف كتاب محمود الكشغرى ونشر ، وقد حرر هذا الكتاب بعد أن قويت دولة القاراخانيين واستتب أمرها فلم يعن بما مضى من مشكلات ٠

وكان جغرافيو العرب حتى أولئك الذين كتبوا بعد سنة ٩٦٠ لا يعلمون أن دولة تركية مسلمة قد قامت على حـدود دولة السامانيين ، وذلك لأن هؤلاء الجغرافيين كانوا ينقلون عن كتب قديمة حررت فى عهود سابقة ٠

ومع هـذا ، فبالاضافة الى الاشارات التى يمدنا بهـا جغرافيو القرنين التاسـع والعـاشر القائلون بأن القارلوق يشغلون دائما المنطقة الواقعة بين الغز والتغزغز ، بالاضافة الى هذا نجد فى مصادر عربية أخرى ــ معلومات أوسـع عن نظم تلك البلاد السياسية والقومية ٠ وقد وصلتنا روايات هذه الكتب بطريق كتابين فارسيين الأول مجهول المؤلف كتب سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ ــ ٩٨٣ م) وينسب الى مكتشفه وهـو (تومانسكى) فيقال (مخطوطة تومانسـكى) وأما الثـانى

فكتاب حرره الكرديزى فى القرن الحادى عشر بعد سنة ١٠٤٠ ، ويبدو أن ما بهذين الكتابين من معلومات يرجع الى عهد أحدث من عهد ما ورد بالمصادر العربية المحررة فى القرن العاشر ، ومع هذا فان هذين الكتابين أيضا لا يصوران الأماكن تصويرا دقيقا ، بل ربما كانت معلوماتهما راجعة الى عهود مختلفة ، ولذلك فانا لا نستطيع التوفيق بين ما جاء بأحدهما وما جاء بالآخر ، ولا بين ذلك كله وبين ما قال الكاشغرى عن تقسيمات أقوام الترك ٠

ويؤخذ من مخطوطة (تومانسكى) ومن كتاب الكرديزى أن قبيلة (ياغما) التى ظهرت بين (التغزغز) سكنت فى جزء من المنطقة التى كان يسكنها القارلوق ، كما يروى جغرافيو العرب فى القرن العاشر ، وكان هؤلاء الـ (ياغما) يملكون كاشغر والمنطقة الواقعة جنوب نهر (نارين) المتفرع من (سيرداريا) فاذا كان توطن الـ (ياغما) لتلك المناطق يرجع الى عهد أحدث من روايات الجغرافيين العرب ، واذا كان هؤلاء التغزغز قد جاءوا من الشرق فانه يمكن عندئذ رفض ما زعمه الجاحظ من أن التغزغز كانوا بعد دخولهم فى المانوية يغلبون أمام القارلوق ٠

وكانت دولة القاراخانيين مرتبطة ارتباطا وثيقا بكاشغر ، وكانت هى العاصمة ولذلك سموها (أوردوكنت) أى (المعسكر الملكى) كما يقول محمود الكاشغرى ٠

وكان يمكن أن نستنتج من هذا أن القراخانيين ينتمون الى الشعب الذى كان يسكن فى كاشغر ، أو أنهم بعبارة أخرى ـ ينتمون الى (ياغما) التى تنتمى بدورها الى التغزغز أو الأويغور ، ولكن محمود الكشغرى لا يشير الى شىء من هذا ولا يذكر (ياغما) الا بوصفهم قوما كانوا يعيشون فى أيامه شمالا فى وادى نهر ايله (Ili) ويقول الكشغرى ان شعبى (توخسى) و (جيكيل) وشعوبا أخرى كانت تعيش كذلك فى وادى نهر ايله ، ويتبين من مخطوطة تومانسكى ومن كتاب

الكرديزى أن هذه الشعوب كانت تسكن الى الجنوب ، فاولهد وهو شعب توخسى كان يسكن شمال حوض نهو جو ، وتانيها وهو شعب جيكيل كان يسكن على الساحل الشمالى لبحيرة ايصيغ ، وفى القرن الحادى عشر كان اسم (جيكيل) يطلق على عدة أقوام تركية بعد أن كان قد نسى • وفى عهد ملكشاه السلجوقى كان هذا الاسم يطلق حسب بعض الروايات على جيش القراخانيين ابان غزو هذا السلطان لبلاد ما وراء النهر •

ويروى الكاشغرى أن الغز كانوا يطلقون كلمة (جيكيل) على أقوام الترك المنتشرة من نهر جيحون الى الصين ، وكان يمكن أن يستنتج من هذا أن للأتراك الجيكيل وضعا سياسيا مهما فى آسيا الوسطى ، وأن القراخانيين ينتمون اليهم ، ولكنا لا نجد لدى محمود الكشغرى ما يثبت هذا الفرض • ويوضح الكشغرى أهمية كلمة (جيكيل) بالنسبة للغز بأن مدينة (جيكيل) المجاورة لمدينة (أوليا أتا) الحالية والتى يسكنها فرع من فروع جيكيل لها حدود مشتركة مع الغز ، وبأن هؤلاء الغز قد وقفوا مبكرا على أسباب الحضارة بسبب وقوع هذه المدينة الى أقصى الغرب من المدن التركية • وكان فرعان آخران من الجيكيل يعيشان فى قريتين تقعان الى جانب كاشغر والى جوار مدينة (قوباس) الواقعة فى وادى نهر ايله • وقد اشتهرت هذه المدينة فى عهد المغول لأنها كانت عاصمة لجغتاى بن جنكيزخان ولبعض خلفائه ، ويكتفى محمود الكشغرى فى حديثه عن القارلوق بأن يقول انهم بدو وانهم كانوا يسمون ـ مثل الغز ـ بالتركمان •

وأما فى مخطوطة تومانسكى وكتاب الكرديزى فيذكر أن القارلوق (ويسميهم المؤلفون الفرس خلخ بتشديد اللام) قوم يعيشون على حدود البلاد الاسلامية ، قريبا من مدينة طراز من ناحية الشرق • وكان بعض مدن تركستان الصينية تابعا كذلك للقارلوق ، ومن بين هذه المدن مدينة بنجول Pentchoul

المسماة بالصينية (وين ـ صو) والواقعة الى جوار (اوج طورفان) Utch Tourfans الحالية ، وتقول مخطوطة تومانسكى ان هذه المدينة داخلة فى بلاد القارلوق ولكن حاكمها يخضع للتغزغز ، ويقال أيضا ان القيرغيز استولوا عليها فيما بعد ، وتقول نفس المخطوطة ان مدينة كاشغر كانت على حدود بلاد القيرغيز والقارلوق والتغزغز •

وهذا الذى تقوله مخطوطة تومانسكى جدير بالتدقيق فبه يمكن القول بأن هجرة القيرغيز الى الجنوب أى الى الأماكن التى يسكنونها الآن لم تكن بعد القرن العاشر ، ولكن لا الكرديزى ولا الكشغرى ولا غيرهما من المراجع يذكر شيئا عن هذا الموضوع •

وقد ذكر الكشغرى أن جيكيل وياغما نقلوا مساكنهم نحو الشمال ، ولم يقل مثل ذلك عن القارلوق ، ومع هذا فاننا نرى فى عهد جنكيزخان بلادا للقارلوق فى شمال نهر ايله •

والخلاصة أن محمود الكشغرى يذكر ثلاثة الأقوام التى يمكن أن نفرض انتماء أسرة القراخانيين الى أحدها ، ولكنه لا يبين أى هذه الأقوام كان أقرب قرابة لهذه الأسرة • وأما قول الكشغرى ان القارلوق كانوا يسمون مثل الغز تركمان فقول يحتاج الى تدقيق ، فان كلمة تركمان (وقد وردت لأول مرة فى كتب القرن العاشر الميلادى) مازالت مجهولة الأصل والمنشأ ، وعلى أية حال ، فلا يوثق بقول الكشغرى ان أصلها هو الكلمة الفارسية (ترك ما ننده) أى أشباه الترك •

وكل ما يمكن قوله هو أن سمات التركمان مخالفة لسمات سائر الترك ومشابهة لسمات الايرانيين •

وقد تأثر القارلوق بالايرانيين أكثر مما تأثر بهم الغز وكانوا ـ الى أن قبلوا الاسلام ـ أكثر اتصالا بالمدنية الاسلامية من غيرهم من الترك •

وفى القــرن الشــانى عشر كان الحـــاكم القراخانى لمدينة بالاساغون الواقعة في (يدى صو) يسمى (توركمن) ويمكن أن يكون ذلك دليلا على أن هذه الأسرة كانت تنتمى الى قبيلة قارلوق ٠

وكانت مدينة (بالاساغون) مدينة اسلامية منـــد ســـنة ٩٤٠ ، وذلك حسب رواية لنظام الملك وهـــو وزير ايـــرانى معاصر لمحمود الكشغرى ، وقد أعلن المسلمون الجهـــاد حين سقطت هذه المدينة فى أيدى الكفـــار ، ويحتمـــل أن يكـــون القارلوق قد دخلوا فى الاسلام قبل (ياغما) ، وأن خانات الياغما اعتنقوا الاسلام بعد استيلائهم على بلاد القارلوق ــ التى كانت تشمل نهر وادى جو ــ حيث توجد فيما يظن مدينة بالاساغون، ولكن كل هذا لا يعدو أن يكون فروضا لا تؤيدها الأسانيد ٠

ويعد ساتوق بغراخان وهـــو أول من أســـلم من خانات الترك حاكما لكشغر ، وقبره في قرية (آرتيش) شـــمال كاشغر [وفى المصادر القديمة آرتوج] وقد توفى هذا الخان ــ بحسب أقدم الروايات عن حياته ــ فى ٣٤٤/ ٩٥٥ ــ ٩٥٦ وهو تاريخ لا يتفق مع الرواية الخاصة بدخول قوم من الترك فى الاسلام فى سنة ٩٦٠ ، ويحتمل أن تكون هـــذه الرواية الأخيرة قد أخذت من كتاب ثابت بن سنان مؤرخ بغداد ، الذى حرر كتابه فى ذلك التاريخ (سنة ٩٦٠) ويجب أن يكـــون التاريخ الذى يذكره أولى بالثقة من التـــاريخ المذكـــور فى حكاية اسلام ساتوق بغراخان ، حيث يوجـــد عـــدم التوافق التاريخى ٠

وفى نفس القرن العاشر أسلم قسم من الغز ، وهو القسم المقيم عند مصب نهر ســـيرداريا ، وافتتح خان الغز عهـــده بالاسلام بأن حرر المدن الاسلامية التى كانت تدفع الجـــزية للكفار حتى ذلك الوقت ، وقد قوبل دخول قومين من الترك فى الاسلام وهما القراخانيون والغز بوصفه نصرا للاسلام ،

وهكذا صار للولايات الاسلامية الواقعة على الحدود جيران مسلمون فى الشمال والشرق ، وظن أن المسلمين وجدوا حلفاء ينضمون اليهم فى صراعهم ضد غير المسلمين ، ولكن العكس هو الذى حدث، فان هذين القومين اللذين أسلما وجها أسلحتهما ضد الولايات التى جاءهم منها الاسلام وسنبين أسباب ذلك ونتائجه فى المحاضرة القادمة ٠

المحاضرة الخامسة

آسيا الوسطى في القرن الحادى عشر

لم يصلنا من المؤرخين المسلمين خبر واحد جدير بالثقة عن اسلام (بغراخان) خان كاشغر ، ولكننا نرى فى كتب التراجم اسم فقيه عاش بسرايه حوالى سنة ٩٦٠ وهو الفقيه (كلماتى) وفى ذلك التاريخ دخل كثير من الترك فى الاسلام كما تروى تواريخ بغداد ، وفى رواية قديمة باحدى تراجم بغراخان أنه أسلم بناء على أمر نزل عليه من السماء أثناء النوم ٠ ولم تتحدث هذه الرواية عن أى مرشد من البشر ، ولكن رواية أخرى قد تحدثت عنه ، ولم يكن المرشد حسب هذه الرواية الأخيرة فقيها ، بل كان أميرا سامانيا فر والتجأ لدى خاقان الترك ، ويضاف الى ذلك جملة أسماء خيالية وان تكن مأخوذة عن مؤرخ كاشغرى عاش فى القرن الحادى عشر ولم يصل الينا أثره ٠ ومما يلفت النظر فى هذه الرواية نظرة الخاقان الخاصة الى أموال المسلمين وثروتهم ودينهم ، فقد أعجب أولا ببضائع التجار المسلمين وخاصة المنسوجات والحلوى ثم عنى بعد ذلك بعبادة المسلمين ٠ وبدأ يدرس الاسلام ٠

ولقد رأينا فيما مضى أن المدينة التى أقام فيها الخان الذى اعتنق الاسلام وهو (ساتوق بغراخان) هى مدينة كاشغر ، وقد توطن حفيده بغراخان هارون بن موسى فى بالاساغون ومن هناك حاول فتح ما وراء النهر ، وبعد ذلك كانت مدينتا كاشغر وبالاساغون تذكران معا بوصفهما مدينتين تحت حكم أسرة القراخانيين غالبا ، ومن اللافت أن

مدينة بالاساغون ـ بصرف النظر عن اهميتها في عهد القراخانيين ـ لم تذكر في الكتب الاسلامية الا نادرا • ولا يوجد طريق واحد يمكننا من تعيين موقع بالاساغون الجغرافي ، ولم يذكر هذه المدينة من بين جغرافيي القرن العاشر الا المقدسي • وأما مخطوطة (تومانسكي) وكتاب الكرديزى فلم يذكرا اسمها ، وربما كان لها اسم آخر قديم كانت تذكر به في أوصاف المسالك عند جغرافيي القرنين التاسع والعاشر •

وتذكر مدينة (صو ـ ياب) في المصادر العربية والصينية بوصفها كبرى المدن بحوض نهو جو ، ولا يذكر محمود الكشغرى هذا الاسم ، ولكنه يذكر قلعة قريبة من بالاساغون اسمها (شو) بناها ملك اسمه (شو) ويقال انه كان معاصرا للاسكندر الأكبر • ويقال أيضا ان ذلك كان قبل أن توجد مدن اسفيجاب = (سيرام) أو طراز أو بالاساغون ومن المعلوم أن حرف ال (ج المعطشة) ينطق (ش) عند القيرغيز ، فاذا أرادوا أن يقولو (جو) قالوا (شو) وقد سمع رادلوف اسم هذا النهر هكذا : (شو) ومن المحتمل أن الترك الذين كانوا يعيشون بحوض ذلك النهر كانوا ينطقون الكلمة مثل نطق القيرغيز •

وفي الأزمنة الأخيرة لم تكن كلمة (جو) تطلق على النهر وحده ، بل كانت تطلق كذلك على خرائب المدن التى تقع في واديه والتى لم يبق منها الا برج (بورانا) •

ويحتمل أن تكون كلمة (بورانا) تحريفا للكلمة العربية (منارة) ، وذكر محمود الكشغرى فيما بعد ممر زانبى الواقع بين قوجقار باشى • (وقد كتبت في النسخة المطبوعة قجنكار وترجمت الى العربية بكلمة الكبش) وبين بالاساغون ، وكانت المصادر الفارسية أول المصادر التى ذكرت كلمة (قوجقارباش) بوصفها اسم مدينة وكان يبحث عنها أول الأمر في شرق (طالاس) ولكن من المحتمل أن

تكون هذه المدينة واقعه فى المجرى الأعلى لنهر قوجقار وهو عبارة عن المجرى الأعلى لنهر جو • أما ممر زانبى الذى يلفت النظر بأن اسمه غير تركى ، فليس الا الممر المعروف باسم (شمسى) الذى نسج حوله الأتراك المحليون كثيرا من الأساطير •

ولم يحدد بعد أصل كلمة بالاساغون ، وقد كان يظن أن اسم المدينة عبارة عن الكلمة المغولية بالغاسون بمعنى (المدينة) وقد قل عدد أنصار هذه الفكرة •

ويذكر محمود الكشغرى أن كلمة (اتاساغون) بمعنى الطبيب وهى مركبة من كلمة (آتا) بمعنى (اب) بالتركيه والآن ، هل يمكن أن تكون كلمة بالاساغون مركبة من كلمة (بالا) بمعنى (الطفل) ؟ واذا كانت كذلك فماذا يكون معناها ؟ هذه أيضا مشكلة ، ويسمى الترك مدينة بالاساغون أحيانا (قوزاولوش) وكلمة (أولوش) بمعنى القرية أو المدينة ، وأحيانا (قوزاوردو) والى جانب بالاساغون يذكر المقدسى وهو من جغرافيى القرن العاشر مدينة أخرى اسمها (أوردو) وكانت عاصمة لحاكم التركمان فى تلك النواحى • ولا يوضح محمود الكشغرى كلمة (قوز) الداخلة فى كل (قوزأوردو) •

ومدينة بالاساغون احدى المدن التى بناها الصغد ولم يكونوا حتى زمان محمود الكشغرى قد تتركوا تماما ، وكان أهالى اسفيجاب وطاراز وبالاساغون يتكلمون الصغدية والتركية •

وكان الصغد فى تلك المناطق يسمون ــ كما ورد بنقوش أورخون ــ (صوغداق) ويرى المؤلف أن الشعب الصغدى الذى نشأ بين بخارى وسمرقند يسمى صوغداق ، وكان يتخلق بأخلاق الترك ويتزيا بأزيائهم •

وكان المكان الواقع بين اسفيجاب (وفى رواية طاراز) وبين بالاساغون يسمى (آرغو) ، وهو اسم لم نجده فى أى

مصدر آخر ، ويقول الكشغرى ان كلمة (أرغون) تطلق على الممر بين الجبلين . ومن الظاهر أن تلك المنطقة سميت ارغو لوقوعها بين سلسلة جبال (آلكساندروفسكى) = (جو — طالاس) وسلسلة جبال (جو — ايله) ولا يذكر هل كان الصغد يوجدون فى شرق بالاساغون أو لا يوجدون ، ومهما يكن فقد كان صغد بلاد آرغو مسلمين فى زمان الكشغرى ، ولا ندرى هل أسلم هؤلاء قبل الترك أو بعدهم ، ولا نعرف كيف ظهر أثرهم على الترك من ناحية اللسان والمظهر قبل أن يصبحوا هم أنفسهم تركا .

ونستطيع ان نطرح هذه الأسئلة نفسها بخصوص الشنب الذى كان يسكن تركستان الشرقية قبل الترك ، وبخصوص السكان المتحضرين غير الاتراك بذلك الاقليم ، وقد استطعنا أن نعرف من محمود الكشغرى وحده أن هؤلاء السكان كانوا يعتبرون فى زمانه مستقلين وكانوا يسمون كنجاك ، وهذا اسم لا يوجد فى أى مصدر آخر . وكانوا فى زمانه قد تتركوا ، ولكنهم كانوا يحتفظون ببقايا لغتهم مع بعض فروق فى النطق فكانت لهم لذلك خصائص فى النطق ، وكانوا الى هذا يستعملون مجموعة من ألفاظ لغتهم القديمة .

الأقاليم السامانية القديمة

وكان الترك الزاحفون فى نهاية القرن العاشر لفتح بلاد السامانيين (الواقعة على حدود بلاد الايرانيين المسلمين) ينطلقون من بالاساغون لا من كشغر (أى أن كاشغر لم تكن قد أصبحت مركزا لأغلبية الأتراك) ويروى أن أول مدينة فتحها (بوغراخان هارون) حفيد ساتوق بغراخان هى مدينة اسفيجاب وكانت بها من غير شك مستعمرة صغيرة تركية أو امارة صغيرة تحكمها أسرة تركية .

وفى سنة ٩٢٢ قام بغراخان هارون بأولى غزواته لبخارى وسمرقند ولكن الأتراك اضطروا — رغم نجاحهم —

الى التراجع بعد مدة قصيرة الى بالاساغون ، وفى نفس السنة مات بغراخان • ولكن بعد بضع سنين انتقلت كل المناطق الواقعة شمال زرافشان من ايدى السامانيين الى ايدى القراخانيين ، وذلك بموجب معاهدة • وفى ١٠٠٦ احتل القراخانيون سمرقند و بخارى من جديد • ومع ان آخر أمراء السامانيين (فى اوائل القرن الحادى عشر) • حاول بعث حكم الأسرة السامانية ، فانه فشل ولم يستطع ان يقوض دولة الترك التى استقرت فى بلاد ما وراء النهر ، ولم يفلح السامانيون فى دفع الجماهير بايران الى الذود عن الدولة الايرانية ضد العدو الخارجى حتى لقد أعلن بعض العلماء المسلمين أن الحرب لا تكون فرضا الا اذا أراد الكفار الاستيلاء على بلد اسلامى، وكانوا يقولون أيضا ان من العبث الظن بأن أحوال الأهالى ستكون تحت حكم القراخانيين ــ وهم مسلمون ــ أسوأ منها تحت حكم السامانيين ، ولذلك فلا داعى لان يريق المسلمون دماءهم •

ولم يكن من الممكن تنظيم مقاومة جماعية بين الايرانيين والأتراك ببلاد ما وراء النهر ، ولم تكن أواسط آسيا (الايرانية) قد حكمت قبل الاسلام بيد ملك قوى، بل كانت السلطة كلها فى أيدى أصحاب الأراضى من الطبقة الأرستقراطية ، وكانت البلاد تنقسم الى عدة امارات يحكمها أصحاب الأراضى هؤلاء وكان كل واحد منهم يسمى (دهقان) وكان بعض هؤلاء الأمراء يفقد الحكم بعض الوقت وكانت طبقة الدهاقين هذه الايرانية تؤثر حضاريا على الترك فى بعض الأحيان ، حتى لقد كان بعضهم يحمل ألقابا تركية • وفى العهد الاسلامى بدأت النزعة لتكوين طبقة أرستقراطية تضعف فى ايران وفيما وراء النهر وكان هذا الضعف يمضى عكسيا مع رقى حياة سكان المدن ، ومع تقوى السلطات المونارشية ومع التمركز البيروقراطى •

وكما حلت الفارسية محل اللهجات المحلية ، فكذلك تغلغلت نظم الحكم الساسانية فى آسيا الوسطى ، ولذلك كان

السامانيون ينسبون أنفسهم لاسرة الساسانيين • وأيقظت نزعة الاستبداد عند السامانيين فكرة التمرد عند الطبقة الأرستقراطية المحلية •

واية هذا أن احدى الروايات تقول أن بغراخان جاء الى بلاد ما وراء النهر استجابة لدعوة الدهاقنه المحليين ، ولدينا أدلة على أن الدهاقين قد استفادوا بعد أن فتح الترك تلك البلاد • ويفهم من قول المقدسى أن هؤلاء الدهاقين كانوا يحتفظون في أواخر القرن العاشر بمميزاتهم الاقتصادية فى ايلاق الواقعة في حوض نهر (آنكرن) في جنوب طاشقند ، ولكن لم تكن لهم أهمية سياسية ، وقد رؤيت عملة مسكوكة — فى عهد القاراخانيين — باسم دهقان ايلاق وذلك يدل على أن حقوقهم السياسية كانت قد بعثت •

ولم يقم القراخانيون (مع استيلائهم على بلاد ما وراء النهر) في العواصم القديمة لتلك البلاد ، لا فى بخارى عاصمة السامانيين ولا في سمرقند ولكن اتخذوا من مدينة (أوزكندى) — وهى احدى مدن الحدود القليلة الاهمية الواقعة الى الشرق من فرغانة — مركزا لهم ، ومن الواضح أنهم كانوا يعتبرون هذه المدينة المتاخمة لحدود بلادهم القديمة آمن وأقل خطرا من البلاد الواقعة في قلب البلاد ، والواقع أنه بعد بضع سنين من فتح تلك البلاد ظهرت علامات حركة شعبية موالية للسامانيين • وعلى الرغم من أن هذه المدينة كانت موجودة بتلك البلاد قبل أن يفتحها الترك، فقد كان اسمها تركيا وهو (أوزكنت) وقد فسرت هذه الكلمة اعتباطا بأن معناها (مدينتنا) وقد سميت عاصمة الجزء الشمالى من بلاد ما وراء النهر — حيث كان العنصر التركى أكبر أهمية منه في الجنوب — باسم تركي هو (بينكه ت) ولكن هذه الكلمة : بينكه ت (بينكت) استبدلت منذ القرن الحادى عشر كما يحدثنا البيرونى بكلمة (تاشكه نت) بمعنى (طاش + شهر) أى المدينة الحجرية وقد حوول تعليل

استعمال كلمة طاش أى (الحجر) مع ان الحجر لا يكاد يوجد بتلك المنطقة ولم تنجح هذه المحاولات ٠

ويذكر محمود الكشغرى أن الشعب هناك يختصر هذه الكلمة وينطقها (تر كن) ونرى عند الكشغرى اشتقاقا شعبيا لكلمة سمرقند أيضا فقد قيل ان أصلها يرجع الى (سه ميزكنت) أى المدينة الغنية ٠

واذا كان القراخانيون لم يقيموا فى بخارى وسمرقند، فذلك لا يدل على أنهم تخلوا عن فتح البلاد الغربية التى أمدتهم بالدين وبالثروة المادية ٠ فقد كان التقدم نحو الغرب أجدى من الحرب مع غير المسلمين من الترك المقيمين فى الشمال وفى الشرق ، ومع أنه كان بين المسلمين من ينتظر وصول الترك ، ويرى فيهم حلفاء وأنصارا ، فان المنصر الدينى لم يستطع أن يغير اتجاه الفتوحات التركية ٠ ولما كان الأتراك حديثى العهد بالاسلام فقد كانوا أخلص من الحكام المسلمين فى الولايات غرب آسيا ، حتى ان رجال الدين فى القرن العاشر كانوا ينتظرون ظهور الفاتحين المسلمين السنيين فى الشرق ، ليجهزوا على حكم البويهيين الشيعةالذين استبدوا بكل الأمور فى بغداد ٠ وكان مثل الأتراك فى المشرق كمثل البربر فى المغرب ، فكان الأتراك يدافعون عن رجال الدين فى البلاد التى يصطدم فيها هؤلاء الرجال بالحكومة ، ويروى محمود الكشغرى حديثا قدسيا معناه : ان لى فى الشرق جنودا يسمون الترك فاذا غضبت على قوم سلطتهم عليهم ٠

ايران وتوران

وامتاز القراخانيون بأنهم حكام مسلمون متقون فلم يشرب منهم أحد الخمر وهكذا كانوا مختلفين عن الغزنويين الذين ورثوا ملك السامانيين فى حكم البلاد الواقعة جنوب نهر جيحون ، والذين لم يكونوا ــ مع أن أصلهم تركى ــ على صلة بحركات الشعوب التركية الأخرى ٠

ويعد محمود الغزنوى صاحب دين ، وقد أعلن الجهاد فى بلاد الهند وتعقب الرافضة في بلاده ، ولكنه فى حياته الخاصة لم يكن يتحرج من تعاطى المحرمات ٠

ولم يكن في نية القراخانيين آن يقفوا عند آموداريا ، بل لقد ساقوا الجنود الى بلاد محمود الغزنوى٠ ويروى مؤرخ الغزنوى بهذه المناسبة حديثا نبويا عن الترك وصفوا فيه بأنهم ضيقو العيون ، فطس الأنوف ! وهذا الحديث دليل على خطأ القول بأن الترك لا ينتمون فى الأصل الى المغول ٠

ومن المحتمل أن تكون الحروب ضد الترك قد نظر اليها فى داخل ايران من ناحية التقاليد القومية الايرانية ٠

وفى أثناء الحروب ضد القراخانيين ظهرت شاهنامة الفردوسى وكانت قد ألفت في عهد السامانيين ، ولكن اشتهرت فى عهد محمود الغزنوى ، وفى الشاهنامة كثير عن الصراع بين ايران وتوران (أى بلاد الترك) ٠

وكانت كلمة توران تطلق منذ ظهور الترك أى منذ القرن السادس الميلادى على تركستان (أى بلاد الترك) وعلى الرغم من أن الأبطال التورانيين الذين اشتركوا فى ذلك الصراع كانت أسماؤهم ايرانية ، فقد صوروا بوصفهم أبطالا أتراكا ٠

ولم يتأثر القراخانيون بالاسلام فحسب بل تأثروا أيضا بالملاحم الايرانية ، ولذلك كان من السهل ان تطبق عليهم التقاليد التورانية القديمة التى لا تمت للأتراك بصلة ٠ وبسبب تأثرهم بالملاحم الايرانية نسبوا أنفسهم لبطل توران الأسطورى آفراسياب وتسموا (بآل أفراسياب) وهو تعبير غير تركى ، ونعلم من محمود الكشغرى أن البطل التركى (آلب تونغا) كان (كما ورد فى الأغانى التركية) هو أفراسياب بعينه ، وقد نقل محمود الكشغرى بعض هذه الأغانى وأورد ترجمتها العربية كعادته ٠

ووضع في الترجمة العربيه كلمة (أفراسياب) في مكان كلمة (آلب تونغا) في النص التركي وتنسب الروايات الفارسية الخاصة بآفراسياب كثيرا من بطولاته الى اماكن مختلفة بشرقي تركستان ، فعاصمة آفراسياب مثلا هي مدينة كاشغر ٠

وكان ينسب الى آفراسياب تأسيس مدينة (بارجوق) وهي عبارة عن مدينة (مارال باشي) الحالية ٠ ويروى ان (بيزن) = (بشرن) الذى تزوج آخت آفراسياب سرا ـ حسب القصة الفارسية ـ والذى القي من أجل ذلك في بئر بأمر آفراسياب ثم أنقذه رستم ، يقال ان هذا الشخص قد سجن في (بارجوق) ٠ وقد أدخل (الفردوسي) وسلفه (دقيقي) وهو من رجال العهد الساماني خصائص الأتراك المعاصرين لهم في حكاياتهم عن التورانيين الأسطوريين وهذا أمر طبيعي ، والى تلك الجهة يرجع أسماء بعض المدن وبعض أقوام الترك ، كما يرجع اليها أيضا الخط التركي المعروف باسم (بيغو) ٠ وكلمة (بيغو) في الخط المسمى الآن (خط بيغوى) عبارة عن تحريف لكلمة (يابغو) المذكورة في نقوش أورخون على أنها اسم منصب تركي ، وقد كان حاكم القارلوق يحمل هذا الاسم ٠

ولم تكن الحروب ضد الغزنويين مفيدة للقراخانيين ، فقد كانت خسائرهم فادحة في كل هجماتهم التي باءت جميعها بالفشل ٠ واستولى محمود على بعض الولايات في شمال جيحون فقد كان من آماله أن يعترف به حاكما على الشرق وألا يتصل القراخانيون بالخليفة الا بواسطته ٠ ومع هذا فقد كان محمود يعتبر القراخانيين في اتصالاته بهم مساوين له ٠ ويدل على ذلك ما يرويه الكرديزى عن مقابلة محمود الغزنوى في جنوبي سمرقند مع قدرخان يوسف بن بغراخان ملك كشغر سنة ١٠٢٥ ٠

وتتحدث المصادر التاريخية عن أحد فتوح القراخانيين في شرقي تركستان ، وهـو فتح ختن الذى قام به قدرخان يوسف الذى أشير اليه آنفا ، والمتوفى سنة ١٠٣٢ ٠

ولم ير الاسلام حسب آخر معلوماتنا ينشر في تركستان بقوة السلاح الا في هذه الموقعة ، ذلك أن الأتراك المسـلمين فتحوا مدينة ـ كانت البوذية قد تطورت بها وتكاملت ٠ وفى احدى روايات الكرديزى عن ختن قبل هذا الفتح اشـارة الى أنه كانت بها كنيسة للنصارى وبعض المقـابر للمسـلمين ، دلالة عـلى آن المسلمين كانوا هنـاك قبل الفتح مع وجـود البوذية ٠

ومما يلفت النظر آن حكام الأتراك الكفـار كانـوا ـ كمثل القراخانيين المسـلمين ـ يتصـلون بمحمود الغزنوى فيروى الكرديزى آن خانين تركيين أرسلا السفراء في سـنة ١٠٢٦ هـ يطلبـان الاصهار الى الأسرة الغزنوية (ومع أن ألقاب هذين الخانين مذكورة في مخطوطة الكرديزى الوحيدة الموجودة بكمبردج ، والتى نقلت عنها نسخة أكسفورد ، فان هذه لم يمكن قراءتها) ٠

وأجاب محمود الغزنوى : ان المسلمين لا يزوجون بناتهم للمشركين فاذا أسلم الخانان قبلنا رغبتهما ٠

فهل كان هذان الخانان منسوبين الى عائلة القراخانيين ، أى هل كان من القراخانيين من لم يقبل الاسلام بعد ؟ وأين كانت حكومة كل منهما ؟! لا تذكر المخطوطة شيئا عن هـذا مع الأسف ٠

والمؤلف الوحيد الذى يذكر هذه السفارة بعد الكرديزى هو جمال الدين ابن المهنا الذى كتب في القرن الرابع عشر قاموسا فارسيا تركيا مغوليا ٠ ولكن ليست بكتابه تفصيلات عن هـذا الموضـوع ، وبين سـنتى ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ نشر المستشرق الروسى ميليورانسكي القسمين الأخيرين من هـذا

الكتــاب مع ترجمتهما الروســية وذلك مع بحث لغــوى فى مقدمة الكتاب.

وبين سنتى ١٣٣٠ ، ١٣٤٠ نشر كليسلى رفعت افندى الكتاب كاملا ، وحصل هذا الناشر التركى على معلومات لم تكن بين يدى الناشر الروسى فاستطاع أن يحدد اسم المؤلف. ولــكن النقط التى تهمنا مشــطوبة مع الأســف فى النشرة التركية ولا نستطيع قراءتهــا الا فى النســخة التى نشرها الروسى.

ويذكر ابن المهنا أثناء حديثه عن تقويم (الاثنى عشر حيوانا) نقلا عن (طبائع الحيوان) لشرف الزمان المروزى (وهو كتاب لم يصلنا) ان رسالة وردت على محمود الغزنوى من صاحب الصين وصاحب الترك وتاريخها الشهر الخامس من عام الفارة ، (وتذكر بعد ذلك أسماء السنوات الأخرى : سنة الفهدParse ، وسنة النمر أو سنة الأسد (صلان يلى) ولم يستطع ميليورانسكى أن يفهم الكلمة الأخيرة : (صلان يلى) ، ومعنى هذا أنه لا توجد معلومات عن سفارة خانات الترك المجوس فى هذا المصدر الجديد ، بل انه يضيف الى الموضــوع مشكلة تاريخية فقط ، وتاريخ ورود السفارة عند الكرديزى هو سنة (٤١٧) = (١٠٢٦) وعند الطبيب المروزى هو ســنة (٤١٨ = ١٠٢٧) فأما عام الفارة فيصادف اما ١٠٢٤ واما ١٠٣٦ .

ويتفرد محمود الكشغرى بامدادنا بالمعلومات عن حدود بلاد المسلمين فى شرق تركستان زمان القراخانيين .

ومعلوم أن المدن المتحضرة فى شرق تركستان قد خططت بمحاذاة طريقين كبيرين الأول شمالى يؤدى الى كوجه نKoutcha والآخر جنوبى يؤدى الى لوب نورLob-Nor عــلى مصب نهر تاريم مارايختن . ويسمى تاريم عنــد محمــود الكشــغرى (أوسمى تاريم) ، ويقول فى تعريفه انه نهر ببلاد الاسلام يصب فى مملكة الأويغور حيث يضــيع فى الــرمال ، وفى

القرن الحادى عشر لم يكن الاسلام قد وصل الى طورفان ولوب نور وكانت حدوده الشمالية مدينتي (كوجا) و (بوكور) ومن الجنوب مدينة (جرجه ن) ولا نعلم أكان يوجد خوانين غير خان كاشغر في الآراضى الواقعة بين هذه البلاد وكاشغر أم لا • والأرجح أن البلاد الواقعة الى الشرق كانت تابعة لخان الأويغور الملقب (كول بيلكا خان) ولكن تذكر معه عبارة (كان يسمى) دلالة على أن هذا اللقب يرجع الى حقبة مضت •

ولا يذكر المؤلف (آى محمود الكشغرى) اللقب الذى كان يحمله الخان فى عهده ، ونصادف في اللقب الذى كان يحمله أمراء القارلوق وهو (كول ايركين Kül-erkin) نفس كلمة (كول) الموجودة فى اسم (كول تكين) بطل نقوش أورخون • ولكن المؤلف لا يعرف المعنى القديم لكلمة (كول) فقربها من كلمة (كول) بمعنى بحيرة واضطر لذلك الى أن يفسر اللقب تفسيرا متكلفا فذهب الى أن (كول) معناها أن علم الخان كان واسعا كالبحر ، ويذكر الكرديزى هذا اللقب بالراء (كورتكين) وعلى كل حال فان (كور) و (كول) صورتان لكلمة واحدة نشأتا مما يحدث عادة من أن تنقلب الراء لاما أو العكس ، ومع أن محمود الكشغرى يعرف المعنى القديم لكلمة (كور) ويفسر كلمة (كور أر) بمعنى (الرجل الثابت) فانه لم يفطن الى أن كلمة (كول) فى اللقبين (كول بيلكا) و (كول ايركين) هى بعينها كلمة (كور) محرفة •

ونستطيع أن نستنتج من احدى اشاراته أن لديه رواية عن فتح ختن ، ذلك أنه أورد لقب (جنكشى) وفى رواية أن المسلمين فتحوا ختن بسبب أمير يحمل هذا اللقب •

وقد كان بعض أولاد جنكيز يحمل هذا اللقب فى عهد المغول ، وكثير من الأشعار التى أوردها الكشغرى فى كتابه له علاقة بما كان من حروب بين المسلمين والأويغور ، ويصور

الأويغوريون فى هذه الأشعار مرتبطين بالأصنام البوذية التى يسمى واحدها (بورخان) بالبوذية ، ويذكر هذا (البورخان) دائما مع اسم راهب بوذى هو (توبين Toin ومعلوم أن جزءا من رهبان البوذية يسمون حتى الآن «توبين». ويقولون ان أصل هذه الكلمة صينى ، ولابد أن يكون هذا الاسم قد انتقل هو وكلمة نوم Nom التى تطلق على كتبهم المقدسة من الأويغور الى المغول ، وذلك لأنه مذكور منذ القرن الثالث عشر فى كتاب الجوينى . ويقول محمود الكشغرى ان كلمة نوم Nom تطلق على الكتب الدينية جميعها ، ومنها كتب الدين الاسلامى . ولا يذكر الكشغرى شيئا يدل على وجود المانوية أو المسيحية عند الأويغور ، ولكن يستنتج من ذكر كلمة (به جه ك) وجود بعض المسيحيين ، ذلك بأن هذه الكلمة كانت تطلق على (صوم النصارى) ، ومما يلفت النظر استعمال هذه الكلمة فى النصوص المانوية بمعنى الصوم أيضا .

ثم أطلق القراخانيون المسلمون كلمة (تات) على من ببلادهم من الايرانيين المسلمين ومن الأويغور المشركين وهذا أيضا لافت ! ويظل أصل كلمة (تات) موضع سؤال . ولهذه الكلمة الآن مدلول أتنوغرافى ، فهى تطلق فى قافقاسيا على اليهود الذين يتكلمون لغة مركبة من الايرانية والتركية وهى تستعمل أيضا عند التركمان فى آسيا الوسطى ، فهم يطلقونها على من تحولوا الى حياة الاقامة فى الحضر ومن جملتهم أهل خيوه ، ولابد أنها كانت تستعمل بنفس المعنى فى القرن الحادى عشر والا لصعب تعليل اطلاقها على الايرانيين وعلى الأتراك الأويغور المتحضرين .

ولدى الكشغرى معلومات صحيحة كثيرة عن مدن الأويغور ، وقد ذكرت مدينة (قوجو) فى نقوش أورخون ، وفى النصوص الأويغورية وهى عبارة عن (قاراخوجا) الحالية ، بالقرب من طورفان حيث توجد خرائب (ايدى

قوت) أى مدينة (ايدى قوت) حاكم الأويغور • وكانت هذه المدينة عاصمة الجزء الجنوبى من بلاد الأويغور •

وعند الكشغرى ان كلمة (قوجو) [بالجيم المعطشة] أو (قوجو) [بالجيم المصرية] أو (قجو) تستعمل اسما لمدينة كما تستعمل كذلك اسما لمنطقة بأكملها ، ويذكر بعد ذلك أسماء ثلاث مدن هى (سوطى) و (جانبالق) و (ياكى بالق) •

وفى كتاب الكشغرى دليل على أن الأويغور بعد ثلاتمائة سنة من اعتناق المانوية لم يفقدوا روحهم العسكرى ، وذلك أن الكشغرى يقرر أن الأويغور كانوا أمهر بالنسبة لغيرهم من الكفار فى الرمى بالسهام ، ونعرف من الكشغرى الأسماء التى كان يطلقها الأويغور على المسلمين، فقد كانوا يستعملون كلمة (جوماق) بمعنى (مسلم) •

ومعلوم أن هـذه الكلمـة (جوماق) تطلق فى جنـوب روسيا على صغار التجار الذين يتجولون فى القرى ، يحملون بضائعهم وأمتعتهم على عربات •

ولم يعرف أصل هذه الكلمة حتى الآن ، ولكن يحكم — من جرسها — بأنها تركيـة ، والغـالب أن المسـلمين كانوا يقومون فى مناطق الأويغور (كما كانوا يقومون فى غيرها) بأهم الأعمال التجارية •

والبيانات التى يعطيها المؤلف عن الأقوام التى تقطن فى الجزء الشمالى من شرق تركستان قليلة التفصيلات ، ولقـد رأينا من قبل كيف يمكن استنادا الى كتاب الكشغرى أن نعين حدود انتشار الاسلام فى الشرق ، ولكن الروايات الخاصـة باسـلام الترك فى الشـمال ، والشـمال الشرقى يعـوزها الوضوح • ويبدو أن جغرافيى القرن العاشر لم يعرفوا جيدا الا الجزء الجنوبى من ولاية (يدى صو) ويذكر نهر (ايله) فى مخطوطة تومانسكى ، ولـكن الأمر يختلط على المـؤلف فيقول ان هذا النهر يصب فى بحيرة ايصيغ • ذلك ، بينما

يهتم محمود الكشغرى بنهر ايله ويربط بينه وبين ظهور تقويم الاثنى عشر حيوانا المستعمل عند الترك فيروى أسطورة خلاصتها ان ملك الترك خرج للصيد فجرت الحيوانات التى تبعها وألقت بنفسها فى نهر (ايله) وعبرته بالترتيب ، وكان هذا الترتيب فيما بعد هو ترتيب الحيوانات فى ذلك التقويم .

محمود الكشغرى

وحرر محمود الكشغرى كتابه فى بغداد ، ومع انه يحدد تاريخ شروعه فى الكتابة بالمحرم سنة ٤٦٦ — (سبتمبر سنة ١٠٧٤) فقد شك فى هذا التاريخ لسببين : أولا ان محمود الكشغرى يذكر الخليفة المقتدى الذى اعتلى العرش فى سنة ٤٦٧ = (١٠٧٥) ، والثانى ذكره عام الثعبان (بيلان يلى) الذى يوافق سنة ١٠٧٧ ، ومذكور فى اخر الكتاب قيد آخر يشير الى أنه قد بدىء فى تأليفه فى جمادى الأولى سنة ٤٦٤ = (١٠٧٢ يناير ـ فبراير) وأنه قد صحح وعدل ونسخ أربع مرات فانتهى منه فى جمادى الآخرة سنة ٤٦٦ أى فى فبراير سنة ١٠٧٤ وهكذا يكون الفراغ من هذا الكتاب سابقا على جلوس الخليفة المقتدى الذى قدم له الكتاب .

ومما يزيد حل هذه المتناقضات صعوبة ما ذكره ناسخ هذه المخطوطة (وهى جيدة وقديمة) فقد ذكر تاريخا هذا هو يوم الاثنين ٢٧ شوال = (أغسطس سنة ١٠٦٦) ، وذكر أنها منقولة عن النسخة التى كتبها المؤلف بيده . ومع هذا فانا لا نشك فى أن المؤلف قد حرر هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر .

ولا يذكر المؤلف سبب هجرته الى بغداد ، ولكننا نعلم مما ذكر من البيانات أنه طاف بصحارى الترك ، وأنه كان من أكثر الناس معرفة بلغاتهم ، فقد كان يعرف التركية والتركمانية والغزية والجكلية والنعمائية والقرقزية .

ولا تدل عبارة الكشغرى على أى اللغتين كانت لغته الأصلية العربية أم التركية • فالكتاب يدل على علم كامل باللغة العربية وان كانت به بعض النقط التى تدل على ان أصله تركى ، وهو يذكر نفسه أحيانا بضمير الغائب ، وأحيانا يكتفى بذكر اسم (محمود) مع اضافة عبارة مؤلف هذا الكتاب ، ويبدو ألا داعى للشك فى أن المراد (بمحمود) اذا ذكر فى الكتاب هو المؤلف نفسه ولا شك أنه يتحدث عن نفسه فى هذه العبارة : (ونشأ أبو محمود فى مدينة بارسخان أو بارسخان بجوار (بحيرة ايسيق) وقد حدد فيما قبل مكان بارسغان أو بارسخان) • وينقل الكرديزى أسطورة تقول ان الاسكندر أثناء حملته على الصين أسكن العساكر الايرانيين الذين أخذهم من ايران ، بذلك المكان ، ومع أنه وعدهم باعادتهم الى ايران بعد عودته من الصين فانه لم يستطع الوفاء بوعده ، لأنه رجع بطريق الهند ويقول الكرديزى ان كلمة بارسخان معناها (أمير الفرس) وأنها مكونة من الكلمتين (بارس) و (خان) •

وينقل الكشغرى وجهين اخرين لتسمية المكان احدهما أن (بارسخان) اسم لابن آفراسياب ، والثانى أن هذه الكلمه اسم لسايس ملك الأويغور • وهذا الوجه الثانى مهم اذ يمكن أن يستنتج منه أن حكم الأويغور قد امتد فى وقت ما الى الغرب حتى بحيرة ايسيق ، وأن عهدهم لم يكن قد نسى تماما فى القرن الحادى عشر •

ولكن يمكن القول ــ استنادا الى موضع آخر من كتاب الكشغرى ــ بأنه لم يكن ينتمى فقط الى الترك بل كان من أسرة القراخانيين ، فهو يقول فى صحيفة ١٠٢ من كتابه : « قال محمود صاحب الكتاب : ولهذا المعنى كان آباؤنا الامراء يسمون (خمير) لأن الغزية ما قدروا أن يقولوا (أمير) فقلبوا الألف خاء فقالوا خمير » ثم يقول : « وأبونا هو الذى فتح ديار الترك من أولاد السامانية » ولكن هذه العبارة غير

صادرة من المؤلف بل يرويها نقلا عن اخر ذكره قبل ذلك وهو نظام الدين اسرافيل طغان تكين بن محمد جقرطنقاخان عن أبيه • ويحتمل أن تكون هذه العبارة خاصة بنظام الدين هذا، ويذكر المؤلف بعد ذلك أنه كان بصحبته أمير اسمه (قمق) •

الحـدود الشمالية

ويغلب ان تكون قبائل توخسى ويأغما وجيينيس ، التى تقطن وادى نهر (ايله) مسلمه وهكذا تكون المواضع الاولى للمسلمين واقعه شمال نهر (ايله) وفى نطاق بحيرة بالخاش، وتذكر بحيرة بالخاش باسم (تريك كول) •

وتدل هذه الكلمة فى لغة الغز عـلى الوفرة والغزارة ، ومعنى هذا أن البحيرة سميت كذلك لأنها أكبر البحيرات فى المنطقـة ، ولا يذكر أن نهر ايله يصب فى بحـيرة بالخاش ، وبالقرب من البحيرة توجد مدينة (ايكى أوكوز) أى (النهران) ويقال انها سميت كذلك لوقوعها بين نهرى (ايله) ويافنج Yafintch ولـكن نهر يافنج يقع بحسب الخريطة (الملحقـة بكتاب محمود الكشـغرى) جنـوب نهر ايله ، وتقـع ايكى (أوكوز) شـمال نهـر ايله ، وفى سنة ١٢٥٣ من الرحالة النصرانى روبرق بمدينة Equius أثناء رحلته شـمال نهر ايله ، ويحتمل أن تكون هذه المدينة هى مدينـة ايكى أوكوز كتبها روبرق بحسب النطق اللاتينى •

والى جانب مدينة (ايكى أوكوز) تقع مدينة (قاملا نجو) والظاهر أنه يجب البحث عن مدينـة (كومى ــ تالاس) فى نفس هذا المكان ، اى فى حدود البـلاد الاسـلامية • ومع أن هذه المدينة تقع على خريطة الكشغرى فى شمال نهر (ايله) ، فانه يذكر فى مكان آخر أنها تقع على حدود بلاد الأويغور ، ويحتمل كثيرا أن تكون واقعة شمال نهر ايله قريبا من مدينة ايكى أوكوز •

وأبعد من ذلك نحو الشمال كان يجرى نهر (يامار) ويحتمل كثيرا أن يكون هذا النهر هو نهر (ثه ميل) الذى يجرى حيث تقع حاليا مدينة (جو كوجاك) • ويقال إن قبيلة ياباقو تعيش هناك واذا كانت كلمة (ياباقو) اسما لنهر يجرى في فرغانة الى جوار (أوزكند) ، فان ذلك حتما من باب التصادف •

وقد تحدث محمود الكشغرى فى كتابه عن موقعة حربية واحدة بين المسلمين والكفار ، وترتبط هذه الحادثة باسم (ياباقو) وكان عدد عساكر المسلمين في تلك الواقعة اربعين ألفا تحت قيادة (أرسلان تكين) وعدد الكفار سبعمائة ألف بقيادة (بوكه بودراج Bugué-Boudratch) وانتهت بالنصر للمسلمين •

وقد عبر المسلمون أثناء انطلاقهم الى تلك الموقعة نهر (ايله) فنهر (يامار) (ثه ميل) واشترك (الأتراك الباسمل) ضد المسلمين في هذه الموقعة •

وتحدث محمود الكشغرى نفسه مع واحد ممن إشتركوا في هذه الحرب ، أى أننا نستطيع أن نستنتج أن الموقعة كانت في وقت قريب من وقت تأليف الكتاب •

ومهما يكن فقد كثرت الأساطير عن هذه المعركة ، ومن ذلك مثلا عدد الكفار الذين اشتركوا فيها، فهو عدد أسطورى اذ أن ظروف الحياة البدوية تجعل من المستحيل أن يتكون جيش من سبعمائة ألف • ولكننا نصادف أمثال هذه الأرقام الخيالية كثيرا فى الحديث عن حروب البدو ، ومن بينها حروب جينكيزخان •

ويذكر محمود الكشغرى (ياباقو) بين الأقوام غير الخالصة التركية ، ولكنه يذكر أيضا أن هذه الأقوام كانت تعرف اللغة التركية الى جانب لغاتهم ، ثم يدخل الكشغرى (الباسمل) كذلك في جملة هذه الأقوام ومذكور فى نقوش

اورخون أن (باسميل) هؤلاء كانوا يعيشون الى جوار مدينة (بش باليق) فى المكان الذى سكنه الأويغور فيما بعد بشرقى تركستان . وقد وردت كلمة باسمل فى النسخة المطبوعة من ديوان لغات الترك بالياء (يسمل) والظن أن هذا الخطأ غير موجود فى النسخة الأصلية لمحمود الكشغرى ، ففى ص ٣٣٩ من الجزء الأول حيث رتبت بعض الأسماء ترتيبا أبجديا أدرجت كلمة بسمل مع الكلمات المبدوءة بالباء ، وقد وردت قبلها كلمة (بسبل) وبعدها كلمة (بشغل) .

المغول والصين

ومن بين الأقوام التى ذكرت بوصفها غير تركية خالصة ، قوم التتار ومن المعروف أن المغول كانوا يسمون أنفسهم فيما بعد بهذا الاسم الوارد فى نقوش أورخون ، وبعض الأقوام التى يذكرها الكشغرى على أنها لم تكن خالصة التركية كانت مغولية ، ومن بين هذه الأقوام قوم ياباقو . فاذا صح ذلك كان معناه أن بعض المغول اتجهوا منذ زمان المؤلف الى المغرب ، حتى وصلوا الى مناطق يسكن الترك فى جميع نواحيها .

وكما كان القيرغيز القاطنون فى الحوض الأعلى لنهر ينيسى يذكرون من قديم بوصفهم من الترك الخلص ، فقد كانوا يذكرون بنفس هذه الصفة فى زمان محمود الكشغرى ، وتؤكد نصوص الكشغرى أن المغول طردوا الترك من منغوليا ، وبحسب رواية الكشغرى تقع جبال (أوتوكه‌ن) التى كانت المعسكر الرئيسى لخان الترك أثناء كتابة نقوش أورخون ، فى صحراء التتار قرب بلاد الأويغور ، وآخر الأقوام التركية التى حكمت بمنغوليا كما تروى المصادر الصينية هم القرغيز الذين طردوا الأويغور سنة ٨٤٠ ، والظاهر أن طرد الترك من منغوليا مرتبط بالقوة التى وصل اليها قوم من المغول فى بداية القرن العاشر ، وهم الخطاى ، وقد أقام هؤلاء الخطاى دولة قوية فى شمال الصين باسم (خطاى) ومع أن الأوربيين

لا يستعملون هذه الكلمة فان المغول والروس وبعض المسلمين مازالوا يستعملونها مرادفة لكلمة الصين ، وبعد ان نزح الترك الى الغرب ، أخذوا عن العرب كلمة الصين (لما كانت ج الفارسية تتحول غالبا الى صاد) في العربية ، فقد نطق العرب (صين) بدلا من (جين) وحمل الأتراك معهم من الشرق اسم تابغاج (Tabghatch) وهو اسم وارد بنقوش أورخون . واستعملوا كلمة (الصين) للدلالة على شمال الصين وكلمة (ماصين) للدلالة على جنوبها ، وكانت هاتان العبارتان تستعملان في أيام محمود الكشغرى ولكنهم قصروا كلمة (تابغاج) (تاوغاج عند الكشغرى) للدلالة على (جنوب الصين) الذى كان لا يزال تحت حكم أسرة صينية قومية (هى أسرة سونج ـ ضن Song sun) .

وبالاضافة الى (تاوغاج) أو (ماصين) استعملت كلمة (يوقارى صين) . وسميت الصين أو الصين الوسطى باسم الأسرة الحاكمة هناك وهى (خيتاى) ، وكانت كاشغر عبارة عن جنوب الصين .

ولابد أن كلمة (تاوغاج) كانت تستعمل في معان أخرى ، وقد كانت كل آثار الحضارة القديمة في آسيا الوسطى تنسب (فى زمان محمود الكشغرى كما هو الحال فى العصور المتأخرة) الى الصين .

ويرى محمود الكشغرى أن كلمة (تاوغاج) بمعنى الكلمة العربية (عادى) نسبة الى عاد (ويقال لكل شيء من المصنوعات اذا كان قديما عظيما (تفغاج اذى) كما يقال فى العربية شيء عادى) . وعلى هذا النحو يفسر محمود الكشغرى لقب (تفغاج خان) الذى يستعمله القراخانيون فيقول انه معناه (عظيم الملك وقديمه) ولابد أن يكون هذا التفسير خطأ ، فان هذا اللقب من مخلفات الاتصالات القديمة بين الترك والصين ، وهو يدل فى أكبر الظن على أن الترك كانوا يتخذون من الدولة الصينية مثلا أعلى ، وكان نفس هذا اللقب يضرب على السكة القراخانية

مترجما للعربية (ملك الصين) • ويذكر محمود الكشغرى كذلك التانكوت Tangout الذين فتحوا في سنة ١٠٢٠ (غانجزاو) Kan Tcheou وهى بلاد الأويغور •

وكانت توجد بين الصين وبلاد التانكوت مدينة تحمل اسما تركيا عجيبا هو (قاتون سيتى) (قادنيك صورتى) أى (صورة المرأة) ، ولم يوضح هذا الاسم ولم يعرف هل تنسب المدينة الى صورة خاصة أم هل تنسب الى تمثال ، ولكن الكشغرى يذكر حربا قامت بين تانكوت وبين أهالى قاتون سيتى وانتهت غالبا بهزيمة التانكوت •

وتدل المعلومات القصيرة التى يذكرها عن المدن المختلفة على أنه كان يملك كتبا تاريخية كثيرة لا توجد الآن بين أيدينا • ولو وجدت لكانت كبيرة القيمة ، فهو يذكر مثلا مدينة « صيغون صامور » ويروى أن بغراخان قد مات بتلك المدينة مسموما ، ولكن لا يذكر أى بغراخان ؟ ثم يتحدث عن مدينة (اينج كند) وهي من مدن أصحاب المقنع ، ولكنها كانت خربة ، وربما كان خرابها على أيدى عساكر العرب وهي تستأصل أتباع المقنع ، ولكن المراجع التي تتحدث عن مذهب المقنع ، وعن اتفاقه مع الترك ، وعن حروبه ضد عساكر الخليفة لا تذكر اسم هذه المدينة ، وفي ثنايا المواد اللغوية التى جمعها محمود الكشغرى توجد نماذج للأدب الشعبي ولأدب الصنعة ، كما توجد كثير من التعبيرات المدنية، وتدل هذه النماذج وتلك التعبيرات على أن الترك في القرن الحادى عشر لم يكونوا قد تأثروا تماما بالمدنية الاسلامية وبخاصة الايرانية ، وتدل أيضا على مدى تطور حياة الترك المادية والمعنوية قبل أن تضمحل تقاليدهم القومية •

ولا يمكن أن نتناول كل هذه الموضوعات في محاضراتنا ، ولكن بعد أن أشرنا الى ما أورد محمود الكشغرى من معلومات عن الغز وسائر أتراك الغرب ، فسنحاول في المحاضرات القادمة توضيح بعض هذه المعلومات ، واننا نحتاج الى القاء نظرة عامة على الغز وسائر أتراك الغرب •

المحاضرة السادسة

ظهور الترك

يرجع ظهور الترك فى البلاد الواقعة جنوب نهر جيحون الى زمن أبعد من استيلائهم العسكرى علي تلك البلاد فى القرن العاشر ، ويحتمل أن تكون ذرارى هؤلاء الترك مازالت تحيا بهذه البلاد حتى الآن ، وفى القرن السابع التقى غزاة العرب فى بدخشان بالأتراك (القارلوق) ويعيش الآن فى بدخشان فرع من الأوزبك هو فرع القارلوق ، ويمكن أن نستنتج من هذا أن الأوزبك حينما غزوا بدخشان فى القرن السادس عشر ، اندمج فيهم الأتراك الذين كانوا يعيشون هناك ، ولا يذكر جغرافيو العرب من الترك المقيمين جنوب جيحون ــ وذلك عدا الأشخاص والفرق التى كانت تكون حرس الخلفاء والأمراء ــ الا (الخالاج) . وهؤلاء الخالاج يعيشون حتى الآن بين الأتراك القاطنين ايران ويسميهم الأتراك (قالاج) .

ويذكر الكشغرى أن أصل هذه الكلمة فعلا أمر هما (قال) و (آج) من المصدرين (قالمق) و (أجمق) وهذا الاشتقاق الشعبى موجود كذلك فى كتاب رشيد الدين . وينسب الكشغرى (الخالاج) أو (القالاج) الى الغز ، ويذكر اثنتين وعشرين قبيلة من قبائل الغز على حين يذكر رشيدالدين أربعا وعشرين ، ولكنه يذكر انهم كانوا يتكونون من ٢٤ قبيلة ثم انفصلت قبيلتان .

ومع أن محمود الكشغرى يقول ان قسما من الخالاج فقد لغته وذاب فى الشعب الأفغانى وأن القبيلة الأفغانية (كيلزاى ــ غلجائى) من سلالة هذا القسم من الخالاج ، فقد

وردت الاعتراضات على هذا القول وخاصة من ناحية صوتيات اللغة الأفغانية . وفى الهند ـ حيث لعب الخالاج فى وقت ما دورا سياسيا مهما ـ تغير اسمهم فأصبح (خيلج) ، ومازال بعض (الخالاج) بايران يتكلمون اللغة التركية ، ويحتمل أن يرجع ذلك الى التحاقهم بالغز وهم أكثر منهم نفرا .

ولا وجه للمشابهة بين النشاط الحربى للغز وبين النشاط الحربى للقراخانيين ، فقد كانت للقراخانيين قبل استيلائهم على بلاد السامانيين دولة ضموا اليها كل البلاد التى فتحوها . أما الغز فقد خرجوا من ديارهم ليؤسسوا لأنفسهم دولة فى البلاد التى يفتحونها ، ومن هذه البلاد أخذوا يزحفون رويدا رويدا على موطنهم الأصلى ليستردوه بالفتح .

السلاجقة

وكما لم يكن للقارلوق خان فكذلك لم يكن للغز ، ولكن رئيس الأسرة الغزية التى حكمت مؤخرا فى ايران كان يسمى (كما يذكر محمود الكشغرى ومصادر أخرى) باسم (سوباشى) أى قائد الجيش . وقد نطق العلماء الأوروبيون اسم هذا القائد هكذا (سه لجوق) (Seldjuk) وهو تلفظ يطابق الاملاء العربى ، ولكنه يجافى قوانين الصوتيات فى اللغة التركية وقد احتفظ به العلماء الأوروبيون . والآن يحاول بعض العلماء بصوتيات اللغة التركية تصحيح هذا النطق فهم يكتبونه أحيانا (سالجوق) أو (سالجيق) ولكن النطق الصحيح لهذه الكلمة كما يتضح من النصوص التركية هو (سالجوك) Seltchuük ، ذلك أننا نجد هذا التلفظ الأخير فى كتاب محمود الكشغرى وفى كتاب (دده قورقورد) وهو قصة بطولية قديمة ، وفى مصادر أخرى من بينها منظومة مجهول صاحبها كتبت سنة ٩٥٠ فى عهد السلطان سليمان وتوجد هذه المنظومة مخطوطة بتاريخ سنة ٩٥٤ فى مكتبة جامعة استانبول بين كتب خالص أفندى ورقمها ٧٣٤٠ .

وأما عن نشاط سلجوق هذا فانا نعلم أنه أسلم وخلص سكان الوادى الأدنى لنهـر سـيحون من الجزية التى كانوا يدفعونها للغز •

وكان يمكن أن نستنتج من هذا أن العلاقات كانت وثيقة بين المسلمين الذين يسكنون حوض سيحون و بين ذرية سلجوق، ولكنا نجد فى مدينـة (جنـد) ، فى القرن الحادى عشر ، حاكما يحمل اسما اسلاميا هو (شاه ملك) يقال ان عداوته لأبناء سلجوق كانت مريرة وقديمة • ومن المعلـوم أن الغز أقاموا بمنغوليا فى القرن السادس دولة بدوية كبرى لم ير مثلها من قبل (ولم يفقها سعة فيما بعد الا دولة المغول) • وحتى بعد سقوط هذه الدولة استطاعوا غير مرة أن يتخلصوا من سيادة الصينيين وأن يحيوا دولتهم من جديد ، ولـكنهم بعد أن هاجروا الى الغرب فقدوا أسس تشكيلات الدولة التى أقاموها فى منغوليا ، ويمكن القول بأن هؤلاء الغز ـ حتى وهم فى الشرق ـ لم يكـونوا يعلمون شـيئا عن أسس نظم الدولة ، ولكن الخان كان يفرضها عليهم بالقوة ، وقد كان الخان (ويسمى فى نقوش أورخون خاقان) اذا ذكر الطقوز أوغوز أو الغز فقط ، ذكرهم بوصفهم أعداء وأصحاب فتن أكثر مما ذكرهم بوصفهم شعبه ، وفى الصحارى الواقعة شرق بحر قزوين لم يستطع الغز ولا ذراريهم وهم التركمـان أن يحققوا الوحدةالسياسية بل كانتالحروب مستمرة بينهم، وقد قامت بعض بطون الغز ـ كل على حدة ـ بفتوحات واسـعة وبهجرات الى بلاد بعيدة ، ولكن لم تكن من بين هذه الحركات جميعها حركة واحدة يمكن وصفها بالشمول وبأنها حـركة متحدة •

ومن العجيب أن هؤلاء الغز الذين لم يستطيعوا فى أى وقت الوصول الى الوحدة ، قد وفقوا فى تأسيس أقوى الدول التركية وأطولها عمرا ، ومن بينها تركيا الحالية •

البجنك

وأقدم هجرة عرفها التاريخ للاتراك الغز فى اتجاه الغرب ، بعد انتهاء الدولة التركية التى حكمت من القرن السادس الى القرن الثامن ، هى هجرة البجنك فى نهاية القرن التاسع ، وقد ذكر الامبراطور البيزنطى قسطنطين رفيروجينيت Constantin Porphyrogénéte أن هذه الهجرة بقت عهده بخمسين سنة ، ومن المعروف أنه كتب ذلك فى نصف القرن العاشر . ويدرج رشيد الدين ومحمود لكشغرى البجنك بين فروع الغز ، وقد ورد اسم البجنك فى كتب الحوليات الروسية بصورة (به جه نه ك) ولم يكن نطقه على هذا النحو مأخوذا من النطق اليونانى ، لأن اليونان يكتبون الكلمة بصورة أخرى هى Patzinak (باتزيناك) والغالب أن الروس كتبوا هذا الاسم طبقا للنطق الذى سمعوه هم أنفسهم ، وقد ظن فى أول الأمر أن هذه الكلمة هى كلمة (باجاناك) التى ترد أحيانا بمعنى (باجاناق) أى زوج الأخت ولكن تبين ألا أصل لهذه الصيغة لأن الكلمة التى ضبطها محمود الكشغرى بوضوح هى (به جه نه ك) .

ولابد أن يكون البجنك قد انفصلوا قبل سائر بطون الغز حتى ان الجغرافيين العرب فى القرن التاسع ، اى قبل هجرة البجنك كانوا يذكرونهم على أنهم شعب مستقل ، وكانوا فى ذلك الوقت يعيشون بمحاذاة نهر (ياييق) أى أنهم كانوا جيران الخزر من الشرق ، وفى سنة ٩٢٢ وجد ابن فضلان فى تلك الجهات بقية منهم .

أما جمهرتهم الكثيفة فقد هاجرت وتوطنت فى جنوب روسيا مارة ببلاد الخزر ، ومن جنوب روسيا بدءوا يهددون كييف ، وذلك فى عهد (اسفاتوسلاف) Sviatoslav .. ب فى كتب الحوليات الروسية ذكر غارات البجنك على الروس ، وذكر الصراع بين الأمراء الروس (كناز) وبين البجنك .

وقد نقــل قسطنطين بورفيروجينيت كثيرا من الأخبــار الخاصة بهم ، كما أنه عدد فروع البجنك ٠

وقبيل القرن الحادى عشر ، أى بعد سقوط دولة الخزر، قام الغز بهجرة جــديدة فعبروا نهر « ايدل » = الفولجا ، ووصلوا الى جنوب روسيا الحالى ، وفى هــذه المــرة ذكرتهم المصادر البيزنطية باسمهم المتداول على ألسنة الشــعب وهــو « أوز Ouzoi . أو Ouz » ٠

وأما فى المصادر الروسية فقد ذكروا باسم Tork ينضم هؤلاء الغــز الى اخــوانهم الأقربين وهم البجنك ، بل بدءوا يحاربونهم ، فاضطر البجنك إلى الهجرة الى شبه جزيرة البلقان وتتبعهم الغز هناك ، وكان ذلك فى نفس الوقتالذى تعرضت فيه الممتلكات البيزنطية بالأناضــول لغزوات فريق آخر من الغز جاءوا مع السلاجقة ٠

ولأول مرة تعرضت المناطق البيزنطية فى الأناضول وفى شبه جزيرة البلقان لغزوات أقوام من الغز جاءوا من طــرق مختلفة ، ولا علم لأحدهم بالآخر ، ولحسن حظ البيزنطيين فان هــذه العنــاصر التركيــة لم تتحــد ، وبسبب ذلك بدأ امبراطور بيزنطة يحس الاطمئنان فى أواخر القرن الحادى عشر وهو الوقت الذى بدأت فيه الحــروب الصليبية ، وندم على طلبه من الغرب أن يعينه ضــد الأتراك المحدقين به من جميع الجهات ، اذ لم تكن به حاجة وقتذاك الى هذا العون ٠

المسيحية عند الغز

ولم يكن الغز المشتركون فى هذه الحركــات على علاقة بالدين الاسلامى ولا بالمدنية الاسلامية ٠ وفى رواية بكتاب عربى عاش مؤلفه فى القرن الثالث عشر « ولا شك أن هذه الرواية ترجــع الى أبعد من هذا من القرن » انه كان ثمــة مسيحيون بين الغز ، وقد عرف الغز الاســلام والمسيحيــة بواسطة خوارزم وهى البلاد المتمدنية التى كانت بينها وبين

الغز علاقات تجارية وثيقة ، وقد ذكر البيرونى وهو من علماء خوارزم فى القرن الحادى عشر ، أنه كان بين الخوارزميين مسيحيون ، والعجيب أن هولاء المسيحيين لم يكونوا نساطرة مثل المسيحيين بايران وتركستان ولكن كانوا على الديانة الأرثوذكسية ، ويفهم من هذا أن الغز كانوا على نفس هذه الديانة ٠

السلاجقة فى هضبة ايران

وبعد أن تأسست المستعمرات الاسلامية على ضفاف نهر سيحون حيث يتنيم رؤساء الغز ، تغلبت المدينة الاسلامية فى تلك الجهات — كما هو الحال فى جهات أخرى — على غيرها من المدنيات ، وعدا ذلك فقد دخل قسم من التركمان فى خدمة السامانيين ، وتعهدوا — فى مقابل المراعى التى أعطيت لهم — أن يدافعوا عن حدود ممتلكات السامانيين ضد اخوانهم التركمان الذين لم يدخلوا فى الاسلام ٠

وفى ذلك الوقت كان بعض الترك القاطنين على حدود دولة السامانيين متصلين بالمدينة الاسلامية ، وكان الفارابى فيلسوف العرب المشهور فى القرن العاشر واحدا من هؤلاء ، فهو تركى النشأة وفى أثناء الصراع بين السامانيين والقراخانيين ، كان الغز ينضمون أحيانا الى هؤلاء ، وأحيانا الى أولئك ، وفى بداية القرن الحادى عشر دخلوا فى بلاد محمود الغزنوى ، وهنا يلاحظ مؤرخو ايران الفرق الكبير بين الغز الذين دخلوا قبل ذلك ايران مبعثرين متفرقين ، رعاة لا نظام ولا تشكيلات وبين أحفاد سلجوق الذين كانوا يلقبون بالأمير والفاتح والذين كانت قواتهم متفرقة نظاما وتشكيلا ، وقد كانت ولايات الغزنويين وغيرهم تضار اقتصاديا من غارات السلب التى يقوم بها الغز الأول ، ولكن هذه الغارات على اتساع مساحتها فى بعض الأحيان، ما كانت لتحدث أى تبدل سياسى ، ذلك أن البدو ينتقلون من مكان الى آخر دون أن يتركوا حاميات عسكرية ، ولا يعمرون المدن

التى تخـرب ، ولا يجشمون انفســهم ازالة الدول القائمـة ليقيموا على انقاضها دولا لهم ٠

ومن جهة أخرى فان أحفـاد سلجوق ــ بعـد أن احرزوا انتصارهم الأول فى خراسان حيث كان يحـكم مسـعود بن محمود الغزنوى ــ بدءوا يضفون على أنفسهم حقوق الحكم ، فأمروا بأن يدعى لهم فى الخطبة ، وسكوا العملة باسمهم ، ولكنهم مع ذلك لم يحاولوا فى أول الأمر توحيـد السـلطة فيما بينهم ٠

وكما أقام الامبراطورية التركيـة فى القرن السـادس أخوان ، فكذلك أقام دولة السلاجقة فى القرن الحادى عشر أخوان هما حفيدا(١) سلجوق ، كان أحدهما يذكر فى الخطبة بنيسابور وباسمه تسـك العملة ، وكان يدعى للآخـر فى مساجد مرو ، وتسـك العملة باسـمه ، ثم بدأ السـلاجقة يأخذون عن الايرانيين قواعد المركزية ، وتوحيد أداة الحكم ، ولم يأخذوا ذلك دفعة واحدة ولكن أخذوه شيئا فشيئا ، ومن اللافت أن الأتراك السلاجقة الغزاة استعملوا لأول مرة فى خراسان اللقب الايرانى القـديم « شاهنشاه » وذلك عـلى العملة التى سكوها باسمهم ، وهو لقب لم يستعمله السامانيون ولا الغزنويون بصفة رسمية ، فقد كانوا جميعا يريدون أن يظلوا (أمراء مسلمين) سنيين تابعين للخليفة ، يباعدون بين أنفسهم وبين شبهة الميل الى احياء التقاليد ، والنظم الايرانية قبل الاسلام ، ولم يستعمل لقب شـاهنشاه الا آل بويه وهم شيعة حكموا بغداد وغرب ايران ٠

أما السـلاجقة فانه يتقدمهم نحـو الغـرب تركوا لقب « شاهنشاه » واتخذوا بدله لقب « سلطان الاسلام » ٠

وفى عهدهم صار لكلمة « سلطان » معنى معين لم يكن لها من قبل ، اذ بدأت فى عهدهم تطلق عـلى الحاكم المسيطر

---

(١) راجع تاريخ البيهقى ، الترجمة العربيـة ، حيث فصلت هذه الفترة ٠

المستقل على حين كانت كلمتا « ملك » و « شاه » تطلقان على الحكام التابعين ، وحكام الاقاليم . وكان العالم الاسلامي يعتبر كلا عليه رئيس ديني هو الخليفة ، ومن بعده « سلطان الاسلام » وهو يولى السلطة الزمنية من قبل الخليفة ، ومن العجيب أن الغز الذين وفدوا على ايران قبل أبناء جلدتهم من السلاجقة لم يتجاوبوا مع هؤلاء وهم يجاهدون لاقامة دولتهم بل رفضوا بصورة قاطعة أن يعترفوا بهم ، ولم يدخلوا في الطاعة الا قهرا وباستعمال القوة .

وكانت علاقة الحكام بالشعب الذى ينتمون اليه اكثر تعقدا فى البلاد الخاضعة للسلاجقة منها فى بلاد القراخانيين ، فقد كان القراخانيون يسمون أنفسهم (الترك) ، و (أبناء أفراسياب) ولم يكن لأى شعب من الشعوب التركية امتياز خاص فى دولتهم .

وليس بين المصادر التاريخية مصدر واحد يدلنا على الشعب الذى ينتمي اليه القراخانيون ، وأما السلاجقة فقد اتخذوا لأنفسهم في أول الأمر لقب (شاهنشاه) ثم لقب (سلطان الاسلام) ، وكما اخترعت أسطورة تنسب القراخانيين الى أفراسياب فقد اخترعت أخرى تنسب اليه السلاجقة ، وصدق السلاجقة هذه الأسطورة ، ومع هذا فقد كانوا يعتبرون أنفسهم من الغز أو من التركمان ، بل ذهبوا الى أنهم ينتسبون الى أحدى قبائل الغز الأربع والعشرين وهى قبيلة (قنق) (ويرسمها محمود الكشغرى «قينيق») وتوشك أسماء هذه القبائل كما ذكرها محمود الكشغرى أن تكون هى بعينها الأسماء التى ذكرها رشيد الدين ، وذلك مع فرق بسيط ، وهو أن الكشغرى ذكر هذه الأسماء بصيغها القديمة ، فمثلا قبيلة (قايى) وهى القبيلة التى ينتمى اليها العثمانيون، ترد فى كتاب الكشغرى بصيغة قيغ وكذلك قبيلة (يا زير) فانها تذكر بصيغة (يازغر) . وقد حاول ماركارت مستندا الى البيرونى الى غيره أن يوحد بين اسم

قبيلة (قايى) التي يرجع اليها العثمانيون وبين شعب (قاى) الذى يسكن أقاصي الشرق، وأوجد بنتيجة لذلك نظرية جديدة، خلاصتها أن العثمانيين ينتمون الى عائلة المغول ، وقد جرح هذا الرأى بما أثبت في كتب الدراسات التركية الحديثة ، وكذلك بالمعلومات التي أوردها محمود الكشغرى ٠

والواقع أن الكشغري يدرج قبيلة « قاى » بين الأقوام غير خالصة التركية ، ولكن لا علاقة البتة بين قبيلة « قاى » هذه وبين القبيلة الغزية «قييغ» التى ينتمى اليها العثمانيون، ولم يحتفظ الغز بأية رواية خاصة بتكوينهم حكومة فى منغوليا فيما مضى ٠

وكان يظن فى الأساطير التركية أن موطن جد الاتراك وهو (ترك) مكان قريب من بحيرة (ايسيق كول) ولكن أساطير الغز لم تذع في المناطق الواقعة الى الشرق من هذه البحيرة ، على حين حمل الغز الذين عبروا نهر سيحون الى ضفته الغربية الأساطير الخاصة ب (قورقود) أبى الشعب وشاعر القومية وفيلسوفها ، والمحافظ على الحكميات الشعبية ٠ ومازال قبر (قورقود) معروفا في حوض نهر سيحون ، ومازالت الأساطير المتعلقة بقورقود شائعة بين التركمان ، وكانت في العصور الوسطى (أيام العثمانيين) ذائعة في الأناضول وظلت منتشرة بين أتراك أذربيجان حتى القرن السابع عشر ، وفي القرن العاشر كان اسم (قورقود) معروفا لدى البجنك ، ويدفعنا كل هذا الى الظن بأن أسطورة (قورقود) وصلت ارثا — الى الغز من عهد ما قبل الاسلام ، وأنهم حملوها معهم نحو الغرب ٠

ولئن كان الغز من ناحية المدنية أقل منزلة من الأتراك القراخانيين ، فانهم كانوا أكثر محافظة على خصائص الحياة القومية للترك ، فقد كان قادة الغز مختلطين بالشعب يشتركون في الجهاد والانتصارات ، ولا يمتاز زيهم العسكرى كثيرا عن زى الجنود العاديين ، وقد وجد تصوير لحفل

زواج طغرل بك حفيد سلجوق من بنت الخليفة وذلك في كتاب باللغة السريانية كتبه أبو الفرج ، وهو من مؤلفي القرن الثالث عشر ، وقد وصف في جملة ما وصف رقصة يؤديها الأتراك كانوا أثناء أدائها يقومون ويقعدون ، وهذه الرقصة هي من غير شك الرقصة المعروفة عند الروس باسم Pliaskav Prisiadkpou ، ولابد أن الروس أخذوا هذه الرقصة عن الترك ، ومع أن المسيحية كانت قد تسربت الى الغز قبل الاسلام ، فالظاهر أنه لم تكن لهم ــ قبل الأبجدية العربية ــ كتابة أخرى ، على حين كانت دولة القراخانيين في ذلك الوقت تستعمل الأبجدية الأويغورية ، ثم أخذت حروفها تتلاشى تدريجيا الى أن حلت محلها الحروف العربية ، وتوجد للقراخانيين عملة عليها نقوش أويغورية ٠

وقد كان الخانات ــ مثلهم كمثل المغول ــ يضربون أسماءهم على العملة بالحروف الأويغورية ، وذلك بعد أن صارت هذه الأسماء عربية اسلامية ٠ ويمكن أن نعلل الفرق بين الرسم الاملائي عند أتراك آسيا الوسطى وأتراك آسيا الغربية ــ وهو الفرق الذي لاحظه علماء ليننجراد ــ بأن الغز لم يكونوا على علم بالأبجدية الأويغورية ، وقد كان من عادة أتراك آسيا الوسطى وهم يستعملون الأبجدية الأويغورية ــ أن يثبتوا الحركات الطويلة فلما استعملوا الأبجدية العربية أفادوا كثيرا من استعمال الألف والواو والياء ٠

أما في آسيا الغربية ، فتدل الوثائق المكتوبة هناك على أن الضبط باستعمال حروف الحركة لم يكن يستعمل الا نادرا حتى ان نهاية الماضي الشهودي للمفرد الغائب وهي (دي) كانت تكتب أحيانا بحذف الياء ، فتصبح دالا مكسورة فقط ــ وبسبب غموض هذا الاملاء ــ فقد احتيج الى أن تضبط المخطوطات بالشكل ، ويبدو أن عدد المخطوطات التركية المضبوطة بحروف الحركة أكبر كثيرا من عدد المخطوطات العربية والفارسية المضبوطة بالشكل ٠

سياسة السلاجقة الاسلامية

وقد كان أحفاد سلجوق بوصفهم (سلاطين الاسلام) اشد دفاعا عن الاسلام وعن اهل السنة من القراخانيين ، بل كانوا كذلك حماة غيورين للمذهب الحنفى ، الذى أخذه الترك عن السامانيين حيث ساد فى دولتهم ، وقد اضطهد الشافعية اضطهادا شديدا فى عهد طغرل بيك ، وكان من أسباب ذلك أنهم رتبوا علم الكلام بقصد الرد على الرافضة • وفى هذا العلم تتخذ الأدلة العقلية أساسا للحكم على المسائل الدينية ، كما أن لعلوم اليونان فيه منزلة عالية ، وهذا كله فى نظر السلاجقة من قبيل البدع الضارة المخلة بالتعاليم الدينية لأهل السنة ، ويقول البعض ان ألب آرسلان خليفة طغرل بيك فى الحكم ، وقف حركة اضطهادالشافعية ، واتخذ لنفسه وزيرا شافعيا هو نظام الملك ، ولكن نظام الملك نفسه يقرر أن ألب أرسلان كان حنفيا متعصبا ، لا يحب الشافعية أبدا ، وكان يأسف لاحتياجه الى مساعدة وزير شافعى ، ولم يكن أحفاد سلجوق يكتفون — بوصفهم سلاطين الاسلام — باعلاء كلمة الدين داخل حدود البلاد الاسلامية ، بل كان عليهم أن يهزموا الأعداء فى الخارج وأن يوسعوا حدود ديار الاسلام ، وكان من الطبيعى أن يؤدوا هذا الواجب بصفة رسمية فى غرب آسيا ، حيث كان النصر والفتح مرتبطين بالمنافع الاقتصادية ومن هذا القبيل حروبهم مع المسيحيين فى الأناضول ، وفى قافقاسيا وحروبهم مع الشيعة فى سورية ومصر ، وقد انتصر المسلمون فى الصراع مع بيزنطة بعد أن رسخت أقدام الحكم التركى فى بلاد خليفة الاسلام ، وكان هذا النصر ، وثيق الصلة بالحكم التركى ، فقبل ذلك بقليل ، أى فى عهد أسرة البويهيين الايرانية (فى النصف الأخير من القرن العاشر ، والنصف الأول من القرن الحادى عشر) ، استغل البيزنطيون شدة الخلاف بين الشيعة وأهل السنة وفتحوا عدة أماكن فى سورية وبين النهرين ، ولكن بعد أن توطد الحكم التركى فى بلاد الخليفة ، لم يفقد

البيزنطيون ممتلكاتهم هذه فحسب ، بل دخل الاسلام فى الأناضول ، وتكونت به دولة اسلامية تركية ٠

ويكفى أن نذكر الأتراك الذين أرسلهم السلاجقة الى حدود بلاد الروم لنقف على مدى اهتمامهم بتلك الحروب ٠

ومع أن سكان الجهات الشرقية من ايران المتاخمة لموطن الغز الأصلي قد حافظوا على هيئتهم الاتنوغرافية ، فان سكان القسم الشمالى الغربي من ايران (في آذربيجان والأناضول) قد تترك لسانهم تماما ، وفى نفس الوقت ، دخلت غالبية سكان الأناضول في الاسلام ، ولكنا لا نستطيع الآن دراسة التطور التدريجي لانتشار الاسلام فى الأناضول ومع هذا ، فلابد أن يكون انتشار الاسلام في بلاد تعودت على المسيحية ، قد تم ببطء ، ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، كانت الجزية ـ وهي الضريبة التي تحصل من غير المسلمين ـ أهم مورد للحكومة الاسلامية المحلية ، مما يدل على أن عدد غير المسلمين فى ذلك الوقت كان كبيرا ٠ ومما يزيد هذه المسألة صعوبة أن حركة التترك لم تمض جنبا الى جنب مع حركة الدخول فى الاسلام ، كما كانت حركة التعرب من قبل ، فمن الملاحظ أن السكان الذين احتفظوا بديانتهم اليهودية أو المسيحية فى مصر وسورية ، قد اتخذوا العربية لسانا لهم ٠ أما في عهد الحكم التركي ، فقد قبل بعض المحتفظين بدينهم اللغة التركية ، ودخل بعض المحتفظين بلسانهم فى الاسلام ، ومن هنا بدأ الاسلام يوائم بين نفسه وبين لغة الأهالي ٠ وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، كان سلطان ولد بن جلال الدين الرومى يقرض الشعر باليونانية الى جانب الفارسية والتركية ، ولأشعاره هذه اليونانية والمكتوبة بالحروف العربية قيمة كبيرة لعلماء اللغة ، اذ أنها الذكرى الوحيدة للهجة الرومية فى منطقة قونية فى ذلك الوقت ٠

ولم يكن الاسلام ، ولا اللغة التركية وقتذاك قد أحرزا انتصارات مهمة فى قانقاسيا ، ولكن كلمة (اذرى) التى كانت تدل منذ أقدم العصور على لهجة ايرانية خاصة ، اصبحت تدل الآن على اللهجة التركية التى يتكلمها كل أهالى أذربيجان تقريبا ، ويتجاوز مجال انتشار هذه اللغة فى الشمال والجنوب حدود المنطقة الايرانية التى مازالت تحتفظ باسمها : آذربيجان ، ولكن المعلومات الخاصة بانتشارها فى هذه المنطقة ترجع فقط الى ما بعد الغزو المغولى ، حتى ليمكن الظن بأنه لولا الموجات التركية التى أتى بها هذا الغزو ما استطاعت اللغة التركية أن تحرز هذا التفوق ٠

وبعد قليل من انتصار سلاطين السلاجقة فى قافقاسيا انتقلت الأهمية السياسية الى يد المسيحيين ، فاصبح بذلك القرن الثانى عشر كله وبداية القرن الثالث عشر فترة تطور عام لدولة الكرج ، وكان المسلمون المجاورون للبيزنطيين والكرج يتعرضون طوال القرن العاشر وبداية الحادى عشر، لصنوف من اعتداءات الفريقين ، وذلك مع فارق عام ، وهو أن حكام الكرج لم يكونوا كالبيزنطيين يكنون الكراهية للمدنية الاسلامية ، بل كانوا يسكون العملة للبلاد العربية ، بالحروف العربية ولم يكونوا يميزون ــ كما قال مؤلف عربى ــ بين رعاياهم من المسلمين والكرج ٠

ولما كان أحفاد سلجوق يسمون بوصفهم (سلاطين الاسلام) الى السيطرة على كل بلاد العالم الاسلامى ، فلم يكن بد من أن يتجهوا بأنظارهم الى آسيا الوسطى منشأهم الاصلى الخاضع وقتذاك لحكم القراخانيين ٠ ولذلك فانه فى الوقت الذى تمت فيه الفتوحات التركية الأولى فى الأناضول كان آلب أرسلان وهو السلطان فى ذلك الوقت يغير غارات موفقة، على طول نهر سيحون ، وعلى بلاد القراخانيين ، وفى عهد ابنه وخليفته ملكشاه (١٠٧٣ ــ ١٠٩٢) بلغت امبراطورية السلاجقة أوج عظمتها ، فسار ملكشاه الى مدينة (أوزكند)

فى فرغانة ، وأخضع لحكمه خان كاشغر ، وهكذا امتد نفوذ (سلطان الاسلام) على آسيا الاسلامية كلهـا من حدود بلاد الأويغور شرقا الى البحر المتوسط غربا، ولئن كان الغزنويون فى الهند وأفغانستان قد احتفظوا باستقلالهم ، فقد اضطروا فى عهد ابنه سنجر الى أن يخطبوا باسمه على المنابر ٠

وفى آسيا الوسـطى ــ كما فى غـيرها ــ بلغ السلاجقة أهدافهم باستعمال القوة ، وليس لدينا دليل واحد لا على أن الأهالى الاتراك نظروا اليهم بوصفهم حـكاما من أنفسـهم ، ولا على أن هؤلاء السلاطين ، حاولوا الاعتماد على القوميـة التركيـة ، ولئن كان السـلاجقة قد جعلوا من القراخانيين تابعين ، فلم يكن من الممكن أن يجمعوا شمل الاتراك المسلمين جميعهم فى شكل دولة واحدة قوية ، ذلك أنه كانت لا تزال هناك فروق كبيرة بين الغز الذين هاجروا الى الغرب ، وبين أتراك آسيا الوسطى ، بل ان الغز أنفسهم لم يكونوا رعايا مخلصين لسلاطين السلاجقة ، وقد اضطر سنجر وهو آخـر أصحاب القوة من أحفاد سلجوق الى أن يحارب أمته ، كما كان يفعل خانات الترك فى القرن الثامن ، وقد وقع هذا السلطان أسيرا فى يد الغز ، ولم ينج الا بالفرار ٠

القبجـــاق

وعدا الأويغور المتحضرين المقيمين فى الشرق والذين لم تشملهم دائرة التأثر بالاسلام ، فقد كان يوجد فى الجهـات الشمالية الغربية قوم من البدو لا علم لهم بالاسلام من حيث هو دين ، وان لم يكونوا أعداء للمدنية الاسلامية ، وأولئك هم القبجاق ٠ وفى القرن الحادى عشر زادت كثافة القبجاق الذين يقطنـون حوض نهر ايرتيش فانتشروا بسرعة فى أماكن واسعة من تلك الجهات، ولما لم تكن بالمصادر التاريخية تفصيلات عن التغيرات التى طرأت عـلى الأتراك القـاطنين بحوض نهر ايرتيش فليس أمامنا ، لكى نحـكم على هـذه التغيرات الا أن ندرس التغيرات التى طرأت عـلى أسمائهم ،

ومع أن اسم (ايرتيش) قد ورد غير مرة فى نقوش أورخون، فلم ترد كلمة واحدة عن الشعب الذى يعيش هناك ، ولابد أن تكون سلطة خاقان الغز الغربيين أو (التركش) قد امتدت الى حوض نهر ايرتيش ٠

ومع أن لكلمة ايرتيش بضعة اشتقاقات شعبية فلا شك فى أنها غير تركية ، ويقرر جغرافيو العرب أن قوما يقال لهم (كيماك) كانوا يعيشون فى حوض نهر ايرتيش ، وانهم كانوا يشغلون مساحات واسعة تقع شمال الغز ، وتمتد غربا حتى نهر (الفولجا) أو نهر (قاما) وكان (قاما) فى نظرهم هو المجرى الأعلى لنهر (ايديل) ٠

ويتكون شعب الكيماك، من عدة قبائل من بينهم القبجاق وأمك Eimek ويرى ماركارت أن الكيماك يتكونون من قبيلتين ، وذهب الى أن كلمة كيماك تتكون من كلمتى (ايكى + ايماك) وهو فرض غير موفق ٠

وأما محمود الكشغرى فلم يذكر كيماك ، ولكنه ذكر أن قوم أمك يقطنون على ضفاف ايرتيش وأنهم جيل من القبجاق ٠

وفيما بعد كان شعب (قانقلى) يذكر دائما مع شعب القبجاق ، ولكن محمود الكشغرى يذكر كلمة (قانقلى) على أنها اسم لأحد عظماء القبجاق لا على أنها اسم شعب ٠ ويقول أيضا ان كلمة قانقلى معناها (عربة) ٠ ويقرر كتاب المؤرخ الفارسى البيهقى أن القبجاق كانوا يحفون بحدود البلاد الاسلامية الواقعة فى جنوب بلادهم ، وأنهم كانوا جيرانا للخوارزميين ، وذلك قبل أن يؤلف محمود الكشغرى كتابه بزمان طويل ، وقد تحدث الكشغرى عن قوم من الترك يسمون (بولاق) أو (الكه بولاق) وقعوا أسارى فى يد القبجاق ، ثم استطاعوا ــ بقوة الله ــ أن يتخلصوا من الأسر ، ولا شك أن هذه الرواية تتعلق بحركات القبجاق نحو الجنوب ،

ونعتقد أن محمود الكشغرى يلمح هاهنـا ــ كما فعـل فى مواطن أخرى ــ الى حدث تاريخى ليتنا نحصل على معلومات مفصلة عنه ٠ ويحتمل أن يكون زحف الغز فى القرن الحادى عشر نحو الجنوب والغرب ، ناشئا عن ضغط القبجاق عليهم من الشمال ، وربما فسر لنا ذلك ما يرويه جغرافيو العرب من توطن الغز فى القرن العاشر بشبه جزيرة مانغيشلاق التى لم تكن مسكونة من قبل ، وقد ظل شـبه الجزيرة هـذا مهدا للتركمان حتى العصور المتأخرة الى أن اضطروا مؤخرا تحت ضغط القازاق الى الجلاء عنه ٠

وبعد الثورة الروسية ، ألحقت شبه جزيرة مانغيشلاق بقازاقستان ، ومما يؤكد التبدلات الاتنوغرافيه التى حدثت فى القرن الحادى عشر أن الصحراء التى كان جغرافيو العرب فى القرن العاشر يسمونها نسبة الى الغز (صحراء الغز) ، نسبت فى القرن الحادى عشر الى القبجاق فسـميت صحراء القبجاق (دشت قبجاق) ٠ وقد احتفظت (دشت قبجـاق) باسمها حتى بعد أن فقد القبجاق صفتهم كشعب مسـتقل ، ومثل ذلك عبارة (بحر الخزر) فقد ظلت تطلق عـلى هـذا البحر حتى بعـد انقراض الخـزر ، وقد بقى اسم (دشت قبجاق) مستعملا فى الكتب العلمية الاسلامية حتى العصور المتأخرة ، وورث القبجاق وشعب قاكلى وهو أوثق الشـعوب صلة بهم ــ الأراضى التى خلفها الغز فى حوض نهر سيحون بعـد هجرتهم ، والأراضى التى خلفهـا البجنك فى جنـوب روسيا ، بعد أن ضيق عليهم الغز فاتسعت بذلك بلاد القبجاق اتساعا كثيرا ، وكانت منطقـة السهوب الواقعة فى شـمال تلك البلاد الشاسعة ، داخلة فى ممالكهم (القبجاق) وخاضعة لهم كما أنها الآن داخله فى قازاقستان ، ولم تحدث بعد ذلك هجرات من الشمال، ومع أن القبجاق كانوا على صلة بالروس وبالأوروبيين الغربيين ، فان هؤلاء جميعا لم يعرفوا كلمـة (قبجاق) فكان الروس يسمونهم (بولووتسى) Polovtsy

والأوروبيون يسمونهم (قومان) Comans ولم ترد كلمة قومان فى المصادر الاسلامية فيما أعلم الا عند الادريسى (الذى حرر كتابه فى آوروبا فى القرن الثانى عشر) ، وعند من اخذوا عنه ٠

ومنذ وقت قريب وضع ماركارت عن ظهور القبجاق كتابا تجلى فيه علمه واقتداره ، وقد حاول فى هذا الكتاب أن يثبت أن شعب (قون) ـ وهو من شعوب الشرق الأقصى، وذكره بعض المؤلفين المسلمين ـ جزء من القبجاق وأنه معروف فى أوروبا الغربية تحت اسم (كونى Cuni) وعلى الرغم مما أورد ماركارت من أدلة ، فانى اعتقد أنه لم يوفق لا فى ذكر الهجرة ولا حتى فى اثبات وجود هذا الشعب ، وقد ذكر الكرديزى قوما يسمون (فورى) ، يعيشون فى نفس المكان الذى يعيش فيه شعب (قون) أى الى الشرق من بلاد القيرغيز، وكان قوم فورى أقل حضارة من القرغيز ، ويحتمل أن تكون كلمة (فورى) هى كلمة (بورى) بمعنى الذئب فى اللغة التركية ، وترد كلمة (فورى) بدلا من كلمة (قون) فى كثير من مخطوطات الكتب التى رجع اليها ماركارت وخاصة كتب البيرونى وعوفى ، ولذلك يجب أن نرجح استعمال كلمة (قونى) ٠

وأما المحاولات التى بذلها ماركارت ـ مستندا الى بعض المصادر الصينية ـ ليثبت أن القبجاق كانت لهم فى القرن الثانى عشر أسرة حاكمة جاءت اليهم من الشرق الاقصى ، فليس فيها ما يقنع ٠

وتعتبر حالة القبجاق مثلا نادرا ، وذلك من حيث انهم يشغلون أقاليم واسعة ، دون أن تكون لهم وحدة سياسية ، ودون أن يؤسسوا لأنفسهم دولة ، نعم ، كان خاناتهم كثيرين، ولكن كان كل منهم على حدة ، ولم يحدث أبدا أن خضع القبجاق كلهم لخان واحد ٠ وكانت البلاد التى يشغلونها فى ذلك الزمان خارجة عن حدود العالم الاسلامى ، وفى القرن

الثانى عشر اشتركوا فى قافقاسيا ، فى الغارات ضد المسلمين ، واحيانا كان يحدث العكس فيتحد المسلمون والكرج لصد هجمات القبجاق الآتية من الشمال ، ولم تكن هذه الغارات تهدف فقط الى السلب والنهب ، بل كان يقصد بها الفتح ، وقد فقد المسلمون لمدة محدودة (دربند) ومنطقة (شابه ران) والمدينة التى تحمل نفس الاسم (وكانت تقع فى جنوب دربند) ولكن المسلمين ـ استطاعوا بمساعدة الكرج ـ استرداد هذه الأماكن ، وقد ذكر الروس بين الأعداء الذين أغاروا على الأراضى الاسلامية من الشمال سنة ١١٧٥ ٠

ولكن كتب الحوليات الروسية لم تشر الى شىء من هذا ، ولابد أن يكون هؤلاء الروس محاربين أحرارا ، لم يشترك معهم الأمراء الذين كانوا يحمون روسيا فى ذلك الوقت ٠

حضارة الغز

وكان خانات القبجاق ـ وهم لا يزالون فى جنوب روسيا ـ يستخدمون أصحاب المدنية الاسلامية ولا سيما المتخصصين فى الشئون العسكرية ، ومع هذا فقد كانت هناك امارات قبجاقية غير مسلمة على الحدود القريبة للبلاد الاسلامية ، وكانت تشتمل أحيانا على بعض المدن ، وكانت مدينة سوغناق [وهى الآن عبارة عن خرائب (سوتاق ـ قورغان)] عاصمة لامارة قبجاقية بينها وبين الخوارزميين علاقات ، وقد ذكر محمود الكشغرى هذه المدينة بوصفها احدى بلاد الغز ، وتصرح المصادر الاسلامية بأن شعبى القبجاق وقاكلى القاطنين فى تلك الجهات [كثيرا ما يذكر شعب قاكلى مع شعب القبجاق حتى انه ليصعب التفرقة بينهما] قد أسلموا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر نتيجة لصلاتهم الوثيقة بالخوارزميين ، ومعنى هذا أن دخول كتلة الشعب التركية التى كانت تقطن صحراء القازاق الحالية فى الاسلام فى صفر سنة ٤٣٥ هجرية (آخر سبتمبر أو أول أكتوبر سنة ١٠٤٣) لم يكن له أثر فيما بعد فى نشر

الاسلام فى صحارى (القبجاق) ٠ (ولا اعلم مصدرا أقدم من ابن الاثير أكد دخول هذه الكتل التركيــة فى الاســلام) وكما لم يذكر ابن الأثير اسم الشعب التركى الذى دخل فى الاسلام سنة ٩٦٠ فكذلك لم يذكر اسم هذا الاخير ، واكتفى بذكر المجال الذى كان يزاول فيه رحلاته فى الشتاء والصيف، ففى الشتاء كان يقيم فى نواحي (بالاساغون) وفى الصيف كان يرحل حتى يصل نهر (ايديل) = (فولجا) ، ومع عظم هذا المجال الذى يتجول فيه هذا الشــعب ، فلابد أن يكــون عدده أقل من عدد الشعب الآخر الذى أسلم سنة ٩٦٠ ، ذلك أن ابن الأثير قدره بعشرة آلاف خيمة ، ثم قدره بعــد ذلك أبو الفدا بخمسة آلاف (أسرة) فقط ، ولا يدلنــا كتــاب الكشغرى ، على المدى الذى وصل اليه تأثير الاسلام ناحيــة الشمال الغربى ، وعلى العموم فلا يمــكن أن نحــدد الأماكن ولا الأقوام التى يروى الكشــغرى من أشــعارها الشــعبية والفنية ، والتى يتحدث عن عقائدها الدينية ، وعاداتهــا ، ونظمها فى ادارة الحكم ٠ وترجع هذه الأشعار الى أماكن مختلفة ، ومن بينها منظومات خاصة بالصراع بين مدينــة (قاتون سيتى) وشعب التانكوت ومنظومات تصف نصــف نهر ايديل ٠

ان ميــاه ايديل تتــدفق

وتصــــطدم بالصــــخر

وبفيضانه زاد السمك والضفادع

وعدا الشعر الشعبى ، فهناك أشعار الصنعة ، ومن بينها أشعار خاصة بالبلاط ، وفى احداها يسمى الشاعر نفســه (خادم الخاتون) أى زوجة الملك ويقول انه بهــذه الصــفة قد نظم قصيدته ، وهذا النوع من الشعر يسمى (قوشوق) أى قصيدة ، ويوجد نوع آخر له وزن غــير وزن القوشــوق ويسمى تويوق ، وهى كلمة لم يذكرها محمود الكشــغرى ،

اذ لم يذكر الا كلمة (جوجو) [بالجيم المعطشة] أو (جوجو) [بالجيم المصرية] واكتفى بأن يقول انها اسم شاعر ولم يذكر فى أى قوم نشأ هذا الشاعر ، ولا أين ومتى عاش .

وكما أن الثقافة الايرانية لم تستطع القضاء دفعة واحدة على الشعر التركى القديم ، فكذلك لم يمح دخول الأتراك فى الاسلام معتقداتهم القديمة بسرعة .

وظل الترك يعتقدون فى الالهة (أوماى) المذكورة فى نقوش اورخون ، فقد كانت ــ كما يروى الكشغرى ــ روحا يحفظ الأجنة فى بطون أمهاتها ، بل كان عند الترك مثل معناه (من يخدم أوماى يرزق ولدا) ، وفى نفس الكتاب ترد كلمة (يوغ) وهى اصطلاح قديم ومعناه (ذكرى الموتى) .

وكانت هذه الكلمة تطلق كذلك على المأدب التى تقدم للأهالى لمدة ثلاثة أيام أو سبعة بعد دفن الميت ، وكانوا يعتقدون أنه اذا قامت الحرب بين فريقين ، فان الجن الذين يسكنون فى مواضع أحد الفريقين يحاربون الجن المقيمين فى مواضع الفريق الآخر ، وذلك قبل أن يشتبك الفريقان بيوم ، ومن هنا فقد كان المحاربين لا يغادرون خيامهم ليلة القتال خوفا من أن تصيبهم سهام الجن ، وكان عساكر الجن هؤلاء يسمون (جاوى) وكان يعتقد أن نتيجة معركة الجن هى التى تحدد نتيجة القتال .

وكانوا اذا ولد طفل سألوا (بوريمى ؟ تيلكيمى ؟) أى أذئب ؟ أم ثعلب ؟ وذلك بدلا من أن يقولوا : ولد أم بنت .

ومن التفصيلات الخاصة بادارة الدولة أنهم كانوا يعدون العلامات المادية للخان الحاكم ومن هذه العلامات التوغ والبيرق ، وكان الخان يستطيع أن يملك تسعة بيارق . واذا لقب خان (بصاحب الطوغات التسعة) فمعنى ذلك أنه من أقوى الخانات .

وترد كذلك بعض التفصيلات عن ملوك الترك غير المسلمين وهم ملوك الاويغور فيقال فى شرح كلمة (قامدو) انها اسم لقطعة من قماش قطني طولها أربعة أذرع (منران) وعرضها شبر ، يطبع عليها ختم الخان وتستعمل مقياسا فى البيع والشراء ، وكانت هذه القطع ترقع وتنظف ويعاد طبع الختم عليها مرة كل سبعة أعوام • أما استعمال هذه القطع القطنية بدلا من العملة ، فقد ظل جاريا ومعروفا فى تركستان الصينية حتى العهود الأخيرة • وفى كتاب الكشغرى تظهر أحيانا الفروق بين اصطلاحات الحكم عند القراخانيين وعند الغز أى أحفاد سلجوق ، فقد كان اصطلاح يارليق مثلا مستعملا عند (جيكيل) (الكشغرى ج ٣ ص ٣١) •

وقد استعمل فيما بعد عند (المغول) ولكنه لم يكن معروفا عند الغز ، ومن جهة آخرى كان عند الغز اصطلاح (طغراج) ومعناه الختم وطابع الختم • وقد قال الكشغرى عن هذه الكلمة : لا يعرفها الترك ، وأنا أيضا لا أعرف أصلها ، ومع أن ابن المهنا قد ذكر اصطلاحي : طغرا ويارليق فى صحيفة واحدة ، فمن المعروف أن اصطلاح (طغرا) لم يستعمله مؤخرا الا السلاجقة ، وأخذه عنهم العثمانيون ولكنه لم يكن معروفا عند أتراك آسيا الوسطى ، وان لمشكلة منشأ هذا الاصطلاح الحضارى الذى جاء به الغز من آسيا والذى لا يعرفه غيرهم من الترك أهمية كبرى عند المؤرخين •

وفى المحاضرة التالية سنتناول علاقات الترك الثقافية بالشرق والغرب قبل الغزو المغولى ، وسنعالجها كذلك من نواح أخرى •

المحاضرة السابعة

القراخطاى والحضارة التركية فى كاشغر

يتحدث الكشغرى عن الصراع بين القراخانيين وبين قوم (ياباقو) فى الشمال (وقد اختفى اسم هؤلاء من التاريخ فيما بعد) وبينهم وبين الأويغور فى الشرق ولكنه لم يتناول صراعهم مع الخطاى ، مع أن الحروب بين الخطاى الذين كانوا يحكمون وقتذاك فى الشرق الأقصى وبين القراخانيين ، بدأت منذ النصف الأول من القرن العاشر • وقد رأينا أن الصين مازالت تسمى فى الاستعمال الجارى عند الروس والمغول ، وعند بعض المسلمين باسم هذا الشعب قيطاى (خطاى) وذلك رغم أن حكمهم فى الصين قد انتهى منذ القرن الثانى عشر ، بل يحتمل أن يكونوا هم ولغتهم قد انقرضوا ابان الحكم المغولى ، وكانوا ــ وهم يحكمون الصين ، يسمون أسرتهم (ليائو Leao) وبهذا الاسم عرفوا فى التاريخ الصينى ، ولكن المصادر الاسلامية لم تستعمل هذا الاسم ، فقد كان المؤرخون المسلمون يطلقون عليهم اسم (ختاى) وأحيانا (خطاى) بالطاء •

وقد وردت هذه الصيغة غير مرة فى كتاب الكشغرى نفسه ، وبعد أن تحكم أباطرة أسرة ليائو فى شمال الصين ، فتحوا بلاد المغول ، وهنا التقوا فى سنة ٩٢٤ بالتجار المسلمين، وقد انفردت المصادر الصينية بتناول هذا الالتقاء ، فأما المصادر الاسلامية ، فخالية تماما من ذكره وطرد الخطاى القرغيز من منغوليا ، ولابد أن يكون هؤلاء القرغيز قد

عادوا الى حوض الينيسي ، فقد كانوا في العهود التالية يسكنون هناك • وكذلك خضع الأويغور وهم حكام منغوليا القدامي للخطاى وكانوا حين خضعوا لهم يسكنون تركستان الشرقية ، وقد عرض عليهم الخطاى العودة الى منغوليا ، ولكنهم لم يستجيبوا لهذه الدعوة ، فقد كانوا تعودوا — فى تركستان — على الحياة الزراعية ، وعلى حياة الحضر •

وقد تحدث المؤرخون الذين كتبوا بالعربية عن الغارات التى كانت تتعرض لها بلاد القراخانيين من ناحية الشرق ، وذكروا أن المغيرين هم الخطاى • ذكر ذلك كثير من المؤرخين أولهم العتبى المعاصر للسلطان محمود الغزنوى ، ولو كانت هذه الغارات غزوات حربية لما أغفلتها المصادر الصينية التى تتحدث عن تاريخ أسرة ليائو • ولكن هذه المصادر قد خلت من الاشارة الى أية عملية حربية فى اتجاه الغرب • ويحتمل كثيرا ألا يكون أصحاب هذه الغارات هم الخطاى أنفسهم ، ولكن القبائل المغولية التى يدفعها الخطاى الى الهجرة ، والتى سكنت فى أول الأمر شرقى منغوليا ثم غربها ، ويؤيد هذا الظن كتاب ارسله قس نسطورى فى آسيا الوسطى الى الجاثلين فى بغداد ، تحدث فى هذا الكتاب عن هجوم قام به قوم منقسمون الى ثمانى قبائل • ومن المحتمل أن يكون هؤلاء المغول المسمون (نايمان) وكانوا — فى عهد جنكيزخان — يسكنون الجزء الغربى من منغوليا ومعروف أن كلمة (نايمان) بالمغولية بمعنى (ثمانية) وفى الكتاب أن القوم المهاجم كان منقسما الى ثمانى قبائل •

وكانت أسرة (ليائو) هذه أكثر الأسر الأجنبية التى حكمت الصين تمثلا للحضارة الصينية ، وقد اضطر آخر أعضائها الى مغادرة الصين بعد أن قوى فى منشوريا شعب (جور — جين Djur — Djin) ، المسمى فى المصادر الاسلامية (جرجى) وهو شعب ينتمى أصلا الى التونغوز ، ففى سنة ١١٢٥ أسقط شعب جرجى أسرة ليائو ، وحل محلها فى

شمال الصين ، وأسس الاسرة المسماة بالتركية (ألتون خان)
وبالصينية (تسزين) وبالمغولية (آلتان خان) ٠

ولما هاجر أخر ملوك أسرة ليائو = الخيطاى الى الغرب لم يتبعه الا جزء من شعبه ، وبقى الجزء الأكبر فى الصين ، وخضع لحكم الـ (جرجى) فلما قوى جنكيز خان ، وحاربهم، أعلن شعب ليائو الثورة على جورجى ، وقد درج المؤرخون المسلمون على اطلاق اسم (قاراخيطاى) على كل الخطاى سواء منهم من هاجر الى الغرب ومن بقى فى الصين وخضع لحكم الجورجى ٠

هجرة الخطاى نحو الغرب

واذا قسنا معلومات المصادر الاسلامية ، عن هجرة الخطاى نحو الغرب بمعلومات المصادر الصينية عن نفس الموضوع ، تبين أن الأولى أوضح وأكثر تفصيلا ، ذلك أن الصينيين اقتصروا على ذكر الهجرة التي قام بها الخطاى نحو تركستان تحت رياسة أخى آخر ملوكهم ، وقد مروا أثناء الطريق ببلاد الأويغور حيث وجدوا منهم العون ٠

وتنفرد المصادر الاسلامية بالقول بأن عاقبة هذه الهجرة كانت سيئة ، فقد بطش بهم خان كشغر ، وكتب السلطان سنجر السلجوقى بذلك الى الخليفة فى بغداد ولكن جزءا اخر من الخطاى ، نجح فى هجرته وهو القسم الذى كان طريقه أبعد قليلا الى الشمال ، والذى اجتاز غرب منغوليا ، فمع أنه تعرض لهجمات القيرغيز القاطنين فى أعالى نهر ينيسى ، فقد استطاع الافلات من قبضتهم ، وذلك بأن اتجه قليلا الى الجنوب الغربى ٠ وهناك بنى هذا القسم المدينة المسماة (أميل) التى تقع الى جوار جو كوجاك الحالية ، والتى دارت فيها المعارك فى القرن الحادى عشر بين الياباقا والقراخانيين، ولابد أن تكون هذه المدينة ، قد ظلت فى القرن الثانى عشر — كما كانت فى القرن الحادى عشر — بعيدة عن دائرة التأثر بالاسلام ٠

وكانت منطقة بالاساعون ـ كما كانت من قبل ـ هى الطرف الشمالى للبلاد الاسلامية فى تلك الجهات ، وكانت تحت حكم امير قراخانى ، ومع أن الخطاى كانوا قد وصلوا فى أول امرهم الى نقطة تبعد عن بالاساغون مسيرة ثمانية ايام فقط فانهم طردوا من هذه النقطة ، ولكنهم حين عاودوا الكرة بعد مائة عام عجز القراخانيون عن صدهم، وساعدهم على النصر الخلاف بين خان بالاساغون ، وبين البدو الذين يعملون فى خدمته ، وقد انحاز الخطاى فى أول الامر الى الخان ، فلما انتصر عزلوه واستولوا على ولايته ، واتخذوا منها مقرا لرئيس حكومة القاراخيطاى، ثم بدءوا بعد ذلك غزواتهم فى اتجاه الشرق ، فأخضعوا مملكة كاشغر التى عجزوا عن فتحها من قبل (حين جاءوها من الشرق) . ثم وجهوا عساكرهم نحو الشمال الشرقى ليؤدبوا القيرغيز وهم أعداؤهم القدماء ، وخضع لهم كذلك الأويغور ، وفى سنة ١١٣٧ ، بدءوا يتدخلون فى شئون تركستان الغربية ، وانتهزوا أيضا فرصة الخلاف بين الخان وبين رؤساء القبائل ، ولكنهم انحازوا فى هذه المرة الى القبائل لا الى الخان . وغلب خان سمرقند بالقرب من خجند ، وفى سنة ١١٤١ هزموا السلطان سنجر فى صحراء قطوان شمال سمرقند ، وكان لهزيمة هذا السلطان القوى أمام الكفار أثرها عند معاصريه، فقد وصل عنها خبر غامض الى الصليبيين الذين كانوا يحاربون المسلمين فى ذلك الوقت فى فلسطين وشمال بلاد الجزيرة ، وراجت فى أوربا وقتذاك أسطورة خلاصتها أن ملكا قسيسا اسمه جان قام فى الشرق ليهاجم العالم الاسلامى ، متعاونا مع أبناء دينه الذين يحتلون الأراضى المقدسة والغالب أن تكون هذه الأسطورة انعكاسا لموقعة سنة ١١٤١ .

والواقع أن القاراخيطاى لم يذهبوا بعيدا بل وقفوا عند حدود جيحون ، ولكنهم مع ذلك استولوا بعد قليل على ولاية ومدينة بلخ الواقعتين جنوب هذا النهر ، ودخلت تحت

حكمهم كل البلاد الاسلاميه بتركستان ومن بينهما بخارى وخوارزم ، وكان حكام القاراخيطاى المقيمون بجوار بالاساغون يسمون عند المسلمين وعند المغول باسم كورخان. ولم يصادف هذا الاسم قبل القاراخيطاى ولا بعدهم ، ومازال أصله ومنشؤه لغزا لم يحل، ويقول المؤلفون المسلمون ان معناه (خان الخانات) ويحتمل أن يكون لفظ « كور » هو عين اللفظ المذكور فى نقوش أورخون وفى كتابى الكرديزى والكشغرى أو أن يكون أصله كول •

كان حكم هؤلاء « الكورخانات » مبسوطا على مساحات واسعة تمتد من خوارزم الى بلاد الأويغور ، ولكنهم لم يملكوا شيئا بالصين ومع هذا فيقول الصينيون — واسم القاراخيطاى عندهم (ليائو الغربيون) — انهم من ذرية امبراطور الصين ، وأضفى عليهم المؤرخون الصينيون — طبقا للأصول المتبعة عندهم — أسماء سنوات الملك ، وبيان ذلك ان الأسماء الشخصية لملوك الصين لا تذكر فى التاريخ ، ولكن يطلق اسم خاص على الفترة التى قضاها كل ملك ، وتعرف هذه الأسماء « بسنوات الملك » وبها تضبط الأحداث التاريخية ، ولذلك ظن من كتب عن الصين من الأجانب : المسلمين والأوروبيين أن الاسم المطلق على فترة الملك هو الاسم الشخصى للملك ، واعتبار القاراخيطاى — وهم غير صينيين ، وليس لهم حكم بالصين — من سلالة امبراطور الصين أمر فذ ليس له ثان فى تاريخ الصين ، فحين أخرج المغول من الصين فى القرن الرابع عشر ألغى اسم أسرة يوان — وهى أسرة أبناء جنكيز التى كانت تحكم الصين — ولم يفكر الصينيون فى اعلان أسماء خاصة على فترات حكم هؤلاء المغول بعد عودتهم الى منغوليا •

ويدلنا الاستثناء الذى خص به القاراخيطاى على مدى تمثلهم لحضارة الصين، مما جعل الصينيين لا يعتبرونهم أجانب وافدين عليهم من الخارج •

دولة القراخيطاى

ونستطيع أن نقول ــ استنادا الى المعلومات القليلة التى تمدنا بها المصادر الاسلامية عن حكومة الكورخانات ــ انهم كانوا ــ بعد خروجهم من الصين وتوطنهم فى تركستان ــ يستعملون اللغة الصينية لغــة رســمية ، وأنهم حملوا معهم أصول الادارة من الصين ، فكانوا يطلقون على الصهر الكلمه الصينيــة (فــامو) ــ وكــانوا يسمون العــلامة المميزة للموظفين (بايزا) وقد استعمل المغول هــذه الكلمة فيما بعد . وتتميز دولة القاراخيطاى على غيرها من دول البدو بأنها لم تعرف الانقســام حتى ليقال عن أول كورخان انه (لم يرئس أحدا على أكثر من مائة فارس) .

ومع ذلك ، فقد كان مبدأ الحكم الذاتى مطبقا على نطاق واسع فى الامارات الداخلية فى ملكهم ، ولم يشذ عن هــذه القاعدة الا بالاساغون ، فهناك ألغى الكورخان حكم الخــان القراخانى وتولى بنفسه الحــكم ، ولــكن المدينة بقيت حتى بعد ذلك بزمان طويل ــ مسلمة ، وظل الخانات القراخانيون فى البلاد الأخرى المفتوحة مثــل كاشــغر وما وراء النهر ، يزاولون الحكم ويصرفون الأمور كسابق عهدهم ، وعنــد الخوارزميين فى الغرب والأويغور فى الشرق كانت الأسرة الحــاكمة القــديمة هى التى تتــولى الحــكم ، وكانت اطاعة الكورخان عبارة عن دفع الجزية له ، ومع هــذا فقــد كان للكورخان ممثل فى عواصم الولايات المتمتعة بالحكم الذاتى ، وكان هذا المظهر من مظاهر التبعية يتغير أحيانا فيأخذ شكلا لا يخلو من الحظوة ، فكان ممثل الكورخان لا يذهب الى مقر الخان الا لأخذ الجزية ، فاذا أخذها انصرف ، وكان الخــان أحيانا يحظى بحق احضــار الجزية بنفسه الى الكورخان ، وكانت الجزية عند القاراخيطاى (مثلهــا عنــد الصينيين) تدفع عن كل بيت على حدة فكانوا يأخذون دينارا ، أى قطعة ذهب عن كل بيت ، وهذا النظام مغاير للتقاليد الاسلامية ،

ولعادات البدو على السواء ، وقد حاول المغول فى عهود مختلفة بالصين ان ياخدوا الجزية عن كل شخص ، ولكن الموظفين الصينيين قاوموا هذه القاعدة بشدة ، ولم تختف قاعدة القاراخيطاى وهى فرض الضريبة على البيت كوحدة دون أن تترك آثرها فى اسيا الوسطى ، فقد كانت لاتزال موجودة فى امارات تلك المنطقة حتى القرن التاسع عشر ٠

ففى عهد خانات خوقند كانت الضريبة تؤخذ فى طشقند عن كل بيت ، وكانت تجبى على أساس دفتر قديم أعد ، وعدد المنازل قليل ، وكانت الضريبة فى عهد خانات خوقند (طلا) أى قطعة ذهب عن كل بيت مثلها فى عهد القاراخيطاى فى القرن الثانى عشر ولكننا — مع الأسف — لا نعرف النظام الضرائبى فى الفترة بين القرنين الثانى عشر والتاسع عشر ، ولذلك فلا نستطيع أن نربط تاريخيا بين هذا النظام فى عهد كورخانات القاراخيطاى وعهد خانات خوقند ، وربما كان هذا التشابه من باب الصدفة المحضة ٠

والان ، فلا تزال بين أيدينا مسألة لم تحل ، لقد قامت للقاراخيطاى فى آسيا الوسطى دولة أخذت طابعها الحضارى من الشرق الأقصى ، فكيف كان تأثير هذه الدولة على مسلمى آسيا الوسطى بوجه عام وعلى الأتراك بوجه خاص ؟

لقد تناول ماركارت هذه المسألة وغيرها من المسائل فى كتابه المدون [أصل القومان] Das Volkstum der Komenen حيث عنى عناية خاصة بدولة الكورخانات، وهو يرى ان دولة القاراخيطاى كانت وحدها المتمدنة طوال فترة الانحلال الحضارى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولكنه لا يؤيد رأيه بأى دليل ، ومن الواضح أن رأيه هذا ناتج عن موقفه السلبى ازاء الاسلام والأتراك بوجه عام ٠ ولعل اول ما نلاحظه عن حياة [أسرة ليائو الغربيين] أنها كانت تكده ، ثم كانت بمنأى عن القلاقل التى يسببها وجود القبائل ، ووجود النظام الاقطاعى ، وهى القلاقل التى كانت تصم

الدول الاسلامية والدول البدوية المعاصرة ، لكن حكومتها ـ في مقابل ذلك ـ كانت تقع أحيانا في أيدى النساء وعشاقهن كما كان يحدث فى الصين ، وحدث أن قتلت احدى هؤلاء النساء الحاكمات عاشقها ، قتلته بيديها على ملأ من الناس لأنه أساء التصرف وأغضب الشعب فرأت أن تقتله قبل أن تستيقظ الفتنة • وليس بين أيدينا دليل على أن الكورخانيين كانوا يحاولون رفع المستوى الحضارى لشعبهم •

فلئن كانوا قد نزعوا السلاح من أيدى القارلوق (التابعين للقراخانيين) على أثر ثورة قاموا بها ، وحاولوا أن ينشئوهم تنشئة زراعية ، فان هذه التجربة لم تنجح ، واضطر القراخانيون بعد مدة قصيرة الى التنكيل برؤساء القارلوق •

ومن المشكوك فيه أن يكون الكورخانات قد استطاعوا فى وقت ما اقرار الأمن والسلام فى داخل بلادهم وخارجها ، فمع أن بلاد خوارزم كانت خاضعة للكورخان، الا أنها لم تلق آية معونة حين هاجمها السلطان سنجر السلجوقى بعد أن أفاق من هزيمته الأولى ، وليست لدينا معلومات عن تدخل الكورخانات أثناء الفتن الأخرى التى حدثت فى تركستان ، والخلاصة أن القاراخيطاى لم يكونوا يمثلون الحضارة العليا فى تركستان ، بل كان وزير آخر كورخان رجلا يدعى « محمود باى » وهو فى الغالب تاجر مسلم ، دلالة على أن ممثلى الحضارة الاسلامية كانوا يحتلون عند الكورخانات منزلة عالية •

ومع هذا، فقد كان قيام دولة القاراخيطاى سببا في التقدم الحضارى ، لأنه أعان على التقريب بين العناصر الحضارية المختلفة المتعايشة تحت ظلهم ، ومن المحتمل أن يكون وجود ولايات اسلامية تحت حكم أمير غير مسلم قد سبب انتشار العناصر الحضارية غير المسلمة نحو الغرب ، ولم يتضح حتى الآن السبب فى وجود آثار مسيحية باللبسانين السريانى

والتركى فى ولاية « يدى سو » بحوض نهر جو وبينما يرجع الجزء الأكبر من هـذه النقـوش وهـو الموجود حول بحيرة « ايسيق كول » وفى حوض نهر ايله الى القرن الرابع عشر ، أى الى العهد المغولى ، فان النقوش الموجودة بحوض نهر جو ترجع الى أوائل القـرن الثـالث عشر ، أى الى عهـد كان القاراخيطاى مازالوا فيه يحكمون · ويرى (كاكوفتسوف) Kokovkov عضو الاكاديمية الروسية الذى قام بمضاهاة الآثار المسيحية بولاية يدى صو بالآثار المسيحية فى ولاية طورفان ــ أن المسيحيين فى طورفان كانوا أعلى مدنية وثقافة من المسيحيين فى « يدى صـو » ورأى ــ فى مسـألة التأثير المتبادل بين مسيحيى تلك المنطقة ــ ان هذا التأثير كان يتجه من الشرق الى الغرب · أى من طورفان الى يدى صو وليس العكس ، وقد استطاع الأويغور البـوذيون كمـا اسـتطاع المسيحيون منهم ــ أن ينشروا نفوذهم نحو الغرب ، ومع أنه لا توجد اشارة الى نفوذ الأويغور فى عهد القاراخيطاى، فان السائح روبروق قد رأى البوذيين من الأويغور فى مدينـة « قاياليق » شمال نهر ايلة ، وذلك فى سنة ١٢٥٣ أى أوائل عهد المغول ·

ويحتمل أن يكونوا قد وفدوا على هـذا المكان وتوطنوا فيه أثناء حكم القاراخيطاى ، ومع أننا لا نملك الدليل على ذلك ، فاننا نعلم أن الترويج المسيحى كان نشيطا طـوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، ونعلم أن كثيرا من الأقوام المغولية قد قبلوا الدين المسـيحى فى ذلك الـوقت ، وترى المصادر الاسلامية ــ لا المسيحية وحدها ــ أن قبائل (نايمان) فى غرب منغوليا ، والكرايت فى شرقها كانوا مسـيحيين ، ويمكن أن يستنتج من أبحـاث الأسـتاذ بليـو أن الأنغون القاطنين فى جنوب منغوليا المتاخمـة للصـين كانوا كذلك مسيحيين ، وقد التقى جنكيز خان فى بلاد نايمان (بحامل الأختام) = «تامغاجى» وكان أويغوريا فأخذ عنه جنكيزخان الأبجدية الأويغورية ، أى أنه يمكن القول بأن الأويغوريين

كانوا يشتركون في الترويج للمسيحية ! والواقع أن القواعد المتبعة فى نقوش أورخون وفى الوثائق الأويغورية مستعملة على شواهد القبور المسيحية في يدى صو ، حيث نجد عبارة « واحد وعشرين » مستعملة بدلا من عبارة « أحـد عشر » وهو دليل على أن نصارى يدى صـو كانـوا من الأويغور ، وكانت قصـبة « بولاييق » فى شرق طـورفان هى مركزهم الرئيسى ٠

وكانت كل النقوش التى وجدت هناك مسيحية مكتوبة بالسريانية والصغدية والتركية ، ومن الفروق بين مسيحيى يدى صو ومسيحيى الأويغور أن الأولين كانوا يستعملون على قبورهم أبجدية سريانية الأصل ، أضافوا اليها بعض العلامات ولم يستعملوا الأبجدية الأويغورية المشـتقة من الأبجـدية الصغدية ٠

التجار المسلمون ونشر الاسلام

والظاهر أن التبشـير كان يمضى جنبـا الى جنب مع النشاط التجارى ، فالروايات السريانية تقـول فى حـديث تنصر الكرايت ان خانهم أخذ المسيحية أول الأمر عن التجار المسيحيين ، واذا كان فى مسألة التبشير هذه ما يلفت النظر فهو أن التجار المسلمين ــ مع انعدام الاشارة الى نشاطهم فى منغوليا ــ استطاعوا أن يرفعوا المستوى الحضارى هنـاك ، بأكثر مما استطاع المسيحيون ، وقد أخذ المغول عن الترك كلمة «صارت» بمعنى تاجر ، وكما اشتقت كلمة (صوغداق) من كلمة (صوغد) اشتقت كذلك كلمة (صارتاق) من كلمة (صارت) وأصبحت فى منغوليا علما على قوم ينجبون التجار وهم المسلمون الايرانيون ٠

ومن قواعد المغول اذا أرادوا أن يقولوا مثلا (رجال هذا الشعب) أن يذكروا اسم الشعب ثم يضيفوا اليه كلمـة (تاى) وهـكذا كانت كلمـة (صارتاقتاى) تستعمل فى منغوليا بمعنى رجال شعب صارتاق (أوصارت) ٠

ومما يطلعنا على مدى تاثير الايرانيين المسلمين فى منغوليا ، قصة المغول عن البطل الماهر الصناع (صارتاق) ، فقد أقام من أجل رى الأراضى أعمالا معجزة فوق الأنهار والبحيرات ، أى أننا يمكن أن نستنتج من ذلك أن المسلمين علموا المغول أصول الرى الصناعى ، ولم يكن المغول يطلقون كلمة صارتاق أو صارتاقتاى على أتباع قومية معينة فحسب ، بل كانوا يطلقونها أكثر من ذلك على صنف خاص من الحضارة • فكان جنكيزخان يطلقها مثلا على أول حاكم مسلم خضع له وهو الحاكم القارلوقى أرسلان خان أمير القسم الشمالى من يدى صو •

هذا مع أن لسان القارلوق كان التركية لا الفارسيه ، واشتق المغول من نفس كلمة (صارت) كلمة (صارتاغول) أو (صارتاول) وكانت جارية الاستعمال منذ عهد جنكيزخان، ثم ترجمها رشيد الدين فيما بعد بكلمة (تاجيك) وترجمها ابن المهنا بمعنى مسلم •

ويدل ظهور قصة صارتاقتاى ـ مع انعدام الاشارة الى نشاط التبشير فى منغوليا ـ على أن نجاح التجار المسلمين فى أعمالهم التجارية بمنغوليا ، لم يكن ناتجا عن انتشار الاسلام هناك (نجاح الأوربيين التجارى فى وقتنا هذا لا علاقة له أيضا بانتشار المسيحية أو عدم انتشارها) وكان الأغنياء من تجار المسلمين ، يشيدون فى العهد المغولى المدارس والخانقاهات ، ولم تكن بين علماء المسلمين وتجارهم رابطة أى رابطة ، بل كان العداء يستحكم بينهم أحيانا والفرق بين تجارة المسلمين قديما ، وتجارة الأوربيين الآن ، هى أن الأولى لم تكن فى أى وقت مرتبطة بالنجاح السياسى للبلاد الاسلامية ، وأن حدود الدويلات التى نشأت عن انقسام الامبراطورية الاسلامية الخاضعة للخليفة كانت كثيرة التغير ، بسبب تغير الأسرات الحاكمة ، ولذلك لم يجد الناس بدا من أن ينظموا حياتهم بحيث لا تتأثر بتغيير الحدود المستمر •

وفي العهد الساماني ــ كما قلنا من قبل ــ ظهرت بين الترك في الصحراء مستعمرات اسلامية لم يكن للسامانيين يد في ظهورها ، ولم تكن هذه المستعمرات خاضعة لهم ولكن للحكام المحليين من الأتراك ، وظهرت هناك شركات تجارية ، يتعامل بعضها مع بعض ، ومع أن بنوك التسليف من الطراز الحديث لم يكن لها وجود ، فقد كان من الممكن لمن يحمل سندا محررا في بلد ما أن يقبض قيمته في مدينة أخرى من قطر آخر ٠

ويروى في كتاب أبي شجاع مؤرخ القرن الحادى عشر أن الحوالة التي يعطيها التاجر كانت أسهل صرفا من الحوالة التي تعطيها الحكومة ٠ ولما كان التجار الايرانيون أكثر عددا من غيرهم فقد شاعت الكلمة التي يستعملونها للدلالة على الحوالة وهي كلمة « چك » ، شاعت بصيغتها الفارسية لا بصيغتها العربية « صك » ثم انتقلت الى غرب أوربا ، وعم استعمالها في عالم التجارة ، ولا شك أن الأتراك كانوا يشتركون في الأعمال التجارية بآسيا الوسطى ، وقد كانت كلمة « أورتاق » بمعنى شريك تستعمل عند المغول في العهود المتوالية ، وتدل هذه الكلمة على الدور المهم الذى اضطلعت به الشركات في تجارة ذلك الزمان ، ومع ورود هذه الكلمة في كتاب الكشغرى ، فانها لم تكن في عهده تؤدى معنى «تاجر» ولكن كانت تدل فقط على الشريك ، ومن هنا يمكن القول بأن الشركات التجارية عند الترك بدأت تتطور بعد القرن الحادى عشر ٠

ولما كانت الحضارة الاسلامية تشغل في ذلك الوقت المكان الأول بين الحضارات ، فقد كان أى صدام بينها وبين الحضارات الأخرى يؤدى في النهاية الى توسيع ساحتها ٠

ويختلف القارخيطاى عن المغول ، فقد وفد الأولون على آسيا الوسطى بعد أن أشربوا حضارة الصين ، ولذلك لم يستطيعوا أن يدخلوا في الاسلام ، ومع ذلك فان تبعية

المسلمين فى عهد القاراخطاى لحكام غير مسلمين ، أدت الى انتشار الدين الاسلامى فى دائرة أوسع ، (ومع هذا فقد كان انتشاره فى عهد القاراخطاى أضيق نطاقا فى عهد المغول فيما بعد) ٠

وكما لم يكن للاسلام فى زمان الكشغرى أراض شمال امارة بالاساغون ، فلم يكن له شىء أيضا أثناء ظهور القاراخطاى ٠ ولكن ولاية القارلوقى المسلم أرسلان خان ، ومدينة قاياليق ما لبثتا أن ظهرتا فى شمال منطقة يدى صو قبل مضى قرن على ظهور القاراخطاى ، أى قبيل ظهور المغول ٠ ولا يمكن الآن تحديد مكان قاياليق الا بطريقة تقريبية ، وقد مر السائح روبروق بهذه المدينة بعد قليل من عبوره نهر ايله فى طريقه الى بحيرة « آلاكول » ، ويروى روبروق بهذه المناسبة أنه كان يرى ــ على بعد ــ بحيرة « بالخاش » ، ومن هنا يمكن الظن بأن الطريق فى ذلك الوقت ، كان يمر بنقطة أقرب الى بحيرة بالخاش من طريق البريد الآن ، ولم تظهر مدينة قاياليق وحدها فى عهد القاراخطاى ، بل ظهرت أيضا « امارة قالوق » وكان خان القارلوق تابعا للكورخان ٠

ولم يذكر الكشغرى ولا قصص فتوحات القارخطاى مدينة « آلماليق » التى توجد خرائبها الآن فى شمال غرب مدينة « غولجة » ، ولم تكن هذه المدينة قبيل ظهور المغول فى قبضة الكورخان ، بل وقعت تحت حكم رئيس عصابة مناوئة له ، وكانت هذه العصابة تنتمى اما الى القارلوق ، واما الى أتراك قانكلى ، ويوجد هذا الخلاف فى النسب ، فى كل النسخ المخطوطة القديمة من (تاريخ جهانكشاى) للجوينى ، وهو المصدر الأساسى الوحيد لدراسة أحداث أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر ، ومهما يكن فقد كان حاكم آلماليق مسلما ٠

وفى أواخر عهد القاراخطاى ــ وهم غير مسلمين ــ كان لهم وزراء مسلمون وظهرت كذلك فى عهدهم ولايات اسلامية فى أماكن لم تكن مسلمة من قبل ، ومع هذا فقد

بقى انتشار الاسلام نحو الشرق بطيئا نسبيا ، لان الاويغور كانوا يحولون دون ذلك ، وفى عهد المغول كانت حدود البلاد الاسلامية الواقعة الى الشرق من مدينة (كـوجا) هى نفس الحدود فى عهد محمود الكشغرى، وقد وردت بخصوص كوجا رواية فريدة عن أحد أبطالها وهو خضر بك الذى ذاع صيته بعد انتصاره على الأويغور الذين كانوا يعدون فى ذلك الوقت أهل سلم وسلام لا قبل لهم بمواجهة الجنود الشجعان ، وقد أنعم خان كاشغر على خضربك بلقب (خان) مكافأة له على صد هجوم الأعداء ، وأما فى القسم الجنوبى من حوض نهر تاريم ، فقد تغير الوضع قليلا ، ففى عهـد الكشغرى كانت مدينة (جه رجه ن) هى حد بلاد الاسلام فى تلك المنطقة ، ولكن ماركو بولو حين مر بها فى القرن الثالث عشر ، كان سكان منطقة (لوب ـ نور) مسلمين ٠

الدور الذى لعبه الترك

ومن المسـائل التى مازالت معضلة ، مسـألة اشـتراك الترك فى حضارة آسيا الاسلامية : ما نوع هـذا الاشتراك ! والى آى مدى أسهموا فى تلك الحضارة ؟ لم يكن الترك فى أى مكان تابعين كلية لحضارة العرب والايرانيين ، ولم يحدث فى أى مكان أن تخلى الأتراك عن لسـانهم ، ومع هـذا فان تأثير المدنية العربية والايرانية على الترك كان من القـوة بحيث لم تستطع اللغة التركية فى أى مكان أن تصـبح لغـة رسمية أو لغة ثقافة ، فحتى القرن الثالث عشر كانت اللغة العربية لغة رسمية فى آسيا الصغرى ، وهى أقصى بلاد الترك من ناحيـة الغرب وقد أشـار الى ذلك كتاب فارسى مجهـول المؤلف ، حرر فى آسيا الصغرى فى القرن الرابع عشر ولقد كنت فى أول الأمر أشك فى صحة هذا الخبر ، ولكن النقوش الموجودة بالأناضـول كانت تكتب حتى القرن الثـالث عشر باللغة العربية كما لاحظ ماكس فون بلخم ، وفى ذلك من غير شك تعزيز لما ذهب اليه ذلك الكتاب ٠

ومما يؤيد تأثر السلاطين السلاجقة بقصص البطولة الايرانية ، تسميهم بأسماء من قبيل كينحسرو وكيقباد ، ومع هذا فقد تصادف عندهم أسماء تركية خالصة تدل على أنهم لم ينسوا أصلهم التركى ، ولم يكن وضع سلاجقة ايران يختلف عن ذلك ، فعندهم صارت الفارسية بالتدريج لغة الادارة ولغة الثقافة ، وحتى فى تركستان وهى تحت حكم القراخانيين ، كانت الفارسية تزاحم العربية ، فى ميدانى الادارة والأدب ، ومما يلفت النظر فى هذا الباب ما حدث لكتاب (تاريخ بخارى) ، فقد حرر هذا الكتاب فى عهد السامانيين ـ أى فى القرن العاشر باللغة العربية ، ثم ترجم فى القرن الثانى عشر الى الفارسية وقيل فى سبب ترجمته الى الفارسية ، ان الناس لم يكونوا يميلون فى ذلك الوقت لقراءة الكتب العربية وفقدت الكتب العربية منزلتها حتى فى تدريس العلوم الاسلامية ، وظهر أساتذة كانوا يلقون الدروس بالفارسية ، ثم بدأت هذه اللغة تستعمل فى التدريس للمبتدئين ، فيذكرون مثلا عن مجد الدين عبد الغافر المولود سنة ٤٥١ ، وصاحب ذيل تاريخ نيسابور ، أنه قرأ أصول الاسلام بالفارسية وهو فى الخامسة من عمره ، ومهما يكن فقد ظلت العربية لغة القضاء فى بلاد القراخانيين ، وفى ولاية كاشغر ، حتى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ومن بقايا ذلك وثيقة قانونية نشرتها فى مجلة مدرسة اللغات الشرقية بلندن ومعها ترجمتها الانجليزية ، وقد نشرت الترجمة التركية لهذه الوثيقة فى العدد الأول من (تركيات مجموعة سى) وهى ترجع الى عهد بغراخان الذى كان يحكم حين ألف فى كاشغر كتاب قوتا دغو بيليك · ومع ذلك فان الوثائق التى ترجع الى هذا العهد والى العهود التى تلته تدل على أن اللغة التركية فى عهد القراخانيين كانت الى حد ما لغة اصطلاحات ادارية ، ففى سمرقند مثلا ـ ولم يكن بين سكانها على الأرجح ناطقون بالتركية ـ كانت توجد كلمات تركية فى الاصطلاحات الحكومية ، فمثلا كانت تضاف الصفة

التركية (أولوغ) الى كلمة (ورين) ثم اضيفت نفس هذه الكلمة الى عبارة (سلطان السلاطين) التى نقشت على عملة خانات سمرقند فى نهاية القرن الثانى عشر ٠

وقد ظلت هذه الأسرة تستعمل الاسماء والالقاب التركيه حتى انقرضت ، وكان من عادة القراخانيين — اذا ولى الخان الملك آن يستبدل باسمه القديم لقبا جديدا يستعمل بدلا من اسمه الخاص ؛ وهي عادة عرفت عن خانات الغز الذين كانوا يحكمون قديما في منغوليا ، ومن هنا يصعب على المؤرخين عندما يجدون ألقابا مختلفة منقوشة على عملة سكت في وقت واحد ، وفي مكان واحد ، أن يعرفوا أترجع هذه الألقاب الى شخص واحد أم الى أشخاص مختلفين ، ولكن اللغة التركية مع هذا لم تكن فيما نعلم لغة الأدب في سمرقند ، فقد كان الشعراء الفرس يعيشون فى سراى الخان وكانوا موطن عنايته واحسانه ، وكان الانتاج الأدبى باللغة التركية أكثر امكانا فى كاشغر منه فى غيرها ورغم ذلك ، فان تأثير الأدب الفارسى كان آخذا فى القوة ، حتى لقد ألف هناك فى القرن السابع عشر كتاب تاريخى باللغة الفارسية ، ولكن كثرة الأخطاء النحوية فى هذا الكتاب تدل على أن مؤلفه لم يكن فارسى اللسان ، ولا معتادا على استعماله ٠

كتاب قوتادغو بيليك

ففى كاشغر ألف للخان وباللغة التركية كتاب أخلاقى هو كتاب قوتادغو بيليك وذلك فى سنة ٤٦٢ هـ « ١٠٦٩ — ١٠٧٠ » والمؤلف رجل من بالاساغون اسمه يوسف كان يعمل حاجبا فى السراى ، وأما معنى هذا العنوان التركى « قوتادغوبيليك » فهو « العلم الذى يسعد » أو « العلم اللائق بالملوك » ٠

فان كلمة (قوت) أى (البخت والسعادة) كانت تستعمل فى كل مكان وحتى فى مواضع كثيرة من كتاب قوتادغو بيليك ، أداة للتعظيم مثل عبارة (صاحب الفخامة) وكان من المألوف

قديما في الشرق ــ ومن جملته ايران ــ أن تؤلف الكتب الاخلاقية التعليمية للملوك وأصحاب المناصب ، ولكل الطبقات ، وأهم ما في هذه الكتب ما ترويه من الحكايات التاريخية والأسطورية التي يراد بها تأييد ما ترويه من النظريات الأخلاقية ، والنصائح ، ولكن كتاب يوسف البلاساغوني خال تماما من كل ذلك ، فليس به اسم واحد لشخص تاريخي وليس الملك « ايليك » الذي يتحدث عنه شخصا حقيقيا ، وانما هو رمز للعدالة وأما الفضائل الأخرى فيمثلها وزير ايليك وابنه وأخوه ، ولا شك أن كتاب قوتادغوبيليك أقل قيمة من الكتب الفارسية المكتوبة بنفس الأسلوب .

وقد أشير في مقدمة الكتاب الى أن الكتب كثيرة باللغتين العربية والفارسية بينما لا يوجد كتاب واحد باللغة التركية ، وتدل هذه الاشارة على أن الترك كانوا قد نسوا سريعا الكتب التركية البوذية والمانوية والمسيحية ، والظاهر أن الشعر التركي الاسلامي الذي اكتشف بفضل كتاب محمود الكشغري لم يستطع أن يكون سببا في ظهور كتب أدبية أخرى . هذا ولم يكن بد من أن يظهر الأدب التركي أول ما يظهر في كاشغر ، فقد كان أهلها كما يقول الكشغري يتحدثون أفصح لسان تركي وهو (التركي الخاقاني) ، بينما كان القرويون في نفس الولاية يتحدثون لغة (كنجاك) أي لغة السكان الأصليين الذين تتركوا فيما بعد ، ولم يكونوا أصلا من الترك .

والآن نتساءل : الى أي حد كان قوتادغوبيليك من حيث أسلوبه وطرز أدائه متصلا بالتقاليد التركية القديمة ، ثم ماذا كان أثره على معاصريه ؟

ان لهذا الكتاب ثلاث نسخ كتبت أولاها بالحروف الأويغورية في هراة سنة ١٤٣٩ وكتبت الآخريان بالحروف العربية ، وتوجد احداها في القاهرة ، والأخرى في فرغانة .

وأما الأبجدية التي سطر بها المؤلف كتابه أولاً وهل هي الأويغورية أم العربية ؟ فان ذلك مازال حتى الآن موضع جدل ، ولا شك في ان اسم الكتاب ، واستعمال كلمة (قوت) (بمعنى صاحب الجلالة) يدلان على أن أثر الاسلام ، وأثر ايران لم يكونا قويين في كاشغر ولم يستطيعا اخراج اللسان التركي من سراى الخان ٠

وفي العهد المغولي ـ أى بعد زمان قليل من تاليف الكتاب ـ كان اسمه « قوتادغو بيليك » مستعملا عند المغول ، كانوا يطلقونه على مجموعة من الحكم تنسب الى جنكيزخان ، وكانت تعتبر ـ مثلها كمثل الياسا ـ مصدرا للقوانين المطبقة في امبراطورية المغول ، ثم في الدويلات التي قامت على أنقاضها ، ويرى من كلام ابن عربشاه وهو من رجال القرن الخامس عشر ، أن كلمة قوتادغو كانت تستعمل عند المغول ، وكانت تعتبر كذلك اسما للأبجدية الأويغورية وقد أخطأ ابن عربشاه حين خلط بين كلمة « قوتادغو » وبين اسم القبيلة التي ينتمي اليها جنكيزخان ، فانه بدلا من أن يقرأها « قيات » قرأها « قتات » ، ويقول البعض ان قوتادغوبيليك بغراخان أثر على المغول من ناحية عنوانه على الأقل ، وأنه كان سببا في ظهور قوتادغوبيليك جنكيزخان ٠

ولكن ، لم يبق أدنى شك ـ بعد أن نشر كتاب الكشغرى ـ في أن رعايا القراخانيين من الترك ، لم يكونوا يسمون أنفسهم « أويغور » ، ولم يبق شك أيضا في ان يوسف البلاساغوني لم يحرر كتابه بالأويغورية ، وانه لمن المستحيل أن يكون الأويغور ـ وكانوا يحتفظون بالبوذية والنصرانية ـ قد تأثروا بقوتادغوبيليك مع سريان الروح الاسلامي في كل تفصيلاته ، وأن يكونوا قد أثروا بدورهم على المغول ، بهذا الكتاب الذى أخذوه عن القراخانيين المسلمين ٠

وقد كتب (قوتادغوبيليك) قبل أن يشرع محمود الكشغرى في تدوين كتابه بسنتين فقط ، فهل رآه الكشغرى

أم لم يره ؟ ان الكشغرى نفسه لم يجب عن هـذا السـؤال ، ولكنه يقول ان كتابه اللغوى ليس له نظير فيما كتب من قبل، ولم يكن المستشرق مارتن هارتمان يرى فروقا أساسية بين كتاب يوسف البلاساغوني وكتاب محمود الكشغرى ، وكان ينسب الأول الى أدب السراى ، والثاني الى الأدب الشعبى ، ولابد أن تكون هذه الدعوى خاطئة ، فقد رأينا من قبل أن من بين ما يورد الكشغرى من الأشعار أشعارا خاصة بالسراى، ورأينا من ناحية أخرى أن يوسف البلاساغوني قد أفاد ــ في نصائحه الأخلاقية ــ من الحكم أو الفلسفة الشعبية ، بل ان بعض الفقرات المتفرقة فى (قوتادغوبيليك) هى هى عينها نماذج الأدب الشعبى التى يدرجها محمود الكشغرى ، ولا شك أن من قرأ قوتادغوبيليك سيذكره فى الحال عندما يقرأ فى كتاب الكشغرى عبارة (اردم باشى تل) أى (رأى الحـكمة فى اللسان) ٠

ومما يدل على أن قوتادغوبيليك كان بعيد الصيت فى عهده (رغم أن نسخه التى كشفت حتى الآن قليلة العدد) ، أنه عثر فى مكان اسمه (سرايجق) بالقـرب من مصب نهر (يابيق) على زهرية من الفخار نقشت عليها أبيات منه ومنذ عهد قريب عثر فى تركيا على كتاب عنوانه (هبة الحقائق) أو (عيبة الحقائق) ونشر هناك ٠ ويتناول هذا الكتاب ــ وهو يرجع الى عهـد أحـدث من عهـد قوتادغوبيليك نفس الموضوع الذى يتناوله هذا الأخير ، فهو يحتوى على نصـائح أخلاقية عادية ليس بينها وبين وقائع الحيـاة الحقيقية أية علاقة ٠

ومؤلف هذا الكتاب هو أحمد بن محمد يوكناكى ، كتبه بلغة كاشغر وأهداه الى الأمير دادسبهسالاربك ٠ ويدل كشف هذا الكتاب على أن قوتادغوبيليك لم يكن نسيج وحده ، كما يدل على وجود عهد أدبى خاص فى الأدب التركى هو (العهد الكاشغرى) ولابد أن أثر هذا العهد كان ضعيفا جدا عـلى أدب العهود التى أعقبته ٠

التاثير الصينى

وكانت آثار الصلات الوثيقة القديمة بين الترك وحضارة الصين لا تزال حية فى ذلك الوقت ، ولم تكن قاصرة على استعمال لقب خان ، بل يفهم من كتاب الكشغرى آن القاراخطاى كانوا يستعملون على عهده كلمة (تايانكو) وهى اسم صينى يقابل الكلمة العربية (حاجب) ، ويقال أيضا أنه مشتق من المصدر التركى (ته يه نمه ك) بمعنى الاعتماد والائتمان ، وقد استطاعت كلمة (قونجوى) الواردة فى نقوش أورخون ، والمقابلة للكلمة العربية (أميرة) ، آن تواصل سيرها حتى زمان محمود الكشغرى ، ولكن كلمة (خاتون) كانت تدل فى ذلك الوقت على معنى اسمى من كلمة (قونجوى) .

ومن بين الكلمات الكثيرة الواردة فى كتاب الكشغرى والدالة على آثار الحضارة المادية كلمة (ألاتو) وهى كلمة مهمة يفسرها الكشغرى بقوله : قطعة حرير يمسك الرجل فى حجره (جيبه) لينظف بها أنفه (ديوان لغات الترك جـ ١ ص ١٢٢) .

ومن المعروف أن منديل الأنف لم يكن يستعمل فى العصور القديمة والمتوسطة لا عند اليونان القدماء ولا عند المسلمين ، ولكنه كان يستعمل منذ أقدم الأزمنة فى الصين واليابان ، ولم يستعمله الأوربيون الا فى القرن الخامس عشر ، بعد أن عرفت حضارة الشرق الأقصى .

ولكنه كان يستعمل قديما فى منغوليا ، ولابد أن يكون الترك قد استعملوا المنديل فى القرن الحادى عشر ، ثم بقى لهم فيما بقى من آثار حضارة الشرق الأقصى بعد أن تقلص نفوذها .

وكان مركز الأدب التركى الاسلامى بعد العهد الكشغرى هو الأماكن الواقعة جنوب نهر سيحون والتى تضم خوارزم، وسأبين فى المحاضرة القادمة أهمية هذه الأماكن فى تاريخ الترك .

المحـاضرة الثامنـة

علاقات الخوارزمشاهيه بالمغول

تتريك خوارزم

رأينا فيما تقـدم أن التجارة بين خوارزم وبين الأقوام البدوية فى آسيا الوسطى كانت أهم لخوارزم منها للولايات المتحضرة الأخرى ، وذلك بسبب وضعها الجغرافى ، وكان من الطبيعى أن يؤثر هذا الوضع نفسه على سـكان خوارزم من الناحية الأتنوغرافية واللغوية ، ويبدو أن هذا الأثر كان موجودا منذ كان جيران خوارزم بدوا من أصل ايرانى ·

ومما يجدر ذكره أن بعض العلماء حاول أن يرجع أصل الخوارزميين الى شعب (اللان Les alains) الذى كان يقطن فى الصحراء الممتدة من منابع سيحون الى منـابع نهر دون وبعد أن تتركت هذه الصحراء تعرض الخوارزميون أكثر من غيرهم للتأثر بالترك ، وقد كانت لغة الخوارزميين فى العصور الاسلامية الأولى لغة ايرانية ، وان لم تكن مفهومة عند باقى الايرانيين، ولم تكن لغة حديث وحسب ولكن كانت لغة أدبية ظلوا يكتبون بها حتى القرن الحادى عشر · ومهما يكن فان الكلمات التى توصف فى المعجمات الفارسية بأنها كلمـات خوارزمية ، هى فى جملتها كلمات تركية خالصة وبالاضافة الى هذا ، فقد ورد أن الخوارزميين فى القرن العاشر يشبهون الترك فى أزيائهم ·

ويقرر المؤلفون الذين كتبـوا عن خوارزم فى القـرن الثالث عشر ، أى فى العهد المغولى أنها كانت من حيث اللغة ــ تركية تماما ومعنى هذا أن الخوارزميين تتركوا فى الفترة بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ، وهى الفترة التى خضعت فى أثنائها للأمراء التابعين لسلاطين السلاجقة ، وكان هؤلاء الأمراء ــ عـلى نشأتهم التركيـة ــ يحتفظون باللقب

الايرانى القديم (خوارزمشاه) وقد تأسست دولة هؤلاء الخوارزميين فى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر وكانت أسماء أكثرهم تركية ٠

وفى عهدهم صارت خوارزم للمرة الأولى والاخيرة فى تاريخها مركزا لدولة كبيرة ، وكانوا ــ وهم لا يزالون تحت حكم السلاجقة ــ يسيطرون بالتدريج على القسم الشرقى من العالم الاسلامى ، حتى انهم لما انقرضت دولة السلاجقة أنكروا على خليفة بغداد أن يسترد سلطته الزمنية عليهم ، وكان قد فقدها مؤقتا فى منتصف القرن الثانى عشر ٠ وادعوا أنهم ورثوا كل ما كان للسلاجقة من حقوق بوصفهم (سلاطين الاسلام) ، بل طالب المتأخرون منهم بأن يعترف بسلطانهم فى بغداد كما كان معترفا بسلطان السلاجقة من قبل ٠

وكانت خوارزم فى ذلك الوقت متأثرة بالمدنيةالايرانية، وكان من بين الخوارزميين شعراء وعلماء يكتبون بالفارسية والى هذا فقد كانت لغة المعاملات الرسمية فى عهد الخوارزمشاهيه ولكنها ــ كما حدث فى الصغديانة ــ لم تحل غالبا محل لغة الخطاب عند جمهرة الشعب الخوارزمى ، بل بقيت اللغة الخوارزمية فى الغالب لغة الشعب الى أن تخلت عن مكانها فى نهاية الأمر للغة التركية ٠

ولابد أن تكون حركة التترك قد أدركت مبكرا المستعمرات الحضرية بحوض نهر سيحون ، وهى المستعمرات التى أقام الخوارزميون بعضها ، وأقام الصغد ــ فى الغالب ــ بعضها الآخر ، وآية هذا أنه وجدت هناك فى القرن الحادى عشر مدن يسكنها الترك : فيذكر الكشغرى من مدن الغز مدينة صاوران (كانت هذه المدينة التى مازالت موجودة الى الآن احدى مدن الحدود فى عهد السامانيين) ثم مدينة (صوغناق) ، (وكانت فى القرن الثانى عشر عاصمة لبلاد القبجاق غير المسلمين ، وتسمى خرائبها الآن صوناق قورغان) ٠

وفى الجنـوب الشرقى من (صـاوران) وبينهـا وبين فاراب او (آوترار) يذكر جغرافيو القرن العاشر مدينـة (شاوغار) وبالنظر الى المسافة المذكورة بكتب الجغرافيين يمكن القول بأن هذه المدينة كانت فى مكان مدينة (تركستان) الحالية ، ومع أن كلمة (شاوغار) كلمة ايرانية فانا لا نعلم أكان سكانها فى القرن العاشر تركا أم ايرانيين . وفى نص لابن حوقل أن الحملة التى قام بها نصر بن أحمد السـامانى (٩١٤ ــ ٩٤٣) على رأس ثلاثمائة ألف جنـدى (فى هـذا العدد مبالغة) ، كانت موجهة ضد هـذه المدينة ، فان صـح ذلك فانه يدل على أنها كانت عاصمة لحاكم قوى ، ولكن اسم هذه المدينة يرد فى نسـخ الاصطخرى ــ وهـو مصـدر ابن حوقل ــ بصـورة مغايرة تماما ، فمن أجـل ذلك ، وبما أن المصادر الأخرى لم تذكر شيئا عن هذه الحملة فان وجهة هذه الحملة مازالت محلا للسـؤال . وكانت توجـد فى حـوض سيحون مدينة أخرى باسم (شاوغار) تقع عـلى بعـد أربعة فراسخ (٢٤ كيلو) جنوبى مدينة (اوليا أتا) ، وأما عبارة السمعانى : (ناحية ثغور الترك) . (هذه العبارة منقولة من مصدر عن مصادر القرن الحادى عشر) ، وعبارة ياقوت (من بلاد الترك) (أخذها ياقوت عن عمرانى وهو من مؤلفى القرن الثانى عشر) فيمـكن اسنادهما الى كل من المدينتين اللتين تحملان اسما واحدا .

أحمـد اليسـوى

ولم يذكر السمعانى ولا ياقوت مدينة ياسى (Yasi) أو يه سى Yesi التى كانت تقع فى مدينة تركستان الحالية ، رغم أنها كانت موجودة فى القـرن الثـانى عشر حيث ذاع صيت أحمد اليسوى أو (الياساوى) الذى نشأ أو على الأقل عاش فيها ، ومات . وقد توفى اليسوى فى ٥٦٢ هـ (٧ ــ ١١٦٧) ، وفى رواية أخرى أن أحمـد اليسـوى نشأ فى صايرام . ولا يمكن أن يكـون المراد هو مدينـة صـايرام

الواقعة بشرق تركستان (لان هذه المدينة لم تكن وجدت فى ذلك العصر ، بل أنشئت فى القرن السادس عشر · انشأها المهاجرون من صايرام بغرب تركستان) بل الراجح انها صايرام الواقعة الى الشرق من جيمكه نت Tchimkent الحالية بغرب تركستان والمعروفة أيضا باسم (اسفيجاب) و (اق شهر) المذكورتين فى كتاب الكشغرى ·

ولابد أن يكون أحمد اليسوى الذى يلقبه الترك (آتايسوى) ذا أثر كبير فى نشر الاسلام والتصوف بينهم · وقد انتشرت أشعاره التركية المفعمة بالروح الصوفى بين الشعب ، ومازال الشعراء الشعبيون فى آسيا الوسطى يتأثرون خطاه حتى الآن ·

ولكن أشعاره هذه لم تصل لنا ــ بسبب شعبيتها ــ بشكلها الذى كتبت به أول مرة · وذلك أن النساخ الذين كتبوها كانوا يحورون لغة النسخةالأصلية بما يلائم عصرهم· وكانوا يضيفون اليها من عندهم · وأما ترجمة حياة أحمد اليسوى فلا نعرفها الا من الحكايات الخرافية المتأخرة ، وتروى هذه الحكايات أن سلف أحمد اليسوى ولى تركى اسمه (أرسلان بابا) أو (باب ارسلان) (من المعلوم أن كلمة باب كانت تطلق على المبشرين المسلمين فى تركستان) · وكان منصور آتابن أرسلان بابا كبير خلفاء أحمد اليسوى ، أما أحمد اليسوى فكان الخليفة الثالث للمتصوف الايرانى يوسف الهمذانى الذى هاجر من همذان الى تركستان ، وقد عاش الهمذانى سنوات كثيرة فى مرو شيخا للصوفية وتوفى سنة ١١٤٠ ، ويقرر كاتب حياة الهمذانى ، أنه لم يعرفالتركية أبدا . ولكن هذا لم يمنعه من أن يتخذ مؤسس التصوف التركى تلميذا له ، وكان ثانى خلفاء يوسف الهمذانى ، أى السلف المباشر لأحمد اليسوى هو الشيخ أبو محمد حسن بن حسين الأنداقى ، ويمدنا السمعانى ببعض المعلومات عن هذا الانداقى المتوفى سنة ١١٥٧ والذى كان صديقه ومعاصرا له ، ولكن السمعانى لا يقول شيئا عن اليسوى بل لا يذكره

في كتابه المخصص للانساب ، وبخاصة انساب علماء الدين .
اذ ليس بهذا الكتاب نسبة (يسوى) .

وتدل القبة الفخمة التي أقامها تيمور فوق قبر احمد اليسوى قبيل نهاية القرن الرابع عشر ، على أن اليسوى ظل مدة طويلة مقدسا كصوفي تركي في حوض نهر سيحون ، وليسوى مريدون وخلفاء كثيرون يكتبون بالتركية ، ويحملون لقب (آتا) ومن بين هؤلاء (حكيم آتا) او (سليمان باقرغانى) الذى كان يزاول نشاطه فى خوارزم ، والذى كتب بالتركية مجموعة من النصائح الصوفية كالتى كتبها أحمد ، الا أنه كتبها نثرا ، وكتبها أحمد شعرا ، وكانت كلماته ـ مثل كلمات أحمد اليسوى بسيطة تخاطب جمهرة العوام .

الأتراك وحضارة خوارزم

ويهمنا الآن أن ندرس الحياة فى خوارزم أثناء الفترة التي تم فيها تتركها ، وبهذه الدراسة نستطيع الاجابة عن هذا السؤال : الى أى حد كان تكاثف الترك التدريجى فى خوارزم سببا فى سقوط الحضارة ؟

كان المستشرق الألمانى نولدكه أكثر المستشرقين مبالغة فى القول بأن العنصر التركى عدو للحضارة ، ثم فىالارتكاز على هذه النقطة وحدها للحكم على كل الأدوار التاريخية التى لعبها الترك ، فعنده أن فتح الترك لبلاد السامانيين كان أفدح مصيبة رميت بها هذه البلاد . وقد كرر هذه الدعوة منذ زمن قريب (١٩٢٤)على صفحات «اسلام Der Islam فقال ان دخول الترك في العالم الاسلامى المتحضر بعد سقوط دولة السامانيين الايرانية كان نكبة هائلة فى تاريخ العالم كله » ، وقد كانت خوارزم نموذجا للبلاد المتمدينة التى لم تخضع للحكم التركى من الناحية السياسية فحسب ، بل قبلت أيضا أن تحل اللغة التركية محل لغتها القديمة ، ومع هذا فمن المتعذر أن نورد وقائع تدل على أن خوارزم كانت أقل حضارة فى القرن الثالث عشر (أى فى عهد الحكم التركى) منها فى

القرنين العاشر والحادى عشر (اى قبل الحكم التركى) ويدل كلام ياقوت عن خوارزم ــ وقد أقام بها قبيل الغزو المغـولى مباشرة ــ على رقى الحيـاة الحضرية ، وعـلى زيادة الاراضى الزراعية ، وخاصة فى الجنوب الغربى من المنطقة • وتقرر مصادر أخرى أن تجـار خـوارزم كانوا يزاولون نشـاطهم التجارى ونفوذهم فى أماكن من آسـيا الوسـطى ، أبعد من الأماكن التى كانوا يتعاملون معها من قبل ، ويدل عـلى ذلك أن سفيرا من قبل جنكيزخان وصل الى محمد خوارزمشاه فى سنة ١٢١٨ واسم هذا السفير (محمـود الخوارزمى) ، ومن المحتمل أن يكون هو نفس (محمـود يلواج) أى (السـفير محمود) الذى كان واليا على بكين فى العهد المغولى والذى كان ابنه مسعود بك يحكم البلاد المتحضرة بآسيا الوسطى •

ويمكن آن نفرض ــ استنادا الى أن مسعود كان يحمل لقب بك والى آن ابنيه كانا يحملان اسمين تركيين خالصـين هما (ساتلمش) و (سيونج) ــ أن مسعودا وأباه كانا من أصحاب اللسان التركى ، ويشهد على الرقى الفكرى بخوارزم أن المذهب المعتزلى المعتمد على العقل والفكر انتشر بها منـذ القرن الحادى عشر • ثم بلغ كماله فى القرن الثالث عشر ، ويروى علماء العرب الذين يتحدثون عن التقـدم الفـكرى بخوارزم ، أن المناظرات الدينية كانت تدور هنـاك فى أدب جم ، بعيدة عن التعصب ، فاذا استعمل مناظر أثناء دفاعه عن رأيه كلمة نابية قوطع فى الحال •

ولا شك أن بقاء الاعتزال بخوارزم بعد الغزو المغـولى دليل واضح على تأصله وبعد جذوره ، وخاصة أن هذه البلاد قد تعرضت ــ بسبب مقاومتها العنيدة للغزو المغـولى سـنة ١٢٢١ ــ الى التخريب والتدمير ، ومع أن مسـاحة الأراضى الزراعية فى القرن الرابع عشر كانت أقل منها قبـل الغزو المغولى ، ولم يمكن اعادتها الى ما كانت عليـه ، فقـد بعثت مدينة (أوركانج) عاصمة خوارزم (وهى حاليـا أوركنج

القديمة) بعد بضع سنين من حوادث ١٢٢١ ، وأعيد تعميرها في نفس مكانها القديم • حتى لقد كان الرحالة المسلمون والاوربيون يعتبرونها احدى كبريات المدن الواقعة على الطريق التجارى بين غرب آسيا وأوربا ، وبين الشرق الاقصى ، فقال عنها السائح العربى ابن بطوطة وقد زارها ١٣٣٣ انها من أكبر مدن الترك وأهمها وأجملها • وبعد الغزو المغولى كانت خوارزم والمدن المتصلة بها حضاريا والواقعة فى الوادى الأدنى لنهر سيحون ، مجالا للنشاط الفكرى والأدبى كما كانت قبل الغزو ، وقد ذكرت ـ فى تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ـ أسماء كثير من الكتب التى ألفت فى خوارزم وما جاورها ، مع أسماء مؤلفيها • وأعتقد أن مكتبات استانبول يمكن أن توسع هذه المعلومات التى يمدنا بها بروكلمان وتكملها •

ومعظم هذه الكتب دينى ، ولقد قيل لى ان جملا بلغة خوارزم قد وردت بأحد هذه الكتب ، وأملنا كبير فى أن تنشر هذه الآثار قريبا •

ومن بين العلماء الذين نشأوا فى خوارزم أو زاولوا نشاطهم فيها خلال القرن الثانى عشر ، عالمان مشهوران فى أرجاء العالم هما الزمخشرى والشهرستانى ومن العبث أن ننتظر من علماء من أمثال هذين العالمين أن يكشفوا فى ذلك الوقت عن شعورهم القومى أو المحلى ، ومع هذا فمن اللافت أن (محمد بن قيس !) قدم لجلال الدين آخر سلاطين الخوارزمشاهية (الذى ترك خوارزم فى أوائل سنة ١٢٢١ ، وهرب فى نوفمبر من نفس السنة الى الهند ، وبدأ ينشط فى غرب ايران سنة ١٢٢٣ ، وفى سنة ١٢٣١ مات وهو يحارب المغول) كتابا كبيرا عن اللغة التركية ، ولا علم لنا بشىء عن هذا المؤلف ، والغالب أن كتابه عربى ، وهو محرر بعد كتاب الكشغرى ، فيعتبر بذلك الكتاب الثانى عن لغة الترك ولكنه ـ من أسف ـ لم يصل الينا ولم ندر

بوجوده الا لأن جمال الدين بن المهنا الذى حرر كتابه فى العهد المغولى رجع اليه فى موضعين ٠

الأدب التركى الجغتائى

ومن الواضح أن الترك بعد توطنهم فى خوارزم تمثلوا حضارتها الراقية بالنسبة الى زمانها ، ثم أفادوا منها فى النهوض بالأدب التركى الاسلامى فيما بعد ٠ ولو لم يكن لخوارزم حضارة تركية قبل العهد المغولى ، لصعب علينا أن نفهم الدور الذى لعبته خوارزم والآلتون أوردو بوجه عام فى الأدب التركى بعد ظهور المغول ٠

ففى سنة ١٣٥٣ كتب شاعر خوارزمى من الآلتون أوردو كتابا بنفس اللغة التى عرفت فى عهد التيموريين (بلغة جغتاى) ٠

ومع أن المؤلف يتخلص فى هذا الكتاب باسم (خوارزمى) فالراجح أن الكتاب حرر فى جنوب روسيا الحالى لا فى خوارزم ٠ وأستطيع أن أقول الآن وأنا فى استانبول ان مؤلفين كثيرين سبقوا هذا الشاعر الخوارزمى الذى ألف كتابه فى عهد جانبك خان ، فقد وصل الينا أثر أدبى آخر كتب قبل ذلك فى عهد (تينى بك خان) الأخ الأكبر (لجانبك خان) وفى هذا الكتاب يلقب تينى بك بالأمير ، دلالة على أن الكتاب حرر فى عهد أبيه أوزبك خان أى قبل سنة ١٣٤٠ ، وفى القرم ــ ولم يكن بها مسلمون قبل عهد المغول ، ــ كتبت قصة (يوسف وزليخا) ــ ولم تصلنا هذه القصة فى لغتها الأصلية ولكن مترجمة الى اللغة التركية الجنوبية التى ظهرت فى عهد المغول ، ثم سميت فيما بعد اللغة العثمانية ، والى هذه اللغة ترجمت كتب أخرى ٠

ففى القرن الخامس عشر ترجم فى مصر كتاب أبى نصر السرخسى فى العقائد وذلك عن نسخة مكتوبة باللغة التترية وهى اللغة الأدبية للآلتون آوردو ، وهى نفس اللغة التى

كتبت بها قصة يوسف وزليخا ، وفي النصف الثاني من القر
الثالث عشر عاش في بار جكند (وتعرف باسم بارجين ا
بارجينلغ) بالحوض الادنى لنهر سيحون فقيه كبير اسـ
حسـام الدين حامد بن عاصـم البارجنليغى وكان يؤلف
باللغات العربية والفارسية والتركية ويقول عنه (جمـا
قرشى) وقد صحبه شخصيا ـ ان انتاجه العربى فصيح
والفارسى مليح ، والتركى صحيح ، وهذا الذى يقول (جما
قرشى) هو فيما نعلم أول مقارنة بين اللغات الثلاث ، بوصفه
لغات العالم الاسلامى، وقد ولد القرشى فى (آلماليق) (حوا
سنة ١٢٣٠ ، وقضى معظم حياته فيما بعد فى كاشغر
وعرف حسام الدين فى بار جكند سنة ٦٧٢ (١٢٧٣ ـ ٧٤)
ويمكن أن نستنتج من قول جمال قرشى أن حضارة الآلتو
أوردو كانت حتى فى القرن الثالث عشر ، تؤثر على حضار
تركستان ، وقد ظل هذا التأثير مجهولا عند أتراك آسـ
الوسطى وعند علماء أوربا حتى العهود الأخيرة ، وفى أوائ
القرن السادس عشر ، كان بابرميرزا يتصور أن شاعر اللغ
الجغتائية على شيرنوائى كان يكتب بنفس اللغة التى يتحدث
أهالى مدينة انديجان بفرغانة ، وفى سـنة ١٨٨٨ ، حاو
رادلوف أن يخطىء بابر ، وأن يثبت أن اللغة الجغتائية كان
تصطنع فى الكتابة الفنية فقط ، ولا علاقة لها بأية لغـة م
لغات الخطاب المحلية • وكان رادلوف ـ مع هذا ـ يرى أ
هذه اللغة الأدبية نشأت بتأثير اللغـة الأدبيـة الأويغـور
القديمة ، التى ظلت لغة التأليف حتى سنة ١٣١٠ حيث أل
بها كتاب قصص الأنبيـاء • أى أن اللغـة الجغتائية ظهر
نتيجة للنفوذ الثقافى الذى زاوله الشرق على الغرب (قا
رادلوف ذلك قبل أن تكشف نقوش أورخون) •

وتدل الفرمانات (يارليغ) التى حـررت فى أواخـ
القرن الرابع عشر ، فى عهد طوقتامش وتيمور قوطلوغ ع
أن اللغة الجغتائية كانت منتشرة فى ذلك الـوقت فى دو
القبيلة الذهبية ، ولابد أن يكون رادلوف قد ظن أن انتشار

هذا حدث فى نفس القرن الرابع عشر ، أى أيام تحرير هذه الفرمانات ، فهو يقول ان احد أصحاب العلم بلغة جغتاى هو الذى حررها ٠

ولم يكن من الصعب في ذلك الوقت تصور ظهور ادب لغة القبيلة الذهبية بتأثير اللغة الجغتائية ، بل كان الصعب هو أن نتصور ظهور لغة جغتاى بتأثير دخول القبيلة الذهبية فى تركستان ٠

ولم يكن ممكنا ــ لولا الغزو المغولى ــ أن تظهر لغة جغتاى الأدبية ومعلوم أن لهذا الغزو وضعا خاصا فى تاريخ العالم فمع أن غارات البدو على البلاد المتحضرة أمر مألوف ، الا أننا لم نر قوما آخرين من البدو استطاعوا أن يغزوا فى مدة قصيرة البلاد المتحضرة فى الشرق الأقصى وغرب آسيا وشرق أوربا ٠

ولم يكن بد اذن من أن يكتب شىء عن المغول فى كل البلاد التى فتحوها ، ومن هنا كانت المصادر التاريخية أحفل بالمعلومات عن عهد المغول منها بالمعلومات عن العهود التاريخية الأخرى ٠

ففى البيئات العلمية بغرب أوربا فاق الاهتمام بتاريخ دولة المغول الاهتمام بكل الدول الشرقية فى العصور الوسطى ، ومع هذا فلا يمكن القول بأن المسائل والمشكلات المتعلقة بتكوين هذه الدولة قد حلت ، فمن المسائل التى تهمنا مثلا مسألة الحرب بين جنكيزخان ومحمد خوارزمشاه : ما سببها ؟

كثيرا ما ينظر الى هذه المسألة من حيث ارتباطها بخطة جنكيزخان للفتح والغزو، وكثيرا مايقال ان خطط جنكيزخان ــ اذا لم تكن بتحريض من دول أجنبية ــ فقد كانت على الأقل تلقى تأييدا من الخارج وبخاصة من خليفة بغداد الناصر ، ذلك ، على حين أن الدراسة المقارنة لما ورد بالمصادر الاسلامية

عن هذه الحرب يدل على ان محمد خوارزمشاه سبب هـذه الحرب ، أو على الأقل ، عجل قيامها ٠

كان المتأخرون من الخوارزمشاهية يريدون ان يكونوا (سلاطين الاسلام) ومن هنا ، فقد كتبوا على أنفسهم ــ بالاضافة الى حماية الدين الاسلامى ، وأسس العدالة فى داخل البلاد الاسلامية ــ أن يحرروا بقدر امكانهم المسلمين الخاضعين للكفار ٠

وفى عهد محمد خوارزمشاه كانت الظروف مواتية لتطبيق هذه السياسة ، فقد سقطت دولة كورخانات القاراخطاى ، وظهرت الثورات فى الولايات الاسلامية الخاضعة لحكمهم ، وليس بين أيدينا ما يدل على أسباب هذه الثورات ، ولا على كيفية قيامها ، والظاهر أن أول من ثار من ملوك المسلمين ضد الكورخان هو سلطان ختن فانه ــ ولا شبهة فى اسلامه ولا فى تركيته ــ لم يذكر الا بمناسبة ثورة قام بها ٠ (ولم تصل الينا أية مسكوكات ضربت فى عهد ختن قبل عهد المغول) وفى نفس الوقت ثار الأهالى فى بخارى بالقسم الغربى من ممتلكات الكورخان ضده وضد الحكام المعينين من قبله ، وقبل ذلك بقليل انتقلت السلطة كلها فى بخارى الى أيدى زعماء رجال الدين بالمدينة المنتمين الى (آل برهان) والذين كانوا يحملون لقب (الصدر) واستقلت بخارى تماما عن الخانات المقيمين بسمرقند ، وكان هؤلاء الصدور يتصلون بالكورخان مباشرة ويجمعون الضرائب لتقديمها له بأنفسهم أى أن أسلوب الحكم فى عهد الكورخانات وفى عهد المغول ــ طبق على هؤلاء الصدور فى أحسن أشكاله ، واكثرها ملاءمة ، ولكن حكم هؤلاء الصدور زال تماما نتيجة لثورة الشعب على الأرستقراطية المحلية ، وكان قائد الثورة هو رئيس الصناع بالمنطقة ، وقد اتهم هو نفسه بأنه كان يناوىء الحكام السابقين بعنف ، مما يكشف لنا عن ماهية هذه الثورة وأوصافها ، ولعل الأمر اللافت فى هذه الثورة هو أن

(الصدور) مع اعتمادهم فى الحكم على سـلطتهم الروحية ، طلبوا ـ من أجل التغلب على الثوار ـ مسـاعدة الكفار من القاراخطاى ، ومع أن القاراخطاى قد أسعفوهم ، فلم يكن ذلك الاسعاف بارسال قوة عسكرية ، ولكن باصـدار بعض الأوامر والفرمانات ، التى لم تؤت أثرا ، بسبب اضمحلال دولة القاراخطاى ٠

واستغل محمد خوارزمشاه أحداث بخارى فأغار غارته الأولى على القاراخطاى فى خريف سنة ١٢٠٧ ، وبينما كان من المتوقع أن يظاهر ثورة بخـارى لأنها هى أيضـا ضـد الكورخان ، اذا هو يأسر رئيسها الذى عجز فيما يظهـر عن مقاومته ، وعاد به أسيرا الى خوارزم ٠ وفى نفس الوقت بدأ محادثاته مع خان سمرقندالخاضع للكورخان ـ وكان الحاكمان القراخانيان الأخيران لسمرقند ، وهما ابراهيم وابنه عثمان يحملان لقبا طنانا هو (سلطان السلاطين) ٠

وكان ابراهيم ينقش عـلى عملته الكلمـة التركيـة (أولوغ) بالاضافة الى هذا اللقب العربى ٠ وليس لدينـا ـ غير هذه العملة ـ دليل على أن هؤلاء الخـانات من أصـل تركى ، ولكن عوفى المـؤرخ الايرانى المعـاصر لهما يذكر لقبيهما كاملين هكذا : (قليج طمغاج خان) و (قليج أرسلان خان خاقان) وكذلك ليس لدينا دليل على مدى أهمية العنصر التركى بين قوات هـذين الخانين العسـكرية ، ومهما يكمن فمما تجدر ملاحظته أن البحيرة التى يصب فيها نهر زرفشان كانت تسمى منذ ذلك الوقت بحيرة (قاراكول) ويمكن أن نستدل بهذه التسمية على أن العنصر التركى كان موجودا فى ذلك الوقت بولاية بخارى ، أو على الأقل فى أجزائها المجاورة للصحراء والقريبة من خوارزم ٠

ولم تكن غارة خوارزمشاه سنة ١٢٠٧ حسنة العاقبة ، اذ لم تلبث البلاد التى فتحها أن عادت الى حكم الكورخان ، ولم يستطع محمد خوارزمشاه أن يغلب القاراخطاى الا فى

سنة ١٢١٠ على مقربه من طالاس ، ومع هذا فلم يكن نصره حاسما لأن المسلمين الخاضعين للكورخان لم يتحدوا ولم ينضووا تحت لوائه ، ولم يستطع من ناحية أخرى أن يقدم أية مساعدة لأهالى بالاساغون حين ثاروا ضد الكورخان ٠ ولكنه — على كل حال — أفاد من نصره فأضفى على حكمه مظاهر العظمة وسمى نفسه (السلطان سنجر) وهو اسم آخر سلاطين السلاجقة وأقواهم ، وأضاف الى لقبه أيضا اسم (اسكندر) أى الاسكندر المقدونى ٠ وتدل هذه الألقاب على أنه لم يكن يقنع بالفتوحات المفروضة عليه بوصفه (سلطان الاسلام) ، بل كان يريد أن تشمل فتوحاته العالم كله ٠

التتـــار

ومع هذا ، فان مصير دولة القاراخطاى كان اكثر تاثرا بالزحف المغولى من الشرق منه بتحركات خوارزمشاه ، ففى ذلك الزمان زحف التتار الأول كما يقول ابن الاثير ، اذ خرجوا من منغوليا تحت ضغط جنكيزخان ثم ما لبث جنكيز نفسه أن خرج ومعه عساكره ، ويقول المؤرخ رشيد الدين ان اطلاق كلمة تتار على نطاق واسع يرجع الى قوة التتار الحقيقيين الذين كانوا يعيشون ذلك الوقت حول بحيرة (بوير نـور) Bouir Nor .

أما الآن فانا نعلم أن استعمال هذه الكلمة على هذا النطاق الواسع يرجع الى زمن أبعد من ذلك ، يرجع الى عهد نقوش أورخون أى الى القرن الثامن وقد ورد هذا الاسم فى القرن العاشر فى مخطوطة تومانسكى ثم ورد فى القرن الحادى عشر فى كتاب الكشغرى ، ويحتمل كثيرا أن يكون هذا الاسم علما على الناطقين باللغة المغولية بوجه عام ، وتدل المعلومات التى نقلها رشيد الدين على أن حدود البلاد الناطقة بالمغولية والتركية فى زمانه ، هى تقريبا نفس حدود البلاد الناطقة بهاتين اللغتين فى عصرنا هذا ، فقد كان شعب (نايمان) الذى يملك كل غرب منغوليا ابتداء من شمال

نهر أورخون الى نهر ايرتيش ، وشعب (اويرات) وهو جاره الى الشمال ، يتكلمان اللغة المغولية ، وتسمى المنطقة التى يسكنها الاويرات وهى منطقة منابع ينيسى (سه كيزموره‌ن) وتدل هذه التسمية على أن اللسانين التركى والمغـولى كانا متداخلين ، فان كلمة (سه كيز) تركيـة بمعنى ثمانيـة ، وكلمة (موره ن) مغولية بمعنى نهر ، وفى شمال الاويرات كان القيرغيز الناطقون بالتركية يسكنون حوض ينيسى أو نهر (كه م) كما يسميه الترك ، وكان جيران النايمان على نهـر ايريتش هم القـاكلى والقبجـاق ثم القـارلوق فيما يظن ، وهؤلاء جميعا من النـاطقين بالتركيـة ، وكانت عاصـمة القارلوق هى (قياليق) أو (قاياليق) الواقعة شمال ولاية (يدى صو) والتى لا يرجع تأسيسـها الى أبعـد من القرن الثانى عشر ٠

هـذا وكانت قبائل المغـول تقطن المنطقـة الممتدة من (سد الصين) جنوبا الى بحيرة بايقال شمالا ، وكان مستواهم الحضارى على درجات مختلفـة ٠ وقد ذكر الصينيون ثلاثة أنـواع من التتـار : التتـار البيض ، وكان الصـينيون يجاورونهم جنوبا ٠

وفى شمالهم التتار السود ، وفى شـمال هؤلاء التتـار المتوحشون الذين كان المغول يسمونهم (شعوب الغابة) وكان التتار السود بدوا أما المتوحشون فكانوا يعيشون على الصيد٠

وان معلوماتنا عن مغول القرن الثالث عشر ، وخاصـة ما يتعلق منها بأماكن القبائل وطراز حياتهم ، لتفـوق عددا وتنوعا معلوماتنا عن الترك الذين كانوا يسكنون قبلهم فى نفس المكان ، اذ لا تذكر المصادر الصينية ولا غيرها أنه كان الى جانب الأتراك البدو ، أتراك آخرون يعيشون على الصيد ثم لا يذكر شىء أيضا عن العلاقات بين سكان الاستبس وسكان الغابات ، اللهم الا بضع كلمات ذكرها الكرديزى عن علاقات القرغيز بجيرانهم الشرقيين ٠

ويقول رشيد الدين ان المذهب الشاماني لم يكن الدين الأصلي للبدو ، ولكن كان دين القبائل التي تعيش على الصيد، وكان يعتقد في أيامه هو أي ابان العهد المغولي ان الشامانات الحقيقيين يوجدون بين سكان بلاد الغابات . ويستنتج من حكاية نقلها رشيد الدين عن اغنى القبائل بالشامانات وهي قبيلة (أورمان أورانخيني) أن حياة الزراعة كانت في نظر البدو نوعا من العبودية لا يطاق ، وأن حياة البدو كانت كذلك في نظر القبائل التي تعيش على الصيد ·

ظهور جنكيزخان

وكان (لشعوب الغابة) بوجه عام يد في الاحداث والفتن الدامية التي سبقت اتحاد منغوليا تحت ادارة جنكيزخان ، ولكن أصحاب هذه الفتن الحقيقيين هم البدو بوجه خاص . وقد ثبت الآن أن هذه الفتن لم تكن في حقيقة أمرها الا الصراع بين الطبقة الأرستقراطية وجمهرة السكان في الاستبس : تجمعت الطبقة الأولى تحت رياسة جنكيزخان، والتفت الثانية حول (جاموغا) ، وكان جاموغا في أول أمره صديقا لجنكيز خان ثم خرج عليه ، واتخذ لنفسه ــ مثل القاراخطاى ــ لقب (كورخان) وظل يجد كل يوم أعداء جددا لجنكيز خان بين رؤساء قبائل المغول وخاناتهم ، ولكن هذا الصراع انتهى بابادة قسم من أنصار جاموغا ، وفرار القسم الآخر من منغوليا · ووقعت أخرى المعارك التي اشترك فيها جاموغا ضد جنكيزخان في سنة ١٢٠٤ ، وفي سنة ١٢٠٥ ــ سلم جاموغا الى جنكيزخان ، وأعدم كما تروى مصادر المغول ، ولكن المؤرخ الجويني يذكر حكاية غريبة عن بطل اسمه (كورخان) كان في خدمة جنكيزخان ثم انحاز الى المسلمين ، فلما فتح المغول مدينة بخارى سنة ١٢٢٠ أعدمه جنكيزخان ، ومن هنا ، فمن المحتمل أن يكون جاموغا ــ رغم الرواية المغولية ــ قد فر من جنكيزخان ولجأ الى بلاد خوارزمشاه · وكان من بين قبائل المغول المعادية لجنكيزخان

قبيلة ((ماركيت) التى تسدن على ضفاف نهر (سيلينغا) ، ثم قبيلة نايمان ـ وقد فرت كلتاهما الى الغرب ، وكانت اخر هزائمها امام جنكيزخان سـنة ١٢٠٨ ، وفى سـنة ١٢٠٩ افترقت القبيلتـان فأخذت الماركيت طريق الشـمال حتى وصـلت الى بـلاد القبجـاق ، ووصـل النـايمان الى بلاد القاراخطاى • ومهما يكن فقد تعرضت القبيلتان قبل هـذه الأحداث لحركة التبشير المسيحى ، وكان من نتائج ذلك أن أخذ النايمان كما رأينا من قبل الأبجدية الاويغورية ، ولدينا بالاضافة الى هذا حقائق كثيرة تؤيد تأثر المغول بمدنية الترك فمن ذلك وجود الأسماء والألقاب التركية بين أقوام من أصل مغولى ، وأما التبشير الاسلامى فلم يرد عنه شىء رغم وجود كثير من التجار المسلمين فى عاصمة جنكيزخان وهو لا يزال فى شرق منغوليا ، اذ ليس لدينا فى هذا الباب سـوى رواية واحدة تدل على أن بعض المغول دخلوا فى الاسلام ، وجنكيز على قيد الحياة •

فقد كان أخو زوجته ، وهو أحد زعماء الماركيت يحمل اسما اسلاميا هو (جمال خوجة) •

وفى أثنـاء الصراع بين جنكيزخان ، وبين المـاركيت والنايمان فى سنة ١٢٠٧ خضع القيرغيز القاطنون بجوار ينيسى لجنـكيزخان ، فكانـوا أول من خضـع له من أقوام الترك ، نعم لقد أعلنوا العصيان فيما بعـد سـنة ١٢١٨ ، ولكن جوجى الابن الأكبر لجنكيزخان انقض عليهم بعد أن عبر ثلوج نهر الينيسى ونكل بهم • ويروى الجغرافيون العرب أن قيرغيز ذلك الوقت ـ كقرغيز القرن الثامن ـ لم يكن لهم خاقان ، بل كانوا منقسمين قسمين ، على كل واحد رئيس ، لا يحمل لقب خان ، حتى لقد نسى القيرغيز المتأخرون أن قد كان لهم خان فيما مضى ، ويروى رادلوف نقلا عن حـكايات القاراقيرغيز أنهم التمسوا من (الخان الكبير) (جنكيزخان) أن يعين عليهم (جوجى) خانا ، ولكن قطيعا من حمر الوحش

اختطفت (جوجى) وكان لا يزال صبيا ، وهكذا كان (اقصاق قولان جوجى خان) أول خانات القيرغيز وآخرهم ، ومع أن الصفةالاسطورية واضحة فى هذه الرواية ، فانها تسجل ذكرى خضوع القيرغيز لجنكيزخان وولده جوجى ، وربما كانت حكاية حمر الوحش هذه صدى للشعر المنسوب الى جنكيزخان، فقد قيل انه لما بلغه وفاة ابنه قال هذين البيتين :

قولون آلغان قولانداى قولو نوم دين ايريلدم
آير لشقان آنقوداى اير اولوم دين ايريلدم
ارايت الى العير يروعه الصياد، فيناى عن صغيره
فكذلك ثكلت ولدى
أرأيت الى سرب البط يتشتت فى كل اتجاه
فهكذا فارقت ابنى البطل

اضمحلال الخوارزمشاهية

فى سنة ١٢٠٩ اى قبل ان ينتصر محمد خوارزمشاه على القاراخطاى بعام واحد ، خضع ايديقوت الأويغور ـ وهم قوم متحضرون ـ لجنكيزخان ، وكان ايديقوت الأيغور حتى ذلك التاريخ تابعا للقاراخطاى ٠ ولكنه غير هذه التبعية بسبب فرار خصوم جنكيزخان الى الغرب ، فقد أراد الماركيت والنايمان أن يجتازوا بلاده ، ولكنه ثبت لهم وقاومهم بعنف حتى غلبهم ، وكانت هذه الهزيمة سببا فى افتراق القومين أحدهما عن الآخر ، وكانا ـ حتى هذه الهزيمة ـ متحدين ٠ وفى سنة ١٢١١ أى بعد أن هزم محمد خوارزمشاه القاراخطاى بعام واحد دخل حاكم القارلوق المسلم (أرسلان خان) فى طاعة جنكيز ، وكان حتى تلك السنة خاضعا للكورخان ٠

وتدل هذه الحوادث على مدى اضمحلال نفوذ خوارزمشاه عند المسلمين فى آسيا الوسطى ، مع أنه كان يعلن منذ

انتصاره على القاراخطاى سنه ١٢١٠ انه (منقذ المسلمين من أيدى الكفار)، والواقع أن أخلاق محمد خوارزمشاه كانت تناقض العظمة الظاهرية لدولته ، وتناقض القابه الطنانه ، فقد كان عاجزا تماما عن كبح جماح عساكره ، وحمايه الأهالى فى البلاد التى فتحها من اعتداءاتهم ، ولعل هذا يفسر لنا كيف ساءت العلاقات بينه وبين خان سمرقند فى سنة ١٢١٧ ، مما دعا الثانى الى الانضمام من جديد الى القاراخطاى • ويذكر الجوينى شيئا عن المحادثات بينهما وهى المحادثات التى سبقت القطيعة فيقال انه بعد أن تزوج خان سمرقند بنت خوارزمشاه رأت أم هذا الأخير ان يبقى خان سمرقند عاما كاملا فى بيت حميه طبقا لعادة تركية قديمة •

وبعد أن رجع خان سمرقند ، أعلن بموافقة اجماعية من الأهالى الخروج على خوارزمشاه منقذه من الكورخان المجوسى ، ولم يستطع خوارزمشاه اخماد هذا العصيان الا بمعارك دامية ، وصارت حدود خوارزمشاه بعد اخماد الثورة ممتدة من فرغانة الى بحيرة آرال ومشتملة على كل الأراضى المجاورة لسيحون بما فى ذلك ساحله الأيمن ، وأما بقية المناطق الاسلامية التى كانت خاضعة قبل ذلك للقاراخطاى ، فقد خضعت (باستثناء امارة القارلوق فى أقصى الشمال وهى التى خضعت لجنكيز) لسلطة زعيم النايمان كوجلوك المهاجر من الشرق • وكان كوجلوك هذا مسيحيا فى أول الأمر ، ولكنه اعتنق الوثنية فى بلاد القاراخطاى ويحتمل أن تكون الوثنية هنا هى البوذية • وكان استيلاء كوجلوك على بلاد الكورخان فى سنة ١١٢١ أى قبل أن يخرج خان سمرقند على خوارزمشاه ، الذى ما لبث أن حارب كوجلوك حربا غير موفقة فقد روى ابن الأثير وياقوت أنه اضطر الى أن يترك لكوجلوك بعض ممتلكاته ومنها اسفيجاب (سايرام) وطاشقند ، والقسم الشمالى من فرغانة ويقال انه دمر هذه البلاد قبل انسحابه ، وأنه صحب معه

سكانها ، وأكبر الظن أن خوارزمشاه ، فكر فعلا في هذه الخطة ، ولكن من المستبعد أن يكون قد نفذها وذلك ان وضع هذه الولايات في أثناء الغزو المغولى ، أى بعد عشرة أعوام من الحروب بين خوارزمشاه وكوجلوك ، لا يدل أبدا على أنها دمرت تدميرا تاما ، ومع ان منغوليا بعيدة عن تركستان ومع ان المغول شغلوا بحروبهم في الصين ابتداء من ١٢١١ ، فان نصيب جنكيزخان من النفوذ والسلطان في اسيا الوسطى ، كان اكبر مما يتمتع به (سلطان الاسلام) نفسه . وقبيل حوادث سنة ١٢١١ على الارجح ظهرت حكومة مسلمة جديدة في مدينة آلماليق او (غولجه) الحالية ، ومع ان مؤسس هذه الحكومة كان قاطع طريق ، وسارق خيل ، فان ذلك لم يمنع اسرته من تولى الحكم حتى بداية القرن الرابع عشر ، وكان رئيس هذه الأسرة في أول أمره خاضعا لجنكيز . ولكن كوجلوك قبض عليه غيلة أثناء خروجه للصيد ، وقتله ، واستطاعت زوجة القتيل أن تدافع عن آلماليق ضد عساكر كوجلوك حتى وافتها النجدة من منغوليا ، والظاهر ان كوجلوك لم يكن يضمر شرا لأرسلان خان القارلوقى التابع لجنكيزخان ، وذلك أنه وجه كل قواته الى كاشغر ، وبفتحه هذه الولاية ظهرت للمرة الأولى والأخيرة في آسيا الوسطى حركة اضطهاد للاسلام ، ومنعهم من العبادة ، وقتل اماما من ختن ، وأسكن عساكر النايمان في بيوت المسلمين (ليتأكدوا في الغالب من تنفيذ المسلمين لأوامره) وبينما المسلمون على هذه الحال ، فان خوارزمشاه لم يساعدهم ولم يتخلصوا من الاضطهاد والطغيان الا بوصول عساكر المغول سنة ١٩١٨ .

سوء العلاقات بين خوارزمشاه والمغول

كان خوارزمشاه في ذلك الوقت مشغولا بالحرب مع الكفار ، فقد وجه ضرباته الى القبجاق بالمنطقة الشمالية من سيحون ، وكان القبجاق أضعف نسبيا وأقل نظاما .

وفى نواحى (ايرغيز) وقع بطريق الصدفة صدام بين العساكر الخوارزمية وبين القوات المغولية بقيادة جوجى خان، وكان قد وصل الى هناك أثناء تعقبه الماركيت الفارين الى الغرب ٠

وكان خوارزمشاه ــ على فشله المتكرر ــ لا يزال يطمع فى أن يشتهر بأنه فاتح العالم ، بل كان يأمل حتى بعد ذلك أن يفتح الصين ، وقد تملكه الحزن حين سمع باستيلاء جنكيز على بكين سنة ١٢٢٥ ، وأرسل (بهاء الدين الرازى) سفيرا لدى جنكيز ليحقق خبر هذا الفتح ، وليجمع المعلومات عن فتوحات جنكيز وانتصاراته ٠

ووصل بهاء الدين وجنكيز لا يزال بالصين ، وقد روى المؤرخ الجوزجانى قصة هذه السفارة نقلا عن السفير نفسه فلا مجال للشك فيها ٠

وهكذا يتبين أن خوارزمشاه ، لا الخليفة الناصر هو الذى أرسل سفيرا لدى أباطرة المغول ٠

وكلنا نعلم تطور الحوادث فيما بعد ، وكيف أرسل خوارزمشاه بالاضافة الى هذه السفارة ، قافلة تجارية الى جنكيزخان ، وكيف أن جنكيز أرسل بدوره سفارة وقافلة الى خوارزمشاه ، وكيف استقبل هذا الأخير هيئة السفارة ، ثم كيف خلا بالسفير محمود فى الليل ، وكيف قتل التجار وهم جميعا مسلمون فى (اوترار) وهى احدى مدن الحدود ببلاد الخوارزميين ٠ ومن اللافت ان خوارزمشاه طلب الى السفير محمود ان يعطيه كل المعلومات المهمة عن بلاد جنكيزخان ، وذلك بوصفه (أى السفير) احد رعايا خوارزمشاه لانه ولد فى خوارزم ٠ وقد يبدو هذا الطلب فى عين الأوروبى الحديث وجيها بل حقا من حقوق خوارزمشاه ٠ فالحكومة الانجليزية مثلا لا تتردد أبدا فى أن توجه نفس الطلب الى أى انجليزى ، يخدم فى بلد همجى أو نصف همجى ولكن التجار المسلمين فى العصور الوسطى لم يكونوا يحسون أن

لهم علاقة بحكومة الولاية التى نشأوا فيها ، ولم يكونوا على علاقة بتنفيذ الخطط الحربية لسلاطين المسلمين ، ومن المحتمل جدا أن تكون هذه المسألة نفسها هى السبب فى قتل التجــار المسلمين الوافدين من منغوليا ٠

وعلى أية حال ، فلم يكن بد بعد حادثة أوترار من أن يوجه المغول غزواتهم الى بلاد خوارزمشاه ، دون أن تكون بهم حاجة الى تحريض الخليفة الناصر أو سواه وكان من الطبيعى أن تنتشر الشائعات ، وأن تنسب الى الخليفة النـاصر تدابير من هذا النوع بسبب الخلاف بينه وبين خوارزمشاه ٠ ومن المعلوم أن جلال الدين بن خوارزمشاه كان يتهم خليفة بغداد بنفس الاتهام، دون أن يملك دليلا واحدا لتأييده ، والطبيعى أن يكون غزو جنكيزخان للبــلاد الاســلامية نتيجة مبــاشرة لحــادثة أوترار ، وآية ذلك أن التجــار المســلمين ظاهروا جنكيزخان ، وسنرى فيما بعد أنهم أفادوا أكثر من غيرهم من انتصار عساكر المغول ، ومما ترتب عليه من نظم وقواعد ٠

المحاضرة التاسعة

القبيلة الذهبية (آلتون أوردو)

لم تسلم المعلومات عن الحوادث التي سبقت استيلاء المغول على تركستان من التناقض : فمثلا تختلف أقوال المصادر وآراء العلماء في تاريخ المعركة التي وقعت بين جوجي خان وبين خوارزمشاه والتي كللت بتقهقر المغول : أكانت هذه المعركة قبل حادثة اوترار أم بعدها · ولقد وجدت ببلاد محمد خوارزمشاه منظومات تناولت الحوادث السياسية باللغة الفارسية بنوع خاص ، ولكننا لم نعرف هذه المنظومات الا ببعض ما أخذ عنها وعزى اليها · فمن ذلك ما نقل ياقوت من منظومات عربية تصف خراب البلاد التي تركها محمد خوارزمشاه فيما وراء النهر وقد كتب هذه المنظومات فيما يظهر محمد خوارزمشاه نفسه ، ومن ذلك أيضا الملحمة الشعرية التي أشار اليها عوفي والمسماة (شاهانشا هنامه) لمجد الدين محمد بايزى وهي تتناول الأحداث أثناء سلطنة محمد خوارزمشاه (التقى عوفي بمجد الدين بايزى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ ــ ١٢٠٤) بمدينة (نسا) غرب عشق آباد بتركستان الحالية) ثم قصيدة عمر خرم آبادى التي ذكرها عوفي أيضا ، وفي هذه القصيدة يلقب محمد خوارزمشاه بالاسكندر الثاني ، ومنها : ان اصرار (خطائى) على أن يحارب عساكرك (خطأ) فان مضى في طريقه فليرين عواقب جهله ، واذا لم يستسلم (التتار) لأمرك ، فمن الواضح وضوح الشمس أن نهارهم (تار) أى مظلم (الجناس بين خطائى وخطأ وبين تتار وتار) ، فالى أى صدام عسكرى

تشير هذه القصيدة آصدام مغول جنكيزخان ، أم صدام (التتار الأول) أى كوجلوك والنايمان ؟ .

لم تكن للصدام العسكرى بجوار (ايرغيز) آثار بعيدة ، كان محمد خوارزمشاه هو المهاجم. ومع ذلك فلم يكن الطرفان يتوقعان فى أول الأمر الصدام فقد كان خوارزمشاه يحارب فى تلك الجهات القبجاق ، وكان جوجى يحارب الماركيت ، وقد حرص جوجى على ابلاغ خوارزمشاه بأن ليس لديه أمر من أبيه بالدخول فى حرب ضده .

ولكن لما تحولت الحرب بالنسبة لخوارزمشاه الى حرب دفاعية ــ قيل انه كان يجاهد ليصون (دار الاسلام) من سطوات الكفار ، هذا مع أن سبب الحرب هو قتل التجار المسلمين فى خوارزم ، ومع أن الحاكم العسكرى فى كاشغر منح المسلمين فى سنة ١٢١٨ حرية العبادة من جديد .

وبالاضافة الى التجار المسلمين الذين كانوا يعملون مع جنكيزخان، كانت فى جيش المغول كتائب من مسلمى قاياليق وآلماليق ، ومن المحقق أنه كان بين أولئك التجار ــ عدا التاجيك ــ بعض الأتراك ، (وكان المغول يطلقون على التجار جميعهم الكلمة التركية (أورتاق) بمعنى شريك والظاهر أن السبب فى ذلك هو تجمع التجار فى شكل شركات ليستطيعوا تجهيز القوافل) .

وكان جيش خوارزمشاه يتكون من عناصر تمثل قوميات مختلفة ، فيلاحظ مثلا أن عدد الترك والتاجيك فى حامية سمرقند وهى عاصمة ما وراء النهر كان ــ بحسب رواية الجوينى ــ متساويا تقريبا ، اذ كان عدد الترك ستين ألفا وعدد التاجيك خمسين ألفا ، وكان من الممكن أن يؤثر الصراع بين هذه القوميات على صلابة الجيش ، بل لقد قرر أحد مؤرخى القرن الثالث عشر أثناء تناوله العلاقات بين خوارزم وبين المنطقة الايرانية الحالية مازندران ، ان الصداقة الحقة لا يمكن أن تتوثق عراها بين الترك

والتاجيك ، وأدهى من ذلك ، استحكام العداء بين الترك وبين سكان المنطقتين الايرانيتين الجبليتين غور وغزنه » فعندما أراد الترك تحسين علاقاتهم بحاكم غور ، أجابهم هذا الحاكم نحن غوريون وأنتم أتراك ، ولا يمكن أن نعيش معا ٠

ومهما يكن فقد كان الترك — من بين سائر القوميات — أقرب الى المغول بل كانت منهم بجيش جنكيزخان كتائب . وكانت التقاليد البدوية فى أسيا الوسطى ، تزيد الترك قربا الى المغول ، ورغم هذا كله فلم يحاول المغول الاتحاد مع الترك واشراكهم معهم فى الفتح، ولم تكن المحادثات التى يجرونها أحيانا مع الترك الا ضربا من الخدع الحربية المألوفة عندهم. فقد كانوا يحاولون بتأكيداتهم الكاذبة لأواصر الصداقة — أن يفرقوا أعداءهم ، ثم يجهزوا عليهم واحدا فواحدا ، وقد أكد جنكيزخان صداقته لأم محمد خوارزمشاه ، وكانت بينها وبين ابنها جفوة ، وذلك لكى يحول بينها وبين التدخل فى الحرب بما كانت تملك من كتائب ٠

وفى أثناء حصار المغول لسمرقند أعلنوا استعدادهم لان يقبلوا خدمة القسم التركى من حامية المدينة ، وكان على رأسه رجال خوارزمشاه ، فلما تم لهم فتح المدينة طوقوا هؤلاء الترك وعددهم حوالى ثلاثين ألفا — عليهم عشرون قائدا — وذبحوهم ، ثم فعلوا مثل ذلك فى داغستان حيث تحالف القبجاق مع اللان Alains ليقاوموا المغول معا ، فقد قال المغول للقبجاق بوصفهم أتراكا : اننا واياكم من أصل واحد ، وليس اللان منكم فى شىء فكيف تساعدونهم؟ وقدموا لهم الهدايا حتى يتخلوا عن اللان ، ولكنهم ما لبثوا بعد أن انتصروا على اللان منفردين أن استداروا فبطشوا بالقبجاق وأخذوا منهم الهدايا التى أعطيت لهم من قبل مضاعفة ، وكذلك لما وجد البولوفيتس (أى القبجاق) العون من أعدائهم الروس ، أكد المغول لأمراء الروس أنهم لم يتجمعوا للاعتداء على أراضيهم ، ولكن ليحاربوا (القومان المشركين) ٠

القذرين ، خدم الخيل الاخساء على حد تعبير المؤرخين الروس .

وفى غرب آسيا لعب المغول نفس الدور . ففى وقت ما كانوا يجرون المحادثات مع الاسماعيلية ومع الخليفة فى بغداد، ولكنهم ما لبثوا بعد ذلك ان استأصلوا شأفتهم جميعا.

وفى حوالى سنة ١١٢٦ امر السلطان جلال الدين وهو فى اصفهان وزيره فى آذربيجان ، ان يتحرى أخبار القوافل الآتية من سورية ، لأنه علم أن سفيرا من التتار قد هب الى هناك مع قوافل تجار الاسماعيلية بطريق بغداد .

وكان جلال الدين يبحث ، قبل أن يؤاخذ الخليفة أو بعض الأمراء على علاقاتهم بالتتار ، عن دليل ليثبت قيام هذه العلاقات ، ولكنه لم يستطع أن يجد عليها دليلا واحدا ، رغم أن وزيره لم يقنع بتفتيش القافلة ، بل أبادها عن آخرها مما سبب لجلال الدين فيما بعد كثيرا من المشاكل ، ومع هذا فليس بعيدا أن تكون الشائعات عن وجود هذه العلاقات مطابقة للواقع .

ومن المعروف أن محمد خوارزمشاه المتوفى فى احدى جزر بحر قزوين سنة ١٢٢٠ لم يكن عظيم الشأن أثناء حروبه ضد المغول حتى ان اسمه لم يكن معروفا عندهم ، فالمصادر المغولية مثلا تنسب كل ما دار أثناء الحرب وفى الفترة السابقة عليها ، بما فى ذلك حادثة أوترار الى ابنه وخليفته من بعده . جلال الدين ، ومع أن الحرب وضعت أوزارها بفرار جلال الدين هذا الى الهند فى آخر نوفمبر ١٢٣١ ، فقد اضطر المغول فيما بعد الى اخماد بعض الثورات والى الاستيلاء على بعض القلاع المحصنة فى أعالى الجبال وفى صيف سنة ١٢٢٣ ترك جنكيزخان تركستان ، ثم قضى صيف سنة ١٢٢٤ فى منطقة نهر ايرتيش ، وقبل وفاته فى سنة ١٢٢٧ كان جلال الدين قد رجع الى ايران ، وفى سنة ١٢٢٨

هزمه المغول قريبا من اصفهان ولكنهم اضطروا ــ لفداحة خسائرهم الى الجلاء عن ايران ، وتعقبتهم جيوش جلال الدين حتى نهر جيحون ، ومع هذا فلم تكن هناك خطة لزلزلة حكم المغول في خوارزم وما وراء النهر ٠

وتجمع الروايات، على أن فتوحات المغول كانت مصحوبة بالمجازر البشرية ولكن علماء أوربا لا يدخلون فى اعتبارهم الا حروب الابادة التى كان البدو يشنونها على البلادالمتحضرة ، هذا مع أن البدو لم يكونوا يحققون اتحادهم السياسى الا بعد معارك دامية فيما بينهم بل ربما أبيدت فى هذه السبيل ، وطبقا لخطة ، قبائل بأسرها ، حتى ليصعب علينا أن نعرف أى صرعى جنكيزخان أكثر عددا ، صرعاه فى الاستبس أم صرعاه فى البلاد المتحضرة ، ويصعب أيضا أن نثبت أن فتوحات المغول كانت نفعا خالصا للبدو ، وضرا خالصا لأهل الحضر ، فمثلا لم يكن استيلاء المغول على البلاد المفتوحة نتيجة هجرة كاملة لشعبهم ، كما كانت حال السلاجقة حين استولوا على غرب آسيا ، بل بقيت جمهرة المغول العظمى فى منغوليا واليها رجع جنكيزخان ، وبقيت مقرا لخلفائه أكثر من أربعين سنة بعد وفاته ٠

وفى القانون العام اتبعت قاعدة من قواعد القانون الخاص المغولى بمقتضاها يعطى الأب قبل وفاته قسما من أملاكه لأبنائه الكبار بحسب سنهم ، ويترك الجزء الأهم لأصغر أبنائه ، وبناء على ذلك انتقلت منغوليا وهى الوطن الأم لجنكيزخان الى أصغر أبنائه تولوى وكان جيش جنكيزخان النظامى يتكون من مائة وتسعة وعشرين ألفا من الجند تولى تولوى الرياسة على (١٠١ر٠٠٠) منهم ٠ ويدل هذا العدد على قلة من هاجر من المغول بالنسبة الى الجمهرة التى بقيت فى منغوليا ٠

تكون امبراطورية القبيلة الذهبية

وقسمت البلاد الواقعة الى الغرب من منغوليا على الثلاثة الكبار من أبناء جنكيزخان ، فأخذ كل منهم (٤٠٠٠) شخص

من الجيش النظامى (ووزع الباقى وهو ١٦٠٠٠) على بقية أعضاء العائلة ، ولم توضع الا خطوط عامة لتحديد املاك كل من ابنائه ، وكما كانت القواعد تلزم بأن يكون الوطن الام ملكا للابن الاصغر ، فقد كانت تلزم ايضا بان يستولى الابن الاكبر جوجى على اقصى البلاد المفتوحة بعدا ، وهكذا كانت حصة جوجى تتقدم نحو الغرب جنبا الى جنب مع انتصارات جنكيزخان ٠

فحين كان لا يحكم الا منغوليا ، كانت حصة ابنه جوجى عبارة عن الاراضى الواقعة غربى نهر سيلينغا ، فلما جرت الانتصارات فى الغرب تقرر أن تمتد حصته الى اخر حد تطؤه سنابك خيل المغول وكانت هذه الاراضى تشتمل — منذ عهد جنكيزخان — على استبس القبجاق فى غرب نهر ايرتيش ، وعلى المنطقة التى أبيد فيها الماركيت حتى حدود امبراطورية بلغار الفولجا ، وبعد موت جنكيزخان كانت ممتلكات احفاده من أبناء جوجى تضم هذه المناطق جميعا ، بالاضافة الى كل الامارات الروسية (لم يؤد تدفق المغول على بولندا والمجر ، وبعض مناطق أوربا الغربية ، الى فتح هذه البلاد) ثم ادعى أبناء جوجى أن لهم حقوقا فى أراضى جنوب قافقاسيا وغرب بحر قزوين ، فأدت بهم هذه الادعاءات الى سلسلة من الحروب ضد دولة المغول التى تأسست فى ايران سنة ١٢٥٠ ، ولا توجد اشارة واحدة الى أن هذه الأراضى قد ضمت الى أملاك جوجى ، ابان الغارات على بلاد القاراخيطاى والخوارزميين ، وهى الغارات التى تبدأ ساحتها من نهر ايرتيش ، ثم تتجه جنوبا بغرب الى أبعد من نهر جيحون ٠

ولم تستثن من هذه البلاد الا خوارزم والمدن الواقعة فى الوادى الأدنى لنهر سيحون ، ولابد أن جوجى حين حاول أن يجنب مدينة أوركندى الخراب فى سنة ١٢١ كان ينوى أن يضم منطقة خوارزم الى ممتلكاته ، ولا شك أن الاتحاد بين مناطق حوض الفولجا ، والمناطق المجاورة للمجرى الأدنى لنهر آموداريا تحت ادارة حكومة واحدة ، أمر له أهميته ، فلقد

كانت بين هذه المناطق من اول الامر صلات مدنية ونيسة ولكنها لم تكن قبل ذلك التاريخ ولا بعده (حتى فتح الروس تركستان) موحدة تحت حكومة واحدة ٠

وفى النصف الأول من القرن الرابع عشر كانت خوارزم أكثر ارتباطا بمناطق حوض الفولجا منها بمناطق حوض سيحون ، وفى عهد أوزبك خان كانت العملة تسك باسمه فى خوارزم وفى حوض الفولجا ، بينما كانت تسك فى صوغناق باسم خان اخر ينحدر أيضا من جوجى ٠ وفى اول الامر كانت ممتلكات جوجى وذريته تضم المناطق الشمالية من بلاد القاراخطاى وتضم من اياله (يدى صو) القسم المشتمل على مدينة قاياليق ٠ وعلى الجملة فقد كانت تشتمل الأراضى الممتدة من نهر ايرتيش الى بحيرة (آلاكول) ثم تتجاوز ذلك الى نهرى ايلى وسيحون ٠

وفى أثناء رحلة المبشر الفرنسيسكانى بلانوقاربينى (Plano Carpini) سنة ١٢٤٦ كان ابن جوجى الاكبر اوردا يقيم فى شرق تلك المنطقة فى مكان لا يبعد كثيرا فيما يظهر عن نهر ايرتش ، وأما الجزء الغربى وهو الواقع غالبا بين ايلى وسيحون فقد كان تحت امرة شيبان (بكسر الشين) الابن الأصغر لجوجى (وقد غيرت المصادر الاسلامية هذا الاسم فيما بعد فجعلته شيبان (بفتح الشين) ، وكان ذلك سببا فى أن يسمى أحد احفاده فى أوائل القرن السادس عشر (بالشيبانى) وهذا الحفيد هو مؤسس دولة الاوزبك فى تركستان ، وبالاضافة الى أن هذا الاسم يختلط باسم احدى القبائل العربية ، فقد كانت له قيمة خاصة لأنه اسم عالم مشهور من علماء لأحناف أخذ عن أبى حنيفة وأبى يوسف ، ومن المحتمل أن يكون هذا الاسم المنتشر فى العالم الاسلامى هو الذى حول شيبان الى شيبان وبالتالى الى ظهور اسم (الشيبانى) وفى رواية لأبى الغازى أن شيبان أخذ من أخيه (باطى) الأراضى الواقعة بين ممتلكات (باطى) وممتلكات (اوردا) وذلك بشرط أن

يقضى الصيف على ضفاف ايرغيزواورا وايله ك أو بوجه عام فى شرق نهر يابيق وجبال أورال ، وأن يقضى الشتاء فى قاراقوم و (آراقوم ؟) وعلى ضفاف سيحون وجو وصارى صو ٠

ولا يذكر أبو الغازى وهو مؤلف متأخر عاش فى القرن السابع عشر مصادر روايته ، ولكنا مع هذا نراها متفقة مع ما قال قاربيني وهو معاصر لأوردا وباطى وشيبان ، وقد بسط خلفاء شيبان سلطانهم على أماكن أخرى كثيرة ٠ فكان حفيده ــ كما يروى رشيد الدين ــ قائدا على منطقة الحدود بحوار (تره ك) وظلت ممتلكات شيبان فى أيدى خلفائه حتى القرن الخامس عشر ، ووردت شجرة نسبهم دون اختلاف كبير ــ فى كتابين مختلفين ، كتاب أبى الغازى ، وكتاب (معز الأنساب) وهو مجهول المؤلف ويرجع الى القرن الخامس عشر ٠

القبيلة الذهبية وتقاليد البدو

وكانت الحياة البدوية فى البلاد التى آلت الى أبناء شيبان أكثر تأصلا منها فى سائر البلاد التى انقسمت اليها ممتلكات جوجى خان ، ومع هذا فقد بقى الحكم فيهم أكثر من مائتى سنة ، وهو أمر قلما يحدث عند البدو ، وظل أبناء شيبان ــ لبعدهم عن التأثر بحياة الحضر ــ مخلصين لتقاليد البدو العسكرية ، وبذلك استطاعوا ــ حتى بعد أن خضدت الأيام شوكة أسرة جنكيز فى كل البقاع ــ أن يحافظوا على خصائصهم كغزاة وفاتحين ٠

وتدل هذه الحقيقة ــ بالاضافة الى حقائق أخرى مشابهة ــ على خطأ رادلوف حين علل بقاء الدولة المغولية ــ بالنسبة الى غيرها من دول البدو ــ بتكونها من دول أجنبية ، شعوبها حضرية ، بحيث يمكن القول (فى رأيه) بأنها لم تنشأ عن وحدة قبائل البدو ، ولكن عن اتحاد بين بلاد متحضرة

خضعت لأبناء جنكيز • وهذه البلاد المتحضرة هي الصين وآسيا الوسطى وآسيا الغربية الخ) والحق ان اكثر الدول المغولية استقرارا نشأت في البلاد التي لم تستند الى تقاليد الحكم التي كانت سائدة قبل العهد المغولي (هذه البلاد هي صحارى القبجاق وحوض الفولجا والقرم) ويمكننا لذلك آن نستنتج أن التشكيلات العسكرية التي اوجدها جنكيز لم تكن أقل أهمية لاقرار الحكم من التوجيهات التي كان يأخذها عن أصحاب الحضارات في مسائل الادارة المدنية ولا شك آن هؤلاء كانوا يحاولون دائما أن يزيدوا نفوذهم عند الخانات ، وكان الصينيون منهم خاصة لا يعترفون بمدنية غير مدنيتهم، ويرون أن لا رقي الا بالأخذ بأسبابها وتمثلها ، وبهذا تفسر الروايات الصينية عن الوزير ، يه ــ لو ــ جو وعن دوره في دولة المغول (لم يكن هذا الوزير صيني الأصل ، بل صيني الثقافة والتربية ، وأصله من القاراخيطاى) ، بل تروى المصادر الصينية ، أن هذا الوزير هو المؤسس الحقيقي لدول المغول •

ومع أن المصادر غير الصينية لا تشير الى هذا الوزير • فقد قبل بلوشيه وهو الناشرالأوربيلكتاب رشيدالدين، رواية المصادر الصينية ، فعنده مثلا أن (يه ــ لو ــ جو ــ تساى) هو أول من بين للمغول عدم جواز القتل العام والسلب والنهب ، وعنده أيضا أن دولة جوجي خان كانت وحدها بعيدة عن نفوذ (يه ــ لو ــ جو ــ تساى) وعن نفوذ ممثل الحضارة الصينية بعامة ، فظلت لذلك متردية في حمأة من البربرية لا توصف •

حضارة القبيلة الذهبية

والواقع أن القسم الغربي من ممتلكات جوجي ، حيث ولي الأمر ابنه الثاني باطي ، وصل في عهد المغول الى درجة عالية من المدنية (كان باطي أعظم حاكم في كل ممتلكات جوجي) وفي ذلك العهد توطن المغول في بلاد بلغار الفولجا

بعد أن آبادوهم ، ولكنهم منعوا بان ياخذوا الجزية من أمراء الروس ، وبان يرسلوا اليهم نوابا يمثلونهم ، وكان البلغار قد طوقوا المغول في سنة ١٢٢٢ وهم في طريقهم من روسيا الى جنكيزخان • ولم يستطع المغول شق طريقهم الا بتضحيات كبيرة ، فلما فتح المغول بلاد البلغار سنة ١٢٣٦ ، ثاروا من الأهالى وخربوا عاصمتهم ، ومع هذا فما لبثت عاصمة البلغار أن بنيت من جديد ، بل ان الآثار والنقوش الموجودة بها الآن ترجع كلها الى العهد المغولى •

وفى وقت ما كانت مدينة (بلغار) هى المدينة الوحيدة فى بلاد اولاد جوجى التى تسك فيهـا عملة خانات المغـول ، وتدل النقوش على ان الشعب كان يحتفظ حتى بداية القرن الرابع عشر بلغته القديمة التى ترجع الى ما قبل العهد المغولى • (وتمثل لغة الجوفاش الحالية آخر أثر لتلك اللغة) • ولكنه استسلم بالتدريج لنفوذ اللغة التركية القبجاقية التى أصبحت هناك ـ كما أصبحت من قبل فى آسيا الوسطى ـ لغة رسـمية للدولة ، ويحتمل ان تكون المدن التى أسست فى عهد المغول على المجرى الأوسـط للفولجا تركية خالصـة مثـل مدينـة (قازان) •

ومنذ عهد باطى كانت المدن الجديدة تشيد عـلى المجرى الأدنى للفولجا • ويقول الراهب روبروق انه رأى فى سنة ١٢٥٣ فى طريقه الى منغوليا قصبة أسسها التتار سكانها من الروس والمسلمين وكان السفراء يذهبـون الى سراى باطى ويرجعون منها عبر النهر : ولا شك أن هـذا الوصف خاص بالمكان القريب من ساراتوف والذى سمي متأخرا (أوكهك) . Oukek

ويذكر روبروق أنه رأى أثنـاء عودته مدينـة جـديدة أسسها باطى على نهر اتيل (الفولجا) واسـمها (سراى) ، ويقول ـ وقد مر بنفسـه من هـذه المدينة ـ ان قصر باطى ومدينة سراى يقعان على الضفة الشرقية ، ولكنه لا يصـف المدينة ولا القصر •

وقريبا من نفس هذه الأماكن ، على الفرع الأوسط للفولجا ، كانت توجد من قبل المغول مدينة (سومر كنت) التي يقال ان المغول حاصروها ثمانية أعوام ولم تذكر هذه المدينة في أي مرجع آخر ، وما زلنا نجهل الى اية أمة تنتسب وهل هي — كما قال مؤلف القرن الثاني عشر ابو حامد الغرناطي ، وغيره — نفس مدينة ساقسين التي كانت بأيدي الغز ، أم أنها مدينة أخرى . ومازال موقع ساقسين هذه من المسائل الخلافية ، ولكن يبحث عنها بوجه عام عند منابع (يايق) أو منابع الفولجا (وعلى هذا فلا علاقة بين مدينة ساقسين المعروفة في القرن الثاني عشر وبين المدينة البلغارية (ساخسين) التي يذكرها محمود الكشغري . ويقرر (انها هي مدينة سووار بعينها) وعلى كل حال فلم يرد في أي مصدر أن المغول لاقوا مقاومة عنيفة في ساقسين . ومازالت مشكلة تحديد مكانها بغير حل ، اذ لم يستطع العالم الفرنسي جابرييل فراند Gabriel Ferrand ناشر كتاب الغرناطي في سنة ١٩٢٥ أن يحدده .

وكلمة سراى كلمة فارسية أخذها الترك في زمن مبكر ووردت في كتاب (قوتادغو بيليك) وكان المغول يطلقونها على مقام الخان . ثم اتسع معناها فأطلقت أيضا على المدن التي تنشأ حول السراى . ومن ذلك مثلا قرية (سراى) الواقعة شمال ترمذ على نهر جيحون . و (سراى) الواقعة على الفولجا ثم (باغجه سراى) بالقرم . وقد ثار الجدل في كتب العلم حول (سراى) الفولجا : هل هي نفس (يكى سراى) المسكوكة على بعض العملات والواردة في بعض المخطوطات ، ويتبين بالنظر الى أقوال روبروق أن أول (سراى) أسسها (باطى) كانت في مكان الخرائب المحدقة بقرية سه لتيرن Selctrennyi الحالية ، وأما (سراى) الأخرى التي أسسها أخوه (بركة) فقد كانت في مكان (تساره ف) Carev وكانت — كما تدل خرائبها ، وكما تدل نتائج الحفريات — ذات قيمة تاريخية أكبر من (سراى) الأولى .

وتوجد فى وقتنا هذا محاولات لاثبات أن (سراى) التى أسسها أيضا (باطى) لاتوجد وحدها فى مكان سيلتيره ن، بل توجد معها أيضا (سراى) التى أقامها (بركة) • وأما (يكى سراى) التى كانت فى مكان (تساره ف) ، فيظن أنها لم تؤسس الا فى زمن الاوزبك ، وانها بلغت شأوا بعيدا فى عهد جانبك ومع هذا فان المصادر تسمى (سراى) ، التى كانت موجودة فى عهد الأوزبك . (بركة سرايى) وقد وصلت الى أيدينا عملة نقدية سكت فى (يكى سراى) فى سنة ٧١٠ هجرية ، أى قبل سلطنة الأوزبك ، وبالاضافة الى هذا فقد قيل لى ان باستانبول مخطوطة فى علم الكلام حررت فى (يكى سراى) سنة ٧٠٥ هجرية ، ويلاحظ أن المدن فى جنوب روسيا فى عهد المغول كانت توصف كثيرا بكلمة يكى ، أى جديد ، ومن الصعب أن نتصور وجود مدينتين تحملان اسما واحدا ، احداهما جديدة ، والأخرى قديمة ، والأرجح أن كلمة (يكى) كانت تطلق على الأحياء الجديدة على اعتبارها مدنا •

العملة

وكانت الحياة الحضرية فى عهد خلفاء باطى وبركة تتطور وترقى ، على العكس منها فى الأقاليم الشرقية من ممتلكات جوجى ، ففى عهد هؤلاء الخلفاء (أى خلفاء جنكيز) أسس عدد من المدن كانت تسك بها العملات ، ومما يلفت النظر أن كل مدينة كانت لها عملة خاصة تختلف شكلا ورسما عن عملة غيرها مع تقارب قيمة العملتين ، ومع هذا فقد كان شكل العملة فى عهد المغول ، أكثر تقاربا منه قبل ذلك العهد وبعده •

وقد ظهر فى كل الدول التى أقامها المغول ــ ما عدا دولتهم فى الصين ــ نظام خاص للعملة ، فكانت أكبر قطعة من النقد الفضى تسمى (دينارا) وأصغر قطعة تسمى (درهما) وكان الدينار يساوى ستة دراهم ، وقد ثبت وزن الدرهم فى عهد خلفاء جوجى ، على ثلث مثقال ، ثم طبق هذا

الوزن فيما بعد فى اسيا الوسطى وايران مما يوضح أهمية ممتلكات خلفاء جوجى ـ وبخاصة خـوارزم ـ فى التجـارة الدولية فى ذلك الوقت ٠

وكان لـكل مدينـة طابع خاص يظهر فى شـكل العملة ونقشها ونوع حروفها وهنا يرد سؤال : الى اى مدى يمكن أن يساعدنا العلم بمستوى المدنية فى تلك المدن المتعددة على معرفته فى امبراطورية أبناء جوجى بوجه عام ؟ ٠

لقد بدأ العلماء ـ استنادا الى الاكتشافات فى (سراى) وغيرها من الأماكن ـ يبرزون طابع مدنية التتار والآلتون أوردو ، (وهو الاسم الذى يطلق فى الحوليات الروسية على امبراطورية باطى ، ولم يستعمل هذا الاسم فيما أعلم فى المصادر الشرقية) ٠

ومهما يكن فلابد من عمل طويل متواصل لكى نعرف فى كل مدينة على حدة ـ أى العناصر القومية كان أكثف عددا ، ولكى نعرف أيضا بصـورة واضحة ، كيف تم هـذا الرقى المدنى الذى كلل بانتصار الاسلام واللغة التركية ٠

النظام السياسى ودولة القبيلة الذهبية

لم يكن للعنصر المغولى منزلة كبيرة عند القبيلة الذهبية ، والظاهر أن اللغة التركية سـادت بسرعة ٠ وبخاصـة بعد انقطاع العلاقات بين القبيلة الذهبية ومنغوليـا وكان باطى وبركه يشتركان معا فى ادارة أمور الامبراطورية كلهـا ٠ وسافرا من أجل ذلك الى منغوليا ولـكن روبروق يقـول فى سنة ١٢٥٣ ان الامبراطـورية كلها قسـمت بين باطى وبين مانغو الذى كان يعيش فى منغوليـا ٠ وكانت الحـدود بين المنطقتين تشق المنطقة الواقعة بين نهرى جو وتالاس ٠ ويقول المؤلفون المسلمون ان مدن ما وراء النهر ٠ انتقلت من حـكم (باطى) الى حكم (بركة) ولم تقم حكومة آلغو (وهو حفيد الابن الثانى لجنكيزخان : جغتاى) فى آسيا الوسطى الا سنة

١٢٦٠ ثم اتسعت أراضيها فشملت اراضي كانت تابعة من قبل القبيلة الذهبية واحتل (الغو) خوارزم ، وبعد بضع سنوات أخذ (اوترار) مرة من يد (بركه) ، وخربها ٠

ومع ان هذه المناطق ما لبثت ان ضمت من جديد الى بلاد القبيلة الذهبية ، فان نفوذ الخانات لم يزد امتدادا نحو الشرق ، وفي عهد بركة (١٢٥٧ ـ ١٢٦٦) استقل خان القبيلة الذهبية ، بعد أن كان أحد أركان امبراطورية المغول، ولكن خلفه الخان مانغوتيمور كان أول من سك العملة باسمه ، وكان كل الخانات المنتمين الى أسرة جوجي ٠ ومن بينهم ابناء أوردا وشيبان تابعين نظريا ـ لخان القبيلة الذهبية دون أن يكون لهذه التبعية أية أهمية ، ويضيف بعض المؤرخين كلمة (كوك) الى عبارة (الآلتون اوردو) (أى القبيلة الذهبية) كما يصفون حكومة خلفاء آوردا بكلمة (آق) وهما كلمتان تركيتان غير مغوليتين الأولى بمعني أزرق والثانية بمعنى أبيض ، ومع ذلك فان بعض المصادر تطلق عبارة (كوك أوردا) على بلاد خلفاء أوردا ، ويقول مؤرخ مجهول الاسم عاش فى بداية القرن الخامس عشر ان وصف الجزء الشرقى من بلاد أوردا بكلمة (آق) والجزء الغربى بكلمة (كوك) بدأ بعد الحروب التي نشبت بين الخان (توختة) (١٢٩٠ ـ ١٣١٢) وبين الأمير الثائر ضده نوغاى الذى قتل سنة ١٣٠٠ (اسمه الحقيقى باللغة المغولية (نوغتاغا) كما هو ثابت فى كتاب أرسله الخان المغولى بايران الى ملك فرنسا سنة ١٣٠٥) ويقرر هذا المصدر أن خانات الآق أوردا كانوا من ذرية نوغاى ، وهو أمر مخالف للحقيقة ، يدل على الخلط الذى أصاب تاريخ أبناء جوجي بايران فى القرن الخامس عشر ، حيث حرر المؤلف كتابه ، ويسمى أبو الغازى بلاد شيبان (آق أوردا) ٠

واذا غضضنا الطرف عن بلاد أحفاد أوردا وشيبان ، فلا يمكن القول بأن الآلتون أوردا كانوا أكثر اتحادا من كل من سبق من أبناء جنكيز ٠

وفى كثير من الأماكن كان يوجد امراء يعترفون بحكم الخان ، ولكنهم يملكون فى نفس الوقت جيوشا خاصة بهم ، ويروى مؤلف مصرى أثناء حديثه عن المدينة التجارية (سوداق) أن دخل المدينة كان يقسم بين أربعة أمراء من التتار ، ولكن لم يبق بكل مناطق القبيلة الذهبية الممتدة من الطونة الى خوارزم فالمجرى الأدنى لسيحون أية أسرة حاكمة تابعة من عهد ما قبل المغول .

اللغة التركية فى عهد القبيلة الذهبية

وكان المغول قد جاءوا للقبيلة الذهبية ــ كما جاءوا فى كل مكان ــ بالأبجدية الأويغورية التى لم تكن معروفة حتى ذلك الزمان فى بلاد القبجاق ، وبين أيدينا فرمانات من القبيلة الذهبية مكتوبة بالحروف الأويغورية وترجع الى نهاية القرن الرابع عشر ، كما أن لدينا قطعا من آخر عملة سكها الخان (توختاميش) ، وقد نقش عليها اسمه بالحروف الأويغورية ومع هذا ، فلم نر هذه الحروف استعملت الا على العملة المضروبة فى (سراى) ، وحتى ذلك لم يكن بصفة دائمة ، وتدل هذه القطع النقدية على أن المغول وبعض الترك ، كانوا ينطقون أسماء الخانات محرفة ، لأنها مكتوبة بالحروف العربية ، فمثلا كان اسم جانبك (١٣٤١ ــ ١٣٥٧) يكتب بالحروف الأويغورية (جا مبه ك) ويدل كلام أبى الغازى على أن لسان المغول لم يكن منعدم الاستعمال فى القرن الخامس عشر ، ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك ومهما يكن ، فانا لا نعرف عملة للقبيلة الذهبية نقشت بالحروف المغولية . ولكنا نجد عملة عليها العبارة التركية : (قوتلوغ بولسون) أى (أسعده الله) وهى قطع لا تحمل اسما وترجع الى عهد متأخر .

ولم يسمع ابن بطوطة فى زيارته معسكر أوزبك خان الا كلمات تركية فعند نساء القصر مثلا كانت عبارتا (أولوخاتون) و (كوجوك خاتون) تستعملان بمعنى

(السيدة الكبيرة) و (السيدة الصغيرة) وكان الخان نفسه يصف مربيه الروحي وهو من السادات بكلمة (آتا) وهى كلمة تركية بمعنى الأب : وكانت اللغة التركية تستعمل فى العبارات الاسلامية وفي مدينة آزاق ، سمع ابن بطوطه رجلا يعظ بالعربية ، وبعد ان دعا للسلطان (وهو فى ذلك الوقت أوزبك خان) ولحاكم المدينة (وأصله خوارزمى) ، وللحاضرين ، عاد فقال عظته بالتركية ، ولم يكن هذا فى مسجد بل فى مأدبة ، وكانت العادة فى ذلك الوقت أن يقرأ القرآن الكريم ثم تنشد بعد ذلك القصائد الدينية العربية والفارسية والتركية ، ويضيف ابن بطوطة أن القصيدة الدينية العربية كانت تسمى (قولا) وأما الفارسية أو التركية ، فكانت تسمى (ملمعا) ثم أطلقت هذه الكلمة فيما بعد على الكلام المركب من العربى والفارسى والتركى .

الاسلام في القبيلة الذهبية

ولابد أن أثر أتراك خوارزم ، وآسيا الوسطى فى نشر الاسلام فى القبيلة الذهبية ، كان أكبر من أثر بلغار الفولجا، وكان الأتراك المحليون (القبجاق) يتعرضون من قبل عهد المغول — للتأثير المسيحى الوافد من روسيا وغرب أوربا وفى العهد المغولى نفسه لم يفتر الترويج للنصرانية ، وآية هذا وجود معجم قبجاقى — قومانى ، يرجع الى آخر القرن الثالث عشر ، ويحوى ترجمة تركية للانجيل ، ولبعض الأناشيد الكاثوليكية ، وتؤكد هذه الترجمة علم مروجى المسيحية باللغة ، وقد رأى ابن بطوطة فىالقرم بين كفه Kaffa وكـ ـر Kerch قوما من القبجاق يدينون بالنصرانية ، وكان بالقرم نصارى محليون ينتسبون الى عنصر قومى آخر ، وفى سنة ١٣٨٢ توفى بالقاهرة أنس ، أبو سلطان مصر الجركسى القرمى برقوق ، ويقال ان أنس هذا كان نصرانيا ثم أسلم. وانه لم يستطع — حتى فى مصر — أن يحسن العربية

ولا التركية ، وظل يتكلم الجرجسية . وكان الترجمان ـ بسبب ذلك ـ لا يفارقه .

ولما كانت المدنية الاسلامية هي العليا في ذلك الوقت ، فقد دخلت في الاسلام أقوام كانت أرسخ قدما في التقاليد المسيحية من القبجاق .

وبينما كان المؤلفون ، ومن بينهم (رو بروق) يؤكدون أن اللان وال (آس) كانوا نصارى ، فقد قابل ابن بطوطة في (سراى) قوما من الأس يعتنقون الاسلام ولم يدخل هؤلاء النصارى في الاسلام بالاكراه ، بل كان قساوستهم ـ مثلهم كمثل مشايخ المسلمين ـ يعفون من الضرائب ، وفي عهد (بركه) المسلم أسست في (سراى) سنة ١٢٦١ أبروشية مسيحية . ووردت فيما بعد روايات مختلفة عن دخول بركة في الاسلام فيقول أبو الغازى ان بركة دخل في الاسلام وهو خان ، على يد تاجرين وافدين من بخارى . وتقول روايات أخرى انه دخل الاسلام قبل اعتلائه العرش بتأثير بعض مشايخ خوجند وبخارى (ويذكر في هذا الباب اسم سيف الدين البافرزى المتوفى سنة ١٢٨١) ، وقد نسبت الى (بركه) فيما بعد احدى مناقب أوغورخان الواردة في رشيد الدين ، وخلاصتها أن أوغور خان رفض أن يرضع لبن أمه لأنها كافرة ، ويفهم مما حكى روبروق أن بركة كان مسلما في سنة ١٢٥٣ أى وباطى لايزال على قيد الحياة وأن لحم الخنزير لم يكن يؤكل في أوردا بركة ، ومن الجدير بالملاحظة أن تحريم لحم الخنزير مطبق حتى في الأماكن التى يصعب فيها هذا التطبيق مثل الصين حيث يعتبر هذا اللحم الغذاء الرئيسى للشعب ، وكان أوردا بركة يقع في ذلك الوقت بين دربند والفولجا ، أى ـ كما يقول روبروق ـ على الطريق الذى يمر به كل المسلمين الآتين من ايران وتركيا ، وكان هؤلاء المسلمون حين يأخذون طريقهم الى باطى ، يحملون الهدايا الى بركة ، ثم يضيف روبروق أن باطى أمر بركة

في سنة ١٢٥٤ بان ينتقل الى شرق الفولجا ، لكي لا يأخذ هذا الجزء من الهدايا التي يحملها له السفراء ، وقد وثق اواصر الصداقة بين بركه وبين سلطان مصر عداؤهما المشترك لمغول ايران ، وبهذه المناسبة استقبل بركة عدة سفارات من قبل سلطان مصر ·· يرجع اليها الفضل في وصف الأوردا ، وأحواله الخارجية ، ولم يكن الخان وحده هو المسلم بل كان نساؤه ورجال حاشيته مسلمين ، وكان لكل سيدة ولكل امير امام ومؤذن · وكانت مدارس تحفيظ القرآن للصبيان كثيرة · ومع هذا كله فقد كانت تتبع هناك بعض عادات المشركين المتبعة في منغوليا ، فمن ذلك عادة تتعارض مع تقاليد الاسلام وهي عدم استعمال مياه النهر لا للغسل ولا للاغتسال وقد نبه على سفراء مصر مقدما بألا يغسلوا ملابسهم في الأوردا· ولكنهم ــ لشدة حاجتهم لذلك ــ كانوا يغسلونها سرا · ولم يكن بد لمعاصري بركة ممن جاءوا الى مصر من أن يتأثروا بالمدنية الاسلامية أكثر من أي شيء آخر ·

ومن المعلوم ان بركه زوج ابنته للسلطان بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧) ومن هذا الزواج ولد أول ابن لبيبرس وهو الملك السعيد خان محمد المسمى في نفس الوقت ناصر الدين بركه خان · أي أن له ــ كما يتضح ــ اسما مغوليا الى جانب اسمه الاسلامي ·

ويذكر المؤرخ المصري الكتبي صاحب (عيون التواريخ) أن ناصر الدين بركه خان هذا ولد سنة ٦٥٨ = ١٢٦٠م · (ويوجد هذا الجزء من مؤلفات الكتبي مخطوطا في استانبول) وهذا مستحيل ، لأن العلاقة بين بركة وبين حكومة مصر لم تبدأ الا سنة ١٢٦٢ ، وفي نيسان ١٢٧٩ ذهب السلطان الصغير الى الشام مع أمه بنت بركه خان ، وبعد ذلك بقليل قامت بسورية ثورة ، وأرسل السلطان أمه لتهدئتها ، وخرج الأشراف لاستقبالها ، فخروا سجدا أمام التختروان ، وفرشوا كعادتهم الأرض تحت أقدام الخيل ، ولكن محادثاتها

لم تنجح فأرسل السلطان امه الى قلعة كراك حيث نفي هو فيما بعد ، وكان هذا السلطان كما يروى (الكتبى) جوادا ذا مرحمة بريئا من الظلم والكبر وظهر سخاؤه فى كراك حتى أثار شبهة حمية قلاوون كما يقال ، وظلت زوجتـه (غزية خاتون) بنت قلاوون تبكيه حتى ماتت (عاشت هذه السيدة حتى سنة ١٢٨٨ وفى سنة ١٢٨١ جاءت بجثته الى دمشـق ودفنته فى تربة بيبرس) ٠

ويصرح سفراء مصر بأوردا بركه خان بانه لم يرزق الا اناثا ، ولكن الكتبى يذكر أن الأمير بدر الدين محمد بن بركة خان ، وخال ابن بيبرس توفى بالقاهرة فى فبراير سنة ١٢٨٠ ، ويروى أن لهذا الأمير ديـوان شـعر عـربى ، وكتبا فى الكلام ، وتفسيرا للقرآن ، وأنه سـقط من مكان عال فقضى فى الحال وسنه خمسون سنة ٠

انقسام القبيلة الذهبية

وبعـد وفاة بركه خان ، ولى الأمر من جـديد خانات مشركون ، ولم يستقر الاسلام نهائيا الا فى عهد آوزبك خان (١٣١٢ أو ١٣١٣ ــ ١٣٤٠) ، ويروى ابن بطوطة أن معلم آوزبك خان هو سيد بن عبد الحميد ، وتقول رواية أخـرى ان الشخص الذى هداه الى الاسلام وسماه السـلطان محمد أوزبك خان هو الشيخ سيد آتا التركستان المدفون بطلقشند وأحد خلفاء زنكى آتا (والاسم الأصلى للشيخ سيد آتا هـو أحمد) ٠

وكان ذلك فيما يقال فى سنة ٧٢٠ هجرية الموافقة لعام الدجاجة (١٣٢١) وتروى عن هذا الشيخ أسطورة خلاصتها : أنه قاد شـعب أوزبك خان الى ما وراء النهر حيث تسـمى الشعب باسمه (أوزبك) وأما القاعدون عن الهجرة معـه ، والباقون فى تركستان فقد سموا (قالمق) = أى (المخلفون) ولا شبهة فى آن هذه الرواية من صنع الخيال ، ومع هـذا

فان بعض المصادر ومنها ابو الغــازى تقـرر أن اسم شـعب الأوزبك مشتق من اسم (أوزبك خان) ولا شـك ان هـذا الرأى أرجح من الرأى القـائل بأن أوزبك معنـاه : (حاكم نفسه بنفسه) وهو رأى كثير من العلماء ومن بينهم رادلوف ٠

ويسمي مؤرخو القرن الخامس عشر بلاد جوجي خان او شعبه باسم (شعوب أوزبك) = (اوزبك او لوسلرى) وفى آسيا الوسطى صارت كلمة اوزبك بمعنى شعب مرادفة لكلمة (جاغاتاى) التى كانت تطلق على بدو تركستان الذين تتكون منهم القوات العسكرية للخانات المحليين ، وكان المشـايخ فى آسيا الوسطى لا يكفون عن العمل لادخال خانات آوردا فى الاسلام حتى نجحوا فى النهـاية ، وفى سـنة ١٣٦٠ أقام عزيز خان ، واسمه المنقوش على العملة ، هو (عزيز شيخ) حكومة فى سراى ٠

ولما كان هذا الشيخ سفيها فقد نصـحه السـيد محمـود اليسوى حفيد أحمد اليسوى وسـمع الخان للشـيخ وزوجه ورجع عن غيه ، ولكنه ما لبث بعد ثلاثة أعوام أن عاد الى حياة المجون الى أن قتل ٠

وفى النصف الأول من القرن الخامس عشر ٠ كان شعب (أوزبك) المنظم عسكريا يعتبر شعبا موحدا ، فلما اضمحلت القبيلة الذهبيـة بالتـدريج ٠ وفقدت أجزاؤها المختلفـة استقلالها لم تعد كلمة (أوزبك) فى جنوب روسيا علما على أمة أو على دولة ، بل صـارت لا تدل الا عـلى القبـائل التى هاجرت الى تركستان ٠

وكما كان الروس يطلقون كلمة تتار على شعب الآلتون أوردا (القبيلة الذهبية) أيام كان يتكلم المغولية ، فقد ظلوا يطلقون عليه نفس الاسم بعد أن تتركت المنطقة كلها ، وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كان الروس يطلقون كلمة تتار على كل الخانيـات المتصـلة بهم فى القرم وقازان وآزدرخان (اصطراخان) وسيبريا ، ومن المعلوم أن أطـول

هذه الخانيات عمرا هى خانيه القرم ، ويلاحظ أن اصطلاح تتار قد تأصل فيها أكثر منه فى غيرها •

ولما احتل العثمانيون القرم سنة ١٤٧٥ أطلقوا هم على أهاليها كلمة تتار ، ومن المعروف أن أهل القرم يرفضون الان هذه التسمية ويسمون أنفسهم الترك ، هذا على حين ان الطبقة المتقفة من سكان وادى الفولجا قد اعتبرت كلمة (تتار) (وذلك بعد بعض المناقشات) اصطلاحا قوميا وترتب على ذلك ظهور (جمهورية التتار) وكان الروس فى وقت ما يستعملون كلمة تتار على نطاق واسع ، حتى ان رادلوف كان يسمى الأوزبك ــ كما كان يسمى كل الناطقين بالتركية فى آسيا الوسطى ــ تتارا ، وجرت محاولات منذ ذلك الوقت لتحديد مفهوم كلمة (تتار) ولكن لم يمكن حتى الآن تثبيت الفروق اللغوية والاتنوغرافية بين التتار وبين الأقوام التركية الأخرى •

وتذكر المصادر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، قوما غير التتار لهم وحدتهم الاتنوغرافية واللغوية والسياسية ، ولهم أمراؤهم (النوغاى) وكان مركزهم فى ذلك الوقت هو (سرايجق) الواقعة بالقرب من منبع (ياييق) والتى تضم مدافن خانات الآلتون أوردا •

وقد خلط كثير من المؤلفين ــ وأولهم أبو الغازى ــ بين سرايجق هذه وبين يكى سراى وفقد النوغاى كيانهم السياسى، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، عندما كون قازاق الياييق جيشا • وكان هؤلاء القازان ، فى أول أمرهم، مستقلين عن موسكو ، ولكنهم ما لبثوا أن أخضعوا لقيصر روسيا فى القرن السابع عشر ، ومما تجدر ملاحظته أن الروس كانوا ــ فى ذلك الوقت ــ يستعملون وحدهم اصطلاح (نوغاى) •

فأما المصادر الشرقية وعلى رأسها أبو الغازى ، فكانت تطلق عليهم اسم مانفيت وهو اسم أحد الأقوام التى تتركت،

والآن حدث العكس اذ تستعمل كلمة نوغاى فى آسيا الوسطى بمعنى أوسع مما كان لها في روسيا حتى انها لتطلق هنـاك على التتار القاطنين وادى الفولجا ٠

وفى جنوب روسيا الآن تطلق كلمة نوغاى على قوميـة خاصة بالقرم وشمال قافقاسـيا ٠ وتختلف لغة النـوغاى ـ بوصفهم شعبا لم يظهر الا فى العهد المغـولى ـ عن لسـان القاراخاى والبلغار ، فان هذين اللسانين أقدم منها وأقرب الى لغة القبجاق قبل العهد المغولى ٠

والآن فمازالت لدينا مسائل غامضة : كيف كانت حياة الترك القومية والسياسية فى آسيا الوسطى طوال القـرنين الثالث عشر والرابع عشر ؟ وكيف تم تترك المغول ؟ هذا هو موضوع المحاضرة القادمة ٠

المحاضرة العاشرة :

المغول فى آسيا الوسطى

اضطراب الموقف السياسي

بينما كان لخانات القبيلة الذهبية — فى أول امرهم — نوع من الاستقلال بفضل بعد بلادهم عن منغوليا ، كان النظام السياسى في المناطق التي غزاها المغول بتركستان ، وفى آسيا الوسطى بوجه عام ، مائعا مطموس المعالم · ولا شك فى أن جنكيزخان كان يريد أن يخلف كل البلاد التى فتحها في غرب منغوليا لأولاده الثلاثة الكبار · بل لا شك أيضا فى أن هؤلاء الأبناء قد مارسوا الحكم فى هذه المناطق وأبوهم على قيد الحياة ، ولكنهم — مع هذا — لم يحددوا المنطقة التي يحكمها كل منهم كما لم يحددوا مدى نفوذ كل منهم بالنسبة لنفوذ الرئيس الأعلى للامبراطورية ·

ومما تجدر ملاحظته أن (أوردا) كل منهم كان قريبا من (اوردا) الآخر رغم ترامى أطراف الامبراطورية ·

كان (اوردا) جوجي على المجرى الأعلى لنهر ايرتش وتقول المصادر القديمة انه مدفون هناك ، وان كان قبره قد ظهر فيما بعد فى مكان بعيد نحو الغرب وهو (صارى صو) الواقعة في ملك شيبان ، مما يتفق مع قاعدة المغول التى تقضى بأن يرث الابن الأصغر (اوردا) الأب ، والى جوار ايرتش عاش فيما بعد ، (اوردا) (١) الابن الأكبر لجوجى ،

(١) كلمة أوردا فى هذه الجملة اسم علم · وليست بمعنى معسكر وهو المعنى الذى ورد قبل ذلك ·

وكان ملك الابن الثالث (اوكه دى ى) = Ogedey أبعد نحو الجنوب على ضفة نهر (اميل) الذى يصب في بحيرة الاكول، ودفن أوكده ى كما يرون رشيد الدين فوق جبل عال ينبع منه أحد فروع نهر ايرتش ويقع على مسيرة يومين • ويتحدث الراهب الصيني جان ــ جو Tch,ang - Tchouen وقد مر بأوردو المغول سنة ١٢٢١ ، عن طريق أنشيء عبر الألتاى بأمر من أوكه دهى ، ويمكن أن نستنتج من هذه الرواية أن اوكده ى كان يعتبر نفسه حاكما على تلك النواحي حتى في حياة أبيه، ولم نستطع حتى الآن أن نجد فى أى مصدر تحديدا لبلاد (اوكده ى) وكل ما لدينا هو قول الجويني : « كان وطن آوكدى ــ وأبوه حي ــ داخلا فى حدود اميل وقوبوق » ومن المعلوم أن هذين النهرين ينبعان تقريبا من مكان واحد ، ثم يجرى أحدهما غربا والآخر شرقا • وأما (اوردا) الابن الثانى جاغتاى ، فقد أورد عنه الجويني معلومات أصدق وأيقن فقد كان يقع على روايته فى (قوياس) المجاورة لآلماليق ، وأما البلاد التى يحكمها فكانت تمتد من حدود بلاد الاويغور الى سمرقند وبخارى ، ويؤخذ من « روايات جان ــ جون أن جاغاتاى هو أول من فتح الطريق المار بجوار بحيرة سايرام ، عبر جبال تالكى ، وأنه أيضا أقام الجسور من جديد على نهر جيحون بعد أن دمرت فى حرب سنة ١٢٢٢ ونعلم من مصادر أخرى أن (قوياس) و (اوردا) جاغاتاى كانا بمنطقة قولجه فى جنوب نهر ايلى، ولقد رأينا فى كتاب الكشغرى أن (قوياس) مدينة تقع خلف بارسخان ويقول فى مكان آخر ان (قياس) اسم بلاد تخسى وجكيل ، وهى ثلاثة حصون يسمى أحدها (سابليغ قياس) والثانى (أورنك قياس) والثالث (قراقياس) •

(انظر ديوان لغات الترك ج ٣ ص ١٢٩) •

ويذكر الجوينى (اوردا) جاغاتاى وخلفائه الأولين باسم (اولوغ او) أى البيت الكبير ، ولا شك أن لاطلاق هذه

الكلمة (اولوغ او) على مصر الخان فى هـذا الوقت المبكر أهمية خاصة ، وليست لدينا معلومات عن المكان الذى دفن به جاغاتاى وخلفاؤه ٠

وهكذا كانت بلاد أبناء جنكيز الثلاثة تشغل مكانا أصغر نسبيا اذ كانت تمتد من المجرى الأعلى لايرتيش الى جنوب ايلى ٠ ويستنتج من هذا أنه لا يمكن اعتبار (الاورداوات) الثلاثة عواصم لثلاث حكومات مختلفة ، وتظل مسألة علاقات جاغاتاى وأوكده ى بمنغوليا مبهمة ، فبعد موت جنكيز انتخب اوكده ى امبراطورا ونقل عاصمته الى منغوليا حيث شيد مدينة قاراقوروم ، وبنى بها وحولها عددا من القصور ، ثم بدأ يمارس حقوقه فى الحكم غير ناظر الى أى حق لتولوى بوصفه وارث منغوليا ٠٠ الوطن الأصلى لأبيه ٠

أما فيما وراء النهر ، فقد كان الحكم بيد محمد يلواج المعين من قبل أوكده ى رغم أن الأراضى الممتدة الى سمرقند وبخارى كانت خاضعة لجغتاى ٠

كان الوضع اذن هكذا سنة ٦٣٦ (١٢٣٨ ـ ١٢٣٩) أى وقت واجه المغول فى بخارى ثورة الشعب وخاصة الفلاحين ، وبعد ذلك التاريخ بقليل عزل جغتاى محمودا من منصبه دون أن يستشير أخاه أوكده ى وعين مكانه حاكما آخر ، فلما شكا محمود الى أوكده ى ، استوضح أخاه الأمر فرد عليه معتذرا ، ولم يكتف أوكده ى بقبول العذر ، بل أقطع أخاه جغتاى كل ما وراء النهر وقد استعمل فى هذا المقام الاصطلاح المغولى (انجو) (بمعنى اقطاعية الأمير أو مخصصاته) التى يستطيع بايرادها أن يسهم فى سد حاجات البلاط ، وكان لكل أمير بالاضافة الى ذلك الحق فى أن يحكم عددا من القبائل أى (أولوس) ، وكان من الممكن الظن بأن الحكام المعينين من قبل جاغاتاى كانوا يحكمون بعد ذلك بلاد ما وراء النهر ، ولكن رشيد الدين يروى أن والى (قاراخوجو) و (بش باليق) (أى بلاد الأويغور ، وختن ، وكاشغر ، وآلماليق ، وقاياليق ،

وسمرقند ، وبخارى حتى ضفاف جيحون) فى عهد (أوكدەى) هو مسعود بن محمد يلواج وكان معينا من قبل أوكه دى ، وأما محمود يلواج نفسه فقد عين حاكما عاما على بكين وتوفى سنة ١٢٥٤ وهو فى هذا المنصب ٠

ولم يستطع المؤرخ الفارسى (الجوزجانى) ان يفهم هذا الوضع السياسى ، فقرر خطا ان مسعود بك كان وزيرا لجغتاى ٠ ونحن نعلم أن مسعودا كان يمارس حقوق الحكم على المنطقة الواسعة الممتدة من بش باليق الى سمرقند وبخارى وأن هذه المدينة كانت تبجله ، فقد أنشأ بها مدرسة كبيرة تعرف بالمسعودية ، خربها مغول ايران سنة ١٢٧٣ ثم اعيد بناؤها ثم دفن بها بانيها سنة ١٢٨٩ ، ونعلم أيضا انه انشأ (مسعودية) أخرى فى كاشغر ، وأن ابنه الثالث اتخذها مقرا له فى أوائل القرن الرابع عشر ، ومما يلفت النظر أن هذا التاجر الخوارزمى المسلم (يلواج) استطاع أن يقبض — طول حياته — على أزمة الحكم فى آسيا الوسطى رغم التغيرات السياسية المتعددة ، واستطاع أيضا أن يترك هذا الحكم لأبنائه من بعده ٠

الصراع والمنافسة

كان من أسباب القلاقل فى امبراطورية المغول عدم وجود قانون لوراثة الحكم ، فقد أدى ذلك الى كثرة المباحثات والجدل بعد وفاة كل خان ٠ وكان لابد للاعتراف بالخان الجديد من أن يحضر كل أعضاء الأسرة حفل اعتلاء العرش ، ولذلك كان يعقد بهذه المناسبة (قورولتاى) ، وكانت ارادة الخان المتوفى مرعية المقام ، ولكنها لم تكن تفرض على الأمراء بلا قيد ولا شرط ، وربما انقضت سنون بين وفاة الخان وانعقاد القورولتاى ٠ وكان الحاكم طوال هذه المدة وطبقا للتقاليد هو زوجة الخان المتوفى ولكن سلطانها لم يكن يعترف به من الجميع ٠ بل كان بعض الأمراء يتصرفون فى ايالاتهم بوحى من أنفسهم غير عابئين بحقوقها ٠

وقد تجلى هذا النوع من القلاقل فى الفترة بين وفاة أوكه دى (سنة ١٢٤٦) ، واعتلاء ابنه كويوك العرش فى سنة ١٢٤٦ . اذ كانت ارادة المتوفى أن يلى العرش شخص آخر . وفى عهد أوكده ى هرب مسعود بك مع الحكام الآخرين خوفا من آن ينقلب عليهم أوكده ى . ولجأ مسعود الى باطى ولكنه استطاع قبيل تنصيب كويوك آن يرجع . واشترك فى قورولتاى سنة ١٢٤٦ بصفته واليا . وصدق كويوك على تعيينه واليا على (ما وراء النهر وتركستان وسائرالولايات) .

وتوفى كويوك سنة ١٢٤٨ ، فانتقل العرش الى ابن آخر من أبناء جنكيز هو تولوى، وفى سنة ١٢٥١ نصب مانكو الابن الأكبر لتولوى خانا على الامبراطورية كلها . ولم يكد يعتلى العرش حتى ائتمر به بعض الأمراء من أبناء جاغاتاى وأوكه دى ولكنه قتل جزءا منهم ونفى الجزء الآخر . فتبدد بذلك شمل شعوب جاغاتاى وأوكه دى ولكنها — على هذا الشتات — لم تبد . فمثلا ظلت أرملة كويوك حاكمة على (أوردا) نهر اميل . وبقيت (اروكنه خاتون) زوجة قاراهلاكو حفيد جاغاتاى حاكمة على (اوردا) جاغاتاى . ولكن السلطان الفعلى والنفوذ بقيا فى أسرة تولوى وجوجى .

وفى سنة ١٢٥٣ قال مانكوخان للمروج الكاثوليكى روبروق : ان سلطانى أنا وباطى منتشر فى كل البقاع انتشار نور الشمس . ويؤخذ من كلام روبروق أن دائرة نفوذ مانكو وباطى كانت تتجاوز حدود تالاس الشرقية . أى أن جزءا من أراضى قبائل جوجى كانت خاضعة لنفوذ مانكو .

وليست لدينا معلومات عن نشاط مسعود بك ابان فترة القلاقل والمؤامرات الا ما يقال من أن حياته تعرضت للخطر بسبب علاقته بمانكو . فلما استتب النظام من جديد وسعت حدد ولايته . فشملت ما وراء النهر وتركستان وأوترار وبلاد الأويغور، وختن ، وكاشغر ، وجند ، وخوارزم ، وفرغانة ، وفى خريف سنة ١٢٥٣ خرج هولاكو أخو مانكو من منغوليا

على رأس جيش استولى به على بغداد • وأجهز علـى الخـلافة العباسية • وأسس بهذا حكومة مغولية في غرب اسـيا وكان جيش هولاكو فى أول الامر يتحرك ببطء مثل جيش جنكيزخان فيما سبق • ولم يستطع أن يعبر نهر جيحون الا فى سـنة ١٢٥٦، وفى سنة ١٢٥٤ استقبلته اركنه خاتون فى (آلماليق) و (اولوغ او) وفى خريف سنة ١٢٥٥ قضى أربعين يوما فى سمرقند حيث تكفل مسعود بك بقضاء كل حاجياته •

الامبراطورية الجغتائية

ولكن الموقف ما لبث ان تغير بعد وفاة مانكوخان فى سنة ١٢٥٩ ، فقد نشبت الحرب بين اخويه (قوبيلاى) و (اريق بوغا) من أجل العرش • فنصب الأول نفسه خانا فى الصين، ونصب الثانى نفسه فى منغوليا ، وكانت أولى نتـائج هـذا الوضع هى عجز منغوليا عن استيراد القمح من الصين ، فاوفد (آريق بوغا) الأمير (آلغو) أحد أبناء جاغاتاى الى تركستان ليدبر أمر استيراد المواد الغذائيـة والضروريات عامة ومن بينها الأسلحة ، واستطاع آلغو أن يستولى فى وقت قصير على كل الولايات التى كانت تابعة لشعب جاغاتاى ، بل اسـتولى أيضا على خوارزم ، وكانت فى قبضة شعب جوجى ، وكان من الطبيعى أن يفعل كل ذلك لحسابه الخاص دون أن يفكر فى تحقيق المهمة التى أوفده من أجلها آريق بوغا وجاءت اركنه خاتون آريق بوغاتشكو آلغو ، والغالب أن مسعود بك ذهب اليه أيضا ، فأعلن آريق ـ بوغا الحرب على آلغو ولكنه هزم بعد أن أحرز بعض الانتصارات فترك تركستان ، وأرسل أركنه أحرز بعض الانتصارات فترك تركستان ، وأرسل أركنـه خاتون ومسعود بك الى (آلغو) فتزوج آلغو (اركنه خاتون) وعين مسعود بك واليا على سمرقند وبخـارى ، ثم اسـتطاع آلغو بفضل الأموال التى جمعها مسعود أن يفتح قبيل وفاته سنة ١٢٦٦ أوترار الداخلة فى بلاد بركة خان •

وبعد وفاة آلغو نصب مبار كشاه (وهو ابن اركنه خاتون من زوجها الأول) خانا على بلاد جاغاتاى ، وذلك بالقرب من نهر آنكرن، ولكنه ما لبث أن فقد عرشه على يد أمير جاغاتائى آخر هو (بوراق) الذى أرسله (قوبيلاى) بعد ان سيطر على منغوليا ، ثم اضطر بوراق بعد قليل الى ان يخضع بدوره لقايدو حفيد أوكه دى ، وكان قايدو هذا يعمل أول مرة فى جيش اريق بوغا ولكنه بعد أن اختفى آريق من مسرح الحوادث ، واصل الحرب مستقلا ضد الغو وخلفائه وفى سنة ١٢٦٩ عقد قايدو قورلتايا بالقرب من نهر تالاس ، تقرر فيه الدفاع عن الأراضى المزروعة ضد غارات البدو ، وتعهد الآمراء بأن يعيشوا فى أعالى الجبال ، وفى مناطق الاستبس، وألا يتركوا قطعانهم ترعى فى الحقول ، وعهد الى مسعود بك مرة أخرى بادارة المناطق الحضرية ، وكان تعيينه هو وابنيه الكبيرين من قبل قايدو ، أما ابنه الثالث فقد عينه جابار بن قايدو خليفته الذى ولى الأمر سنة ١٣٠٣ فى مكان قريب من نهر (اميل) ، ويفهم من هذا أن مقر قايدو وخلفائه كان منذالبداية مكانا تابعا لاوكه دى، مع أن قايدو مدفون فى مكان بالجبال الواقعة بين نهرى جو وايلى ، ومع أن السلطة العليا فى تلك المنطقة كانت فى ذرية أوكه دى ، فقد كان الخانات الجغتائيون يصلون أحيانا الى الحكم ، وكان أطول هؤلاء زمانا هو (تؤوا) ابن (بوراق) ١٢٨٣ ـ ١٣٠٦ وقد عاش كثيرا بعد قايدو ، ولا نعلم هل ثبتت الحدود بين شعوب جاغاتائى واوكده أم لا ، وكذلك لا نعرف هل ثبتت الحدود فى ذلك الوقت بين شعوب أبناء جنكيز الأربعة فى آسيا الوسطى ٠

وفى الشمال، كانت بلاد تولوى تضم منذ النصف الأول من القرن الثانى عشر الأراضى التى كانت فى ممتلكات جوجى ، ومن بينها مناطق القيرغيز ٠

وقد تنوولت هذه المنطقة بايضاح فى تاريخ قوبيلاى ، وفى كتاب أبى الغازى ـ بالاضافة الى ذلك ـ رواية عن

غزوات قام بها المغول فى المنطقه بين بلاد القيرغيز ومصب ينيسى ، حتى منطقة آلاقجين ، ولكن هـذه الرواية لم تؤكد فى المصادر الأخرى •

وفى الشـمال الغـربى كانت بلاد قوبيلاى تصـل الى ايريتش ، وفى رواية أن الحدود بين بلاد قوبيلاى وقايدو كانت خطا يمر بالقرب من قاياليق، وانه لمن الصعب التوفيق بين هذه الأقوال وبين ما يقال من أن جابار اتخـذ لنفسـه عاصمة بالقرب من نهر اميل •

ويدخل ماركو بولو اثناء وصفه لتركستان الحـالية ــ ختن والمناطق الأكثر بعدا نحو الشرق فى ممتلكات قوبيلاى، ولكنه يقرر فى نفس الوقت أن المناطق الممتدة من كاشغر الى ذلك المكان ، والى أبعد منه تابعة لتركيا الـكبرى (هـكذا يسمى ماركـو بولو ممتلكات قايدو) • أما عن باركنـد فان ماركو بولو يخطىء مرة أخرى حين يقرر أنها من ممتلكات قايدو صـهر الخـان الأكبر ، ومن الروايات المهمـة قـول رشيد الدين ان (ولاية الأويغور) احتفظت بحيادها أثناء الحرب التى نشـأت بين قوبيـلاى وقايدو ، وكانت تحـاول تحسين علاقاتهـا بالطرفين معـا • ومن المفهوم أن سـلالة الأديقوت كانت لا تزال تحكم فى بلاد الأويغور •

ولما خضع آديقوت ــ الأويغور (بارجوق) لجنكيز خان سنة ١٢٠٩ ، اشترك أولا فى الغارة التى شنت على كو جلوك سنة ١٢١٨ ، ثم فى الهجوم على محمد خوارزمشاه ، ثم فى الحرب التى شنها جنكيز على التانكوت ، وبعد وفاة بارجوق ــ وذلك فى عهد أوكه دى ــ خلفه أبناؤه الثلاثة واحدا بعد الآخر ومات الأول فى عهد (توراكين) أرملة اوكه دى التى حكمت من سنة ١٢٤١ الى سنة ١٢٥٦ ، أما الثانى فقد أعدم فى عهد مانكو لأنه اتهم بتدبير مؤامرة لقتل مسلمى (بش باليق) جميعا أثناء صلاة الجمعة ، وكان قطع رأسه بيد أخيه الذى ولى الأمر من بعده •

والظاهر ان اخبار اسرة الاديقوت تقف عند هذا الحد.

واذا كانت حكومة الخان الكبير قد استطاعت ان توسع حدودها قليلا على حساب ممتلكات قايدو ، فقد استطاع قايدو أن يوسع ممتلكاته نحو الجنوب والغرب على حساب ممتلكات خلفاء هولاكو وجوجي ، وكانت مملكة قايدو تشمل كل الجزء الشمالي الممتد من بدخشان ببلاد الأفغان الى سواحل مرغاب فهناك كان يعسكر (سارپان) وهو أحد أبناء قايدو الأربعة والعشرين ، ومن الطبيعي أن أولوس (أي شعب) جغتاي كان يفقد بالتدريج المناطق الشرقية الواقعة شرق المجرى الأدنى لسيحون ومع هذا ، فلا ندرى أين كان مقر خلفاء (اوردا) بالضبط في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، ويروى رشيد الدين أن جيشا من جيوش المغول بآسيا الوسطى مر أثناء توجهه الى معسكر (قونجي) أحد خلفاء (أوردا) بمدينتي جتد واوز كند ، ويمكن الاستدلال بهذه الرواية على أن مقر قونجي كان يقع الى الغرب أو الشمال الغربي ، أما ماركو بولو فيقول ان بلاد قونجي تقع في أقصى الشمال ، في مكان يعيش به الناس كما يعيش الحيوان ولا توجد به الحبوب ، وفي بعض جهاته تجر الكلاب العربات بدلا من الخيل وقد توفي قونجي وقايدو لا يزال على قيد الحياة ، وانتقل الحكم من بعده الى ولده (بايان) ولكن كوبلوك وهو أحد أحفاد أوردا ، بدأ ينازعه العرش مستعينا بقايدو وكانت رحى الحرب بينهما دائرة قبل أن يتم رشيد الدين تأليف كتابه .

ويقرر مؤرخو العرب الذين حرروا كتبهم بمصر وسوريا — وعلى رأسهم أبو الفدا — أن قونجي وخلفاءه كانوا يزاولون الحكم في غزنه وباميان ، ومع أن المؤرخين الايرانيين وهم أكثر علما في هذا الباب لم يؤيدوا هذا الخبر ، فانه انتشر في الكتب الأوربية ومن بينها كتاب الدول الاسلامية للين بول (وقد صححت هذه النقطة في الطبعة الروسية لهذا الكتاب) . والظاهر أن المؤرخين العرب خلطوا

بين اسم (قونجى) واسم (قولى) بن اوردا الذى اشترك مع هولاكو فى غزو ايران ، والواقع أن (قولى) هذا أعدم فيما بعد ، ثم اتجهت كتائبه العسكرية فى أثناء الحرب بين هولاكو وبركه الى الشرق فاستولت على غزنه وباميان ، ثم دخلت تحت حكم الأمراء الجغتائيين .

الحكومات المحلية

ومع أن آسيا الوسطى قد قسمت بين أعضاء أسرة الخان، فقد كان بها منذ ابتداء القرن الرابع عشر اسرات حاكمة ترجع الى ما قبل العهد المغولى . وذلك على العكس مما حدث فى دولة الآلتون اوردا . وثمة جزء من اخبار هذه الدول فيما كتب (جمال قرشى) فى بداية القرن الرابع عشر . وجزء فى نقوش القبور المكتوبة باللغة العربية الخالصة وكان هؤلاء الحكام جميعا يحملون اللقب العربى (ملك) وهو لقب الحكام التابعين فى ايران وآسيا الوسطى قبل عهد المغول . وكثيرا ما كانوا يردفونه بألقاب أكثر عظمة مثل (خان) و (سلطان) ، وفى احدى روايات جمال الدين قرشى يذكر اسم (ايلجى ملكشاه) حاكم فرغانه (مع اسم برهان الدين فيليح وهو ولى من أولياء مدينة أوزكند) ومازال قبر صاتيلمش بن ايلجى ملكشاه موجودا . وكانت وفاته سنة ٦٦٥ هجرية = (١٢٢٦ ــ ١٢٢٧) ويتبين بالنظر الى أسماء هؤلاء الملوك وألقابهم أنهم كانوا جميعا من أصل تركى ، بل توحى صيغ هذه الأسماء بأنها ترجع الى ماض بعيد : ومن هؤلاء الحكام المحليين (باليغ بولكه أولوغ بيلكه اقبال خان) المتوفى فى أوليا آتا سنة ١٢٦٢ والمدفون بها .

وكان العلماء يكتبون شواهد القبور بالعربية ، وقد أدرج جمال قرشى نصا كتبه على قبر كمال الدين الخوارزمى السوغناقى ، وهو أحد أولياء الترك بمدينة جند ، وكان هذا الشيخ معروفا عند التركمان باسم (شيخ بابا) وتوفى فى جند فى تشرين الثانى سنة ١٢٧٣ وسنه خمسة وثمانون،

وينقل جمال قرشي الترجمة الفارسية لشاهد قبر يوجد على ساحل سيحون غير بعيد عن خوجند ، وبالاضافة الى هذا يدرج قرشي أبياتا فارسية مجهولة التاريخ قيلت في مدح سلطان ختن (مونمش تكين) وفيها : أيها الملك عش طويلا حتى يقول الترك ما كان أطول عمر مونميش تكين ، وقد وردت العبارة الأخيرة باللغة التركية ٠

(يفلاق قرى بولميش مونميش تكين) ٠

وتدل المسكوكات التي ضربت في بعض مدن آسيا الوسطى ، ومنها مدينة (أوترار) على وجود بعض الدول هناك خلال القرن الثالث عشر ، وكانت العادة ان تضرب هذه المسكوكات باسم الملك المحلى دون أن ينقش عليها هذا الاسم ، وليس ثمة مسكوكات تحمل اسم (قايدو) أو (توو!) أو غيرهما ٠ على حين أن (مانكوتيمور) وهو من ملوك الآلتون أوردا كان ينقش اسمه على العملة ، وليس لدينا دليل على وجود حدود بين الأراضي التي كان يحكمها الخانات مباشرة والأراضي التي تركوها تحت حكم الدول المحلية السابقة عليهم ، ففى آلماليق ــ وهي أقرب المدن الى اوردا جاغاتاى ــ كان الحكم بيد دولة محلية خضع مؤسسها لجنكيزخان ٠ ومن ناحية أخرى كان ابن أرسلان خان القارلوقى يحكم (أوزكند) كبرى مدن فرغانة ، أخذها من مانكوخان ، ولا ندرى لماذا أخذ هذه المدينة بالذات ، فقد كان الأولى به أن يأخذ قاياليق التى كانت من ممتلكات أسرته ثم فقدت ، ولا ندرى أيضا هل حافظ خلفه على هذه المدينة ؟ وهل كان (ايلجى ملكشاه) الذى ورد اسمه من قبل، من حلفاء أرسلان خان القارلوقى ؟

اضمحلال الحياة الحضرية

ومن المعروف أن روبروق زار قاياليق سنة ٢٥٣ وقضى بها اثنى عشر يوما ، وقال فى وصفها : (انها مدينة كبيرة ، سوقها نشيطة) ومن المهم أنه كان للاويغور بها ثلاثة معابد

بوذية ، ولو بقى شيء من خرائب هده المدينة التى احتوت على عناصر مدنية مختلفة ، لكان لذلك أهمية كبيرة ، ولكن حتى موقعها لم يمكن تحديده الى الآن ، ويقــول روبروق انه من شمال قاياليق بقصبة كل سكانها نساطرة ولهم بها كنائس ٠ ولكن لم يمكن حتى الآن العثور على نقوش مسيحية في القسم الشمالى من منطقة يدى صو ٠

ورأى روبروق مدينة أجمل من قاياليق تقع شمال ايلى، والى الجنوب قليلا من قاياليق ٠ وكان أهلها مسلمين، ولكنهم يتكلمون الفارسية لا التركية ٠ ومن المحتمل أن يكون هؤلاء هم المهاجرين الذين أتوا قبيل ذلك من الجزء الجنــوبى من بلاد ما وراء النهر ٠ ومهما يكن فان الحيــاة الحضرية فى المنطقة الواقعة شمال ايلى كانت قد اضــمحلت تماما وكان التتار ــ حرصا على استغلال المراعى الخصيبة ــ قد خربوا ما كان بهذه المنطقة من المدن ويقال أيضا ان التركمان كانوا مستولين هناك على معظم الأراضى ٠ ولا ندرى ماذا يقصــد روبروق بعبارة (التركمان) ؟ أيقصد شعبا تركيا معينا ــ يحمل هذا الاسم ؟ أم أنه يقصد العناصر التركيــة المتخلفــة ثقافيا واقتصاديا ٠ (كلمة تركمان وخاصة بالصيغة العربية تراكمة تدل في قافقاسيا (حتى الآن) على العناصر التركية المتخلفة) ٠

ان التأويل الثاني أرجح لأن جمال قرشي يتكلم عن قوم من التراكمة بالقرب من بارجكند وجند ، ولا يعقل أن يكون التركمان قد عاشوا هناك في ذلك الوقت ٠

وقد أكد روبروق أن الحضارة كانت مضمحلة في تلك المنــاطق ، ثم عززه في هــذا القول معــاصره جان ــ دو وهو رحالة صينى من هناك سنة ١٢٥٩ ويقول (جان ــ دو) (Techang To) وهو رحالة صــينى من هنــاك سنة ١٢٥٩ ويقول (جان ــ دو) ان شعبا كثيفا كان يعمر المناطق التى سكنها القاراخيطاى من قبل وأن قنوات الرى كانت عديدة ، ولكنه يقرر أيضا أن الخرائب وآثار الدمار كانت كثيرة ٠

وليس لدينا برهان على ان خراب المدن يرجع الى سياسة خانات المغول أو الى كثافة العنصر التركى ، بل لقد راينـا الخانات ومن بينهم قايدو يتخذون التدابير لحماية الاراضى الزراعية • من افساد البدو ، وبالاضافة الى هذا فان قايدو وتووا قد أسسا مدينة جديدة فى فرغانة هى مدينة انديجان التى عظم شأنها فيما بعد والتى تتركت بالتدريج عن آخرها ، ويقول بابر انه لم يكن بها ولا بسوقها فى القرن السـادس عشر من يجهل التركية • وتختلف هـذه المدينـة عن معظم المدن فى العهد المغولى ، اذ خلا الحديث عنها من ذكر قصـور الخـان ، بل من ذكر مقره بوجه عام • وربما دل عـلى أن الخانات لم ينشئوها لأنفسهم ، ولكن خصصوها لينتفع بهـا الشعب •

وكان للقلاقل والفتن التى بدأت مبكرة فى دولة المغول آثارها السيئة على التجارة وعلى الحيـاة الحضرية • وزاد هذا السوء تباين العناصر التى كانت تؤثر حضاريا ومدنيا على المغول ، فقد كان من المألوف أن يربى بعض أبناء الخان تربية اسلامية ، وأن يربى بعضهم تربية مسيحية • وكانت العناصر المتحضرة الخاضعة لحكم المغول ، يكيد بعضها لبعض بتدبير المؤامرات ، واثارة الفتن فى اوردا الخان• وبالاضافة الى هذا فقد كان فى دولة المغول ـ كما فى غيرها من الدول ـ صراع على تولى الحكم • ويروى مؤرخو الروس أن اعـدام كثير من الحكام والنبلاء الروس فى عهد الآلتون اوردا كان نتيجة للمؤامرات التى دبرها هؤلاء الحكام الروس بعضـهم ضد بعض • نعم ان التتار هم ناطقو الحكم وهم منفذوه • ولكنهم فى حقيقة الأمر كانوا آلة فى يد أعداء المحكوم عليهم وكان هذا الوضع يحدث أيضا فى البـلاد الأخـرى الخاضعة للمغول ولكن اوكدهى أول خلفاء جنكيز استطاع وحده من بين الخانات أن يسمو فوق المؤامرات ، بل استطاع ـ بأحكامه العادلة غير المتحيزة ـ أن يصلح بين الأمراء وبين الأعيان حين اشتد بينهم الخـلاف • ولكنـه لم يكد يموت حتى بدأت فى

(الأوردا) فترة كثر فيها الحكم بالاعدام وبعد عشرة أعوام كان اعضاء الأسرة أنفسهم أكثر تعرضا لهذا الحكم من غيرهم (كان ذلك يحدث قليلا فيما قبل) وبعد عشرة اعوام اخرى كان التجار ــ ولا ذنب لهم ــ لا يكادون يجتازون بلدا الى بلد اخر حتى يقتلوا بسبب الحروب بين الحكومات المغولية .

وفي سنة ١٢٦٢ أمر (هولاكو) بعد أن هزمه (بركه) بالقرب من ترك Terek أن يقتل كل التجار الآتين من بلاد عدوه ، ورد بركه على ذلك بقتل التجار الوافدين على بلاده من بلاد هولاكو ، وهكذا يظهر ان المنافع الفردية والمنافع المؤقتة ، تكون في وقت الاضطرابات أرجح كفة من منافع الامبراطورية بوجه عام ، ويروى المؤرخون أن اعتبارات من هذا القبيل دفعت آلغو سنة ١٢٦٠ الى أن يثبت أركان ملكه في آسيا الوسطى ، وأعجب من هذا أن مغول ايران دمروا عن عمد مدينة بخارى سنة ١٢٧٣ ، لأنهم توهموا أنها قد تصبح قاعدة لهجوم يقوم به خصومهم من تركستان ليستولوا على ايران ، وكانت بخارى قد نهضت سريعا بعد أن استولى عليها المغول سنة ١٢٢٠ ، بل وصلت في خلال الثلاثين سنة الأولى من حكمهم الى درجة من الازدهار لم تبلغها من قبل ، وقد وصفها الجويني ، فأكد أن لامثيل لها في العالم الاسلامى ، أما ماركو بولو (وكان أبوه وعمه قد عاشا في بخارى ثلاثة أعوام من ١٢٦٢ ــ ١٢٦٥) فقد قال عنها انها أجمل مدينة في بلاد الفرس ، ولم تؤثر الثورة التى قامت بها ضد المغول (١٢٣٨ ــ ١٢٣٩) على عمرانها وازدهارها ، فقد استطاع محمود يالواج أن يقنع المغول وبخاصة أوكه دى بأن لا صالح للدولة في تدمير مدينة غنية كبخارى ثأرا لجرائم بعض المتمردين .

ولكن بعض الخانات والأمراء كانوا يتصرفون ابان الثورات على نحو آخر .. كانوا يؤثرون أن يغنموا بضربة واحدة مبلغا كبيرا من أموال المدينة على أن يحصلوا على دخلها

بانتظام لمدة طويلة ، وقد تعرضت بخارى ابتداء من ١٢٦٠ الى مصادرة الأموال والى السلب والنهب ، ولكنها استطاعت حتى بعد مأساة (١٢٧٣) أن تجذب عيون عصابات السطو فنهبوها ، ثم استولى ابنا الغو المتمردان على ما بقى من ثروة المدينة غنيمة لهما • وبعد ذلك بسبع سنين (بين ١٢٧٥ و ١٢٨٢ تقريبا) لم يكن بقى من بخارى أى أثر ، ولم تبعث من جديد الا بعد أن اعتلى توو العرش •

ولا شك أن ما ترويه المصادر عن بخارى كان يقع فى مدن أخرى لا نعلم عنها الا قليلا ، وكان ينتظر أن نحصل على معلومات مهمة عن مدن آسيا الوسطى بدراسة الذيل = (الملحقات) الذى أضافه جمال قرشى (من رجال القرن الرابع عشر) الى ترجمة معجم عربى من القرن العاشر ! •

وقد اتهم محمد حيدر أحد كتاب القرن السادس عشر جمالا القرشى بالعصبية لمسقط رأسه بالاساغون ، والواقع أن القرشى أحصى مشاهير البلاد وأعلامها ، فلم يذكر الا عشرة أشخاص من سمرقند ، فلما تناول بالاساغون ذكر من أسماء المشاهير عددا لا ندرى كيف أمكن أن تنجبه المدينة فى وقت واحد ، وقد كان ينتظر قبل أن تصل الينا مخطوطة (الملحقات) أن نجد بها مادة غزيرة عن الحياة الفكرية فى (بالاساغون) ولكن النسخ التى وجدت حتى الآن خيبت الظن ، فهى خالية حتى من اسم المدينة ، ولم يذكر من المنسوبين اليها الا شيخ المؤلف وهو شمس الدين أيوب البلاساغونى وابنه ركن الدين أحمد البلاساغونى ، وذكرت بها أيضا مدينة قوزباليق حيث توفى أحد أمراء الماليق سنة ١٢٥٩ • ويذكرنا هذا الاسم بمدينة قوز اوردو أو قوز أولوش الواردة بكتاب محمود الكشغرى • وفى القرن الثالث عشر ورد اسم هذه المدينة (قوزا وردو) مكتوبا بالهيروغليفية الصينية • ومن الغريب أن المؤلف لم يذكر المدينة التى ينتسب اليها شيخه • وعدا هذا فانا نجد فى كتاب جمال القرشى اسما جغرافيا آخر لم

نجده في غيره من المصادر - وذلك هو : (ايل آلارغو) وهو اسم المكان الذى يضم اوردا جاغاتاى • وقد نسب الى هذا المكان التاجر المسلم (قطب الدين حبش عميد) وزير جاغاتاى (توفى قطب الدين فى سنة ١٢٦٠ فى بداية عهد آلغو) باحدى مدن ولاية الماليق • ودفن هناك بالخانقاه التى بناها) •

وقد خص جمال قرشى كاشغر وختن وخوجند وفرغانه ، وشاش أى : طشقند وبارجكند وجند ، بأبواب تتفاوت طولا وقصرا • وبين فى كل باب معالم كل مدينة وخصائصها • ثم أورد ثبتا مختصرا بأسماء من نشأ بها من العلماء المشاهير • وكانت آلماليق هى مسقط رأسه (كان أبوه من بلاساغون) ثم انتقل منها الى كاشغر وزار كثيرا من المدن • وقد لاحظ علامات الاضمحلال فى كاشغر وجند ، وكانت الأولى فى عهده خوايا مهدودة ، أما الثانية فقد كانت تجارتها كاسدة ، مع أنهـا كانت فيما مضى كبيرة ، ويذكر قرشى فى حديثه عن كاشغر ، اعتداءات الـ (جته) •

وترد هذه الكلمة فى هذا المقام لأول مرة ، ولكنها استعملت بعد ذلك فى تركستان الصينية مرادفة لكلمة (قازاق) المستعملة بتركستان الغربية ، أى أنها صارت علما على قوم من البدو خلعوا أنفسهم من قبائلهم وكونوا عصابات للغارة وقطع الطريق • وكانت غارة (الجته) فى الشتاء (ولكن المؤلف لا يذكر فى أى عام) • وأبيد فى أثنائها خلق كثير وأسر خمسة آلاف صبى • وفى الحديث عن كاشغر خبر كبير الأهمية من وجهة نظر تاريخ الحضارة ، فقد روى أن الثيران والأبقار لم تكن تستعمل هناك فى حرث الأرض ، بل كان يكتفى باستعمال الآلات الزراعية ولا نظن أن فى كاشغر الآن نقصا فى الحيوانات المستخدمة فى الفلاحة ••

دخول تركستان فى الاسلام

وفى القرن الثالث عشر ، كانت حركتا الدخول فى الاسلام والتترك تسريان في تركستان ببطء ، ولكن فى غير توقف ، وقد تكشف الموقف هناك — منذ عهد جنكيز — عن ظاهرة تناقض ما توقعه كوجلوك ، وذلك أن القاراخيطاى الذين استطاعوا مواصلة الحياة بعد احتلال المغول للمنطقة ، أخذوا عن المسلمين تقاليدهم وأزياءهم • وكانت حال المسلمين فى البلاد التي كانت من قبل ملكا للقاراخيطاى خيرا من حالهم من قبل في بلاد محمد خوارزمشاه ، وذلك أنهم فى فى عهده كانوا يقاومون المغول مقاومة عنيدة !

وفى سنة ١٢٢١ كانت بسمرقند هيئات من الأعيان المنتمين الى قوميات مختلفة وكان الوالى العام رجلا من القاراخيطاى ربى تربية صينية ، وكان للمسلمين حق امتلاك بساتين الفاكهة والحقول ولكن بشرط أن يشاركهم بعض الصينيين أو الخيطاى • وبعد بضع سنين (فى عهد أوكه دى) عين على بخارى وسمرقند وال له اسم أو لقب صينى هو (جونساق تايفو) وقد كان اسم هذا الشخص لا يزال يذكر فى سنة ١٢٦٨ ، وربما وضح لنا وجوده فى هذا المنصب كيف ظهرت في بخارى (للمرة الأولى والأخيرة) عملة منقوشة بالهيروغليفية الصينية ومع أن بعض المصادر تتحدث عن بعض الهجرات الآتية من الشرق ، فلم يكن يتولى أمر المناطق الاسلامية — فيما ولى ذلك من حقب — الا مسلمون، ويروى جان — دو الصينى أن الصينيين كانوا يعيشون مع المسلمين فى آلماليق ، وأن عادات الصينيين وتقاليدهم كانت تبسط سيادتها بالتدريج •

ومع أن جاغاتاى كان من فرط عصبيته لقانون المغول العرفى يأخذ المسلمين باستمساكهم بشريعة الاسلام ، فان الاضطهادات التى عاناها المسلمون فى عهد كوجلوك لم تتجدد ثانية فى عهد المغول •

وقد نقل الجويني أبياتا من قصيدة كتبها أحد الشعراء بمناسبة هلاك جاغاتاى في سنة ١٢٤٢ قال فيها : (ان من كنا نفرق منه فلا نمس الماء قد غرق في ظلمات بحر العدم) ومع هذا ، فقد كان لجاغاتاى طبيب مسلم اسمه مجد الدين وكان قطب الدين حبش عميد ــ وهو من اثرياء تجار العصر ــ يتمتع عنده بنفوذ كبير حتى لقد استطاع أن يجعل لكل واحد من أبناء جاغاتاى رفيقا من أبنائه هو (كان حبش عميد من كرمينه كما يقول جمال قرشي أو من أوترار كما يقول رشيد الدين) ومع أن قطب الدين هذا كان مسلما وله ــ كما قلنا ــ خانقاه ، فلم يكن علماء الاسلام يطمئنون اليه ، ولم يكن هو يطمئن اليهم ، وقد اتهموه بأنه كان سببا في مصرع يوسف السكاكى الخوارزمى وهو أحد مشاهير العلماء في زمانه ، وقد بقى من آثاره ــ بالاضافة الى كتابه (مفاتيح العلوم) المعروف في كل العالم الاسلامي ــ رسالة أرسلها الى أحد تلاميذه من أتراك الغرب وهو (صاجا قلى زاده) .

وليس لدينا عن نشاط علماء تركستان في نفس الفترة سوى معلومات ضئيلة ، بل اننا لا نعرف الأساتذة المرشدين لمباركشاه وبوراق وهما أول من أسلم من خانات جاغاتاى ، ويقول جمال قرشى ان (أركنه خاتون) أم مباركشاه كانت مسلمة ، أما (قايدو) فلم يكن مسلما وقد دفن ــ على عادة المغول ــ فوق الجبل المرتفع بين نهرى (ايلى) (وجو) وفي نفس المكان دفن بوراق ــ وهو مسلم تنفيذا لارادته ، ولم يكن قايدو عدوا للاسلام ، وقد وصفه جمال قرشي بأنه كان عادلا سخيا رحيما يكن الخير للمسلمين ، وقد لقيه قرشي مرتين احداهما فى أول عهده بالسلطنة والأخرى قبيل نهاية عهده ، وحصل منه على كتاب شكر وتقدير (ولا ندرى بأى لسان حرر هذا الكتاب) .

والآن نتساءل : هل كان علماء الدين بتركستان يفيدون من علم العناصر الأخرى المتمدنة التى تعمل فى خدمة الدولة ،

ان لهذا الموضوع أهمية خاصة • ولدينا بخصوصه خبر وحيد يتعلق بعالم اسمه (هيبة الله) تركستاني الاصل هاجر الى ايران ، وتوفى فى عهد غازان خان (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤) ويقول فيه رشيد الدين انه كان عالما باللغتين التركية والسريانية ، أخذا من كل علم بطرف وكان له ـ الى هذا ـ كلام ككلام المشايخ ولكن غازان مع هذا يعتبره من علماء الطبقة الثانية ، وكان يشبهه « بالموظفين الذين يسهمون فى أعمال الدولة ، ولكنهم لا يستطيعون الوصول الى الخزانة الهمايونية » ثم يضيف : ولست أعجب من أن هذا العالم وأمثاله يجهلون الروحانيات ، ولكنى أعجب مع هذا بعلمهم، وأقدرهم • ويمكن أن يستنتج من هذا أن هيبة الله لم يكن من علماء أصول الدين بل كان يشتغل بالعلوم الدنيوية •

اللغة التركية عند مغول آسيا الوسطى

ومن الأدلة القاطعة على أهمية اللغة التركية فى ذلك العصر أن رشيد الدين عندما يتناول أسرة جنكيزخان فى كتابه ، يستعمل الكلمات التركية جنبا الى جنب مع الكلمات المغولية •

وفى تركستان كان الاصطلاح المغولى (نويان) بمعنى (أمير) أو بمعنى الكلمة التركية (بك) يطلق حتى زمان تيمور على أفراد الأرستقراطية العسكرية ، وفى عهد جنكيزخان كان ابنه تولوى هو (النويان الأول) المسئول عن كل أمور الجيش ، يسمى هذا المنصب بالمغولية (يكه نويان) أى النويان الكبير ومع هذا ، فقد كانت الكلمة التركية (أولوغ) بمعنى كبير تستعمل أحيانا بدلا من الكلمة المغولية (يكه) وهكذا ، نجد أحيانا عبارة (ألوغ نويان) ولكنا مع هذا لم نر المسلمين يحاولون أن يجعلوا اللغة التركية لغة رسمية • فمثلا عندما غادر بلانو قاربينى منغوليا سنة ١٢٤٦ أعطوه رسالة للبابا محررة بالفارسية ، وقد استطاع بليو Pelliot أن يثبت أن هذه الرسالة موجودة الآن فى دار المحفوظات بالفاتيكان،

وتاريخ هذه الرسالة هو نهاية جمادى الآخرة سنة ٦٤٤ أى نوفمبر ١٢٤٦ ، ويدل ما بالرسالة من اخطاء فى اللغة الفارسية ، على أن كاتبها لم يكن من أصحاب اللغة ، وقد كتب عنوان الرسالة بالتركية ، ومن اللافت أن اسم (كيوك) لم يرد بالرسالة ، وانما أرسلت باسم (خان الاولوس الكبير والعالم كله) = (الوغ الوس ننك تالوى نونك خان يرلغمز) وفى ثنايا الرسالة ترد بعض الكلمات والعبارات التركية ، ولا شك أن محرريها هم بعض تجار آسيا الوسطى من الترك ، كانوا يحاولون الكتابة بالفارسية لغة الأدب فى بلادهم .

محاولة اقامة الوحدة

وكان مغول آسيا الوسطى (ومن بينهم الآلتون اوردا) أحوج الى منفذ على البحر من غيرهم من حكومات المغول ، ذلك بأن الاضطرابات السياسية وما يترتب عليها من قطع العلاقات التجارية ، كانت تزيد حاجتهم الى هذا المنفذ ، وربما فسر لنا هذا الوضع ، لماذا ظهرت الدعوة وقتذاك فى آسيا الوسطى لتكوين (حكومة الدول المغولية المتحدة) ، فقد كان ذلك وحده كفيلا بأن يضمن للتجار التنقل بحرية من دولة الى أخرى ، دون أن يتعرضوا لأى نوع من المصادر .

ويقرر المؤرخون أن أول من نادى بهذا المشروع هو الخان الجغتائى توا ، أقنع به أول الأمر جابار ثم بدأ يبعث السفراء الى دول المغول المختلفة ثم أعلنت الموافقة على المشروع فى كل مكان .

وذهب السفراء أول ما ذهبوا الى الصين حيث دولة تيمور (المتوفى ١٢٩٤) وحفيد قوبيلاى ، وفى سنة ١٣٠٤ وصل سفير تيمور مع مندوبى جابار وتووا الى المراغة بايران ، وكان أولجايتو قد اعتلى العرش حديثا بالمراغة ، وفى سنة ١٣٠٥ كتب الجايتو رسالة مغولية الى فيليب الرابع ملك فرنسا ينبئه فيها بتمام الاتحاد ، وقد وصلت الينا هذه

الرسالة ، التى تعتبر حتى الان الوثيقة المغولية الوحيدة عن هذا الاتحاد ، ويقول أولجايتو في رسالته ان سبب الحروب فيما مضى لم يكن سوء نية الخانات ، ولا حرصهم على الكسب، ولكن دس الرعايا وافتراءاتهم ثم يضيف : والآن قد أعيد السلم وتم ائتلاف أسرة الخان جميعها ، كبارها وصغارها ، وفتحت الطرق كلها ، ومن ينقض هذا الميثاق ، فسيتحد الآخرون ضده ، وفى الرسالة اقتراح ساذج بأن يأتلف سلاطين الفرنجة أي ملوك أوربا ، ويعقدوا ميثاقا مماثلا ، وأن يجتمعوا ضد من ينقضه ، ولما وصل إلى ادوارد الأول ملك انجلترا (١٢٧٢ ـ ١٣٠٧) كتاب مشابه رد الملك الجديد ادوارد الثاني في سنة ١٣٠٧ بأنه يأمل أن يتحقق السلم بعون الله ٠

هذا ، ولم تكن المادة التي تنص على أن يجتمع الكل ضد من يفسخ المعاهدة الا مجرد ألفاظ ، وهذا هو مصير هذه المادة عند غير المغول ممن سبقهم ومن جاء بعدهم ٠

وسنرى فى المحاضرة القادمة أن النصف الأول من القرن الرابع كان فترة القتل العام والاضمحلال الحضارى فى تركستان ٠

المحاضرة الحادية عشرة

تدهـور المغـول

ليس بين أيدينا ـ من أسف ـ أى مرجع عن آسيا الوسطى يتناول اقرار السلم أو نقضه بين دول المغول ، وحتى جمال قرشى الذى يمدنا بأخبار المغول حتى ربيع سنة ١٣٠٣ لم يكن على علم بهذا الميثاق ؛ اذ اقتصر عـلى التعبير عن ثقتـه بأن الخاقانات يملكون من القـوى العسـكرية ما يسـتطيعون به احباط أية محاولة يقوم بهـا تيمور (حفيـد قوبيلاى) أو خلفاؤه للاستيلاء على مدن آسيا الوسطى ، وقال قرشى أيضا ان توا كان (الركن الوثيق) فى حكومة جابار ومن الواضح أن هذا الكلام قد حرر قبل أن تبدأ الحرب بين الخانات فى سنة (١٣٠٥ ــ ١٣٠٦) .

ولا نملك عن هـذه الحرب وما أعقبهـا من أحـداث ، الا ما نملكه عن كل شئون آسيا الوسطى حتى القرن السادس عشر ، أعنى المصـادر التى حـررت فى ايران . وقد وقعت الحرب ــ كما تروى هذه المصادر ــ بين أبناء أوكه دى وأبناء جغتاى أو بين سمرقند وخوجند ، وأرسل توا السفراء الى جابار قائلا ان هـذا الصـدام المسـلح انما هو من اندفاع الشباب ، واقترح وقف الحركات العسكرية وتكوين هيئـة للتحكيم تجتمع فى طاشقند لدراسـة أسباب الخلاف ومع أن جابار قد وافق على عروض توا ، فان الأمراء الجغتائيين ما لبثوا أن نقضوا الهـدنة ، ويبـدو أن هـذا النقض كان بموافقة توا نفسـه ، رغم أنه لم يكن يشترك بشـخصه فى

شيء ، وفي ذلك الوقت تعرضت (بلاد ما وراء النهر والبلاد الواقعة بمحاذاة نهر تالاس للسلب والنهب ، وهاجم جيش تيمور حرس الحدود في ممتلكات جابار المجاورة لايرتش والتاى ، ويقال ان توو‌ا هو الذى دعا الجيش لهذا الاعتداء ، ولما انفض أنصار جابار من حوله تقدم ومعه ثلثمائة فارس ، فأعلن خضوعه لتووا ، وعلى هذا النحو تأسس حكم أسرة جغتاى في آسيا الوسطى من جديد وظلت هذه الحروب الداخلية مشتعلة حتى صيف ١٣٠٩ حيث دعي القورو لتاى للانعقاد ، وكان صاحب هذه الدعوة هو (كه به ك) بن تووا (مات تووا سنة ١٣٠٦) .

أما أسرة (أوكه ده‌ى) فقد خرج قسم من أمرائها من البلاد ، وفقد القسم الآخر ملكه ، واستطاع واحد فقط من أبناء قايدو كان يسمى (شاه) أن يحتفظ (بمعسكره) الخاص وبجيشه المكون من ألف عربة حربية .

ويروى المؤرخ الايراني وصاف أن النتيجة المباشرة لهذه الحروب الداخلية كانت الانحطاط التام للتجارة والزراعة في ما وراء النهر وتركستان ، وكانت التقاليد الزراعية من القوة في بلاد ما وراء النهر بحيث لا يمكن القول بأن هذه المدن والمزارع قد امحت تماما ولكن الوضع يتغير كلما اتجهنا شمالا ، فقد قال المؤلف العربي العمرى « ١٣١١ ــ ١٣٤٨ » نقلا عن رجل عاش في تركستان : ولا يوجد في تركستان الآن الا أطلال تتفاوت درجة المحافظة عليها ، وترى على البعد القرى التى أنشئت وقد أحاطت بها الخضرة والزهور ، حتى اذا اقتربت منها لترى أهلها وجدت منازلها خاوية وأهل البلاد جميعا من البدو ولا يشتغلون أبدا بالزراعة .

تركستان

ولم يزل القورو لتاى المنعقد في سنة ١٣٠٩ الفقر من تركستان ، ونصب أيسان ــ بوقا الأخ الأكبر لـ (كه به ك)

خانا (كلمـــة أيســا مغوليــه) وفي عهــده تعرضــت
تركستان لغزو الجيوش المغوليه الاتيه من الصــين ، وكانت
الاماكن الواقعــة عــلى قوبوق وعــلى فروع المجــرى الاعلى
لايريتش ، مشتركة الحــدود مع ممتلكات الخــان الـكبير ،
وما لبث هذا الجيش الذى دخل بلاد جغتاى أن خرب المعسكر
الشتوى لأيسان ــ بوقا (كان هــذا المعســكر بجــوار بحيرة
ايصيق كول) ومعسكره الصيفي (بجوار تالاس) ويمكن ان
نستدل بكلام مؤرخ مجهول الاسم من مؤرخي القرن الخامس
عشر على أن أعمال السلب لم تكن قاصرة على جنود الأعداء ،
بل اشترك فيها عساكر الخان الجغتائي نفسه ، وتقرر هذه
الرواية نفسها أن أيسان ــ بوقا وكه بك خرجا في جيش
لملاقاة عساكر العدو الآتية من قارا خوجا وتحرك أيسان بوقا
من كاشغر وكه به ك من آلماليق • وكان رأى الأول الا يترك
اذا هزم شيئا للعدو ، لأن اعادة العمران سهلة في حالة النصر ،
وعلى هذا الأساس فانه خرب كل شيء في طريق خروجه وأما
كه به ك فكان على العــكس من ذلك يرى أنه اذا انتصر فان
شعب الحكومة المعادية سينحاز اليه متأثرا بما ذاع عنــه من
العدل ، واذا هزم فان قومه سيلتزمون جانبه ومن هنا فكر
في تسهيل طريق العودة فلم يخرب الأماكن التي مر بهــا ،
بل حافظ على ما بها من عمار • وهزم أيسان ــ بوقا واضطر
كه به ك ــ نتيجة لذلك ــ الى العودة ، وتجشم جيش أيسان ــ
بوقا في أثناء العودة أصنافا من الفقر والعوز اضطر معها
الى أكل خيله بينما وجد جيش كه به ك حوائجه •

وخلفه كه به ك (١٣١٨ ــ ١٣٢٦) ايســان ــ بوغا ،
ولسلطنة كه به ك أهميــة تاريخيــة كبيرة ، ففي أثنائها بدأ
خانات المغــول بآسيا الوســطى يتمثلون المدينــة الاســلامية
بالتدريج ، وبقى كه به ك مثل أسلافه مشركا ، ولكنه نقــل
عاصمته الى ما وراء النهر • بل الى الجزء الجنوبى منها وهناك
على المجرى الأدنى لنهر كشكه (قاشقادريا) بنى لنفسه حصنا
يبعد فرسخين ونصف عن مدينة نخشب • وكان المغــول في

قلب منغوليا يستعملون كلمه (فارسى) بمعنى (سراى) ـ ويقرر علماء ذلك الزمان ان هـذه الكلمـه مغوليه ولكننـا نصادف هـذه الكلمة فى قوتادغوبيليك وفي كتاب محمـود الكشغرى ولم يذكرالكشغرى اتستعمل هذهالكلمة عند اتراك الشرق ام عند اتراك العرب والظاهر آن الاتراك آخذوا هذه الكلمة عن أهالى تركستان الصينية ، وبسبب هـذا الحصن احتفظت مدينة نخشب حتى يومنا هذا باسم (قرشى) ، مع ان موقعها مغاير لموقع نخشب الاولى ، السابقة على العهد المغولى ونخشب التى آسست فى القرن الرابع عشر ، وهكذا نرى أن اسم الخان كان يطلق فى تركستان ـ كما هى عادةالمغول ـ على المدينة التى تحويه • ومن التجديدات التى ادخلها كه به ك، سك النقود باسم الخان ، فقد سكت كما هى الحال فى ايران نقود فضية كبيرة وصغيرة وسكت الدنانير والدراهم ، وتقرر أن يكون الدينار معادلا لستة دراهم •

وسكت النقود فى المدن التى كانت تسك بها من قبل ، وهى المدن التجارية الكبيرة فيما وراء النهـر مثـل بخـارى وسمرقند واوترار وترمذ ، وتسبت هذه النقود فيما بعد الى اسم كه به ك فقيل (كبكى) وأدى هذا الى أن قرب خطأ بين هذه الكلمة وبين الكلمة الروسية (قوبيك) ووجدت ـ كما وجدت فى الالتون أوردا ـ سكة منقوش عليها باللغة التركية وبالحروف الايغورية عبـارة (قوتلوغ بولسـون) دون ان ينقش عليها أى اسم • ولم يوجـد حتى الآن ـ فيما أعلم ـ مثل لكلمات مغولية نقشت على عملة خانات جغتاى • ومع هذا فمما يدعو الى الحيرة اننا نجد فيما بعد عـلى عملة تيمـور العبارة المغولية (أوكامنو) منقوشة بالحروف العربية ومعنى هذه الكلمة هو (كلمتى) •

ولم يكن الانتقـال الى ما وراء النهر وتشييد السراى دليلا على ترك حياة البداوة فقد كان الطرف الأيسر (الغربى) من وادى نهر كشكه يغص البدو بالمجىء منذ جنكيز خان وآية

هذا آن جنكيزخان نفسه قضى به صيف سنة ١٢٢٠ ، وقد تمثل تارماشيرين (١٣٢٦ ــ ١٣٣٤) ــ وهو أخو كه به ك واحد خلفائه الاقربين ــ المدينة الاسلامية أكثر من كه به ك، ومع هذا ، فانه قابل الرحالة ابن بطوطة فى خيمة وفى فصل الشـــتاء ٠

ولا يوجد دليل واحد على أن خانات جغتاى كانوا عــلى علم فى ذلك الوقت باللغة المغــولية ، وقد كان ابن بطــوطة يتصور (كه به ك) واحدا من الناطقين بالتركية ، وعندما قابل (تارما شيرين) ابن بطوطة قرأ عليه السلام بالتركية ، وكان الامام حسام الدين ياغى وهو مرشــد الخــان يتــكلم الفارسية ، ولكن الخان كان يذكر كل يوم باللغة التركية من بعد صلاة الفجر حتى مطلع الشمس ٠

وقد انتقلت بعض الكلمات التركية الواردة فى كتــاب ابن بطوطة الى اللغة المغولية بطريق اللغة الأويغورية ، ثم راجت هذه الكلمات واستعملت فى كل حكومات المغول ومن ذلك كلمة (آل تامغا) أى (الختم الأحمر) وتستعمل أحيانا فى الفارسية مختصرة فيقال آل فقط ٠

وكان ال (تامغاجى) أى الختام (المهر دار) يؤدى كل الأمور الكتابية وكان طبعــا يفهم العربيــة حتى لقــد قام بالترجمة لابن بطوطة ٠

ومن العجيب ان ابن بطوطة يســتعمل كلمــة (طوى) ومعناها المأدبة بمعنى (قورولتــاى) ، ذلك أنه يقــول ان الطوى مجلس يعقد كل سنة ، يحضره خلفاء جنكيز والأمراء وعظميات السيدات وقواد الجيش ٠ وفى زمن ابن بطوطة لم يدع الطوى للاجتماع وكان هذا من الأسباب التى بررت الثورة ضد تارماشيرين ٠

ويقول العمرى ان دخول تارماشيرين فى الاسلام نشط الحركة التجارية بين بلاد ما ورء النهر وغــيرها من البــلاد

الاسلامية ولكنه — في نفس الوقت — زاد الفرقة بين ما وراء النهر والايالات الشرقية من بلاد جغتاى • ويقول ابن بطوطة أنه كان من عادة الخان أن يذهب مرة في كل عام الى الشرق، أى الى المنطقة المتاخمة للصين حيث توجد الولاية التى تشتمل على مدينة آلماليق وكانت هذه المدينة تعتبر العاصمة • ومع هذا فقد قضى تارماشيرين أربعة أعوام متوالية فى المناطق المتاخمة لخراسان ولم يكن تارماشيرين — على تمسكه بالاسلام — يتحرج من محاربة الحكومات الاسلامية فقد قام فى أوائل سلطنته سنة ١٣٢٦ بغزوة فاشلة ضد خراسان أدت الى استيلاء مغول ايران على غزنة وتخريبها• وفى سنة ١٣٢٩ دخل الهند الاسلامية وكاد يصل الى دلهى ولكنه كان — كما يفهم من كلام ابن بطوطة الذى أوردناه من قبل — لا يرعى فى الادارة الداخلية قوانين المغول العرفية أى الياسا ، ولا يهمنا أكان موقفه هذا من الياسا ناتجا عن تأثره بالدين الذى اعتنقه وهو الاسلام أم لا • ويذكر مؤلف مسلم مجهول الاسم من رجال القرن الخامس عشر ، وعلى علم بقوانين مناطق الاستبس ، أن تارماشيرين لم يكن يرعى الياسا •

ولهذا السبب تجددت الاضطرابات فى تركستان واستمرت الى ١٣٤٦ أو ١٣٤٧ وانتهت بزوال حكم الخانات فيما وراء النهر، وبانفصال الولايات الشرقية مما وراء النهر انفصالا تاما ، ولا يمكن الوقوف على هذه الحركات الحربية كيف وقعت ولا كيف زادت الحياة المدنية وهنا واضمحلالا ، فلم يرد عن هذه الحركات الحربية الا حكاية فى ابن بطوطة تناقض من حيث تواريخها وكل تفصيلاتها الحكايات الواردة فى المصادر الأخرى • ولا شك فى أن مقر الخان قد نقل ثانية الى الشرق فى أثناء السنوات التى تلت خلع تارما شيرين وقتله ، ولا شك أيضا فى أن نفوذ الاسلام قد ضعف فى تلك الفترة •

وفى عهد جكنشى خان الذى كانت نقوده تسك فيما وراء النهر ، استطاع مروجو الكاثوليكية أن يبنوا كنيسة

جميلة بقرب الماليق ، وكان جكنشى كما يروى مؤرخ القرن الخامس عشر المجهول الاسم يستشير (الباخشيلر) أى كهنة الديانة البوذية ، ومع هذا فان الحركة الرجعية المضادة للاسلام عجزت عن أن تدرك نجاحا مطردا ، فمنذ سنة ١٣٤٠ اعتلى العرش فيما وراء النهر شيخ من أصل تركى كان يعتبر من احفاد جنكيزخان ؛ وفى فترة ما كان الشيخ السلطان مرشدا روحيا للولى المشهور بهاء الدين النقشبندى البخارى (١٣١٨ ـ ١٣٨٩) ، ويروى فى ترجمة حياة هذا الولى انه رأى فى المنام الولى التركى حكيم آتا (لا شك فى أن بهاء الدين كان تاجيك) وكان تفسير هذه الرؤيا أن مرشده سيكون درويشا تركيا ، وعندما وقع نظر بهاء الدين على الدرويش التركى خليل الذى أصبح سلطانا تأثر به تأثرا كبيرا، واعتبره هو الدرويش المقصود فى تفسير رؤياه ولزمه وظل يلازمه حتى بعد أن اعتلى خليل العرش ، وبعد أن مات خليل اقتنع بهاء الدين بأن الدنيا لا خير فيها وزاول حياة الزهد ٠

ولا نصادف اسم خليل بين أسماء السلاطين الجغتائية ، ولكن ابن بطوطة يذكر بين أسماء حكام فترة القلاقل اسم خليل وهو ابن ياساوور بن جغتاى، ويقال انه هو الذى استطاع أن يغلب بوران أول خلفاء تارما شيرين (لم يذكر جنكشى ولا الخانات الذين تناولتهم المصادر التاريخية فى ابن بطوطة) ٠

ولم يستول خليل على آلماليق فحسب ، بل استولى أيضا على قاراقورم وبش باليق ، ثم عقد بعد ذلك صلحا مع امبراطور الصين ورجع الى سمرقند وبخارى ، وكان زميله فى النصر هو علاء الملك سيد حاكم ترمذ الملقب بخداوند زاده وفى النهاية أقدم خليل بتحريض من بعض وشاة الترك على اعدام علاء الملك فادى ذلك الى ضياع ملكه ، فقد جاء اليه حسين حاكم هراة وأسره ، وكان لا يزال فى الأسر حين غادر

ابن بطوطة بلاد الهنـد فى ربيع سـنة ١٣٤٧ ومع أن هـذه الحكاية من نسيج الخيـال ، فان النقود المسكوكة فى بخارى سنة ٧٤٢ أو سنة ٧٤٣ (١٣٤٢ ـ ١٣٤٤) والمنقوشة بعبارة (سلطان خليل الله) تثبت وجوده ٠

ولا يعرف المؤرخون من أبناء ياساوور الا قازان ولدينا نقود تحمل اسمه ، وقد كان قازان هـذا يسـكن وادى نهر كشكه مثله كمثل كه به ك وتارما شيرين (وأنشأ لنفسه عـلى بعد منزلتين من قارشى قصرا يسمى (زنجير سراى) ثم هلك فى سنة ١٣٤٦ أو سنة ١٣٤٧ أثناء حربه ضد رؤساء العصاة من البدو، ولا نستطيع حتى الآن أن نجيب بصورة قاطعة عن هذا السؤال : هل ينتمى قازان وخليل الى أسرة واحدة أم لا ؟

الأمـراء الأتـراك

وبعـد وفاة قازان انتقـل الحـكم فيما وراء النهر الى الأمراء الأتراك كما تسميهم المصادر الفارسية ، أما الترك فقد كانوا يستعملون فى هذا المعنى كلمة (بك) أو الكلمة المغولية (نويون) وأول هؤلاء الأمراء هو (قازاغان) وكان معسكره الشتوى (القيشلاق) هو (سالى ــ سراى) الواقعة على نهر جيحون (وهى الآن عبـارة عن (سراى) الواقعـة شمالى ترمذ) وربما كان لهذه المدينة نفس المنزلة منذ عهـد الجغتائيين ، وقد دفن بها الخان قازان كما يروى مؤلف القرن الخامس عشر المجهول الاسم ، واذا نظرنا الى اسمها استنتجنا أن سراى الخان كان موجودا بها ، وقد كانت شواطىء جيحون تتخذ منـذ القـدم مشاتى للبدو ، وهنـاك قضى جنـكيزخان شتاء سـنتى ١٢٢٠ و ١٢٢١ ، أما فى الصـيف فقـد كان قازاغان ينتقل الى المكان الجبلى الواقع بجوار مدينتى مونك وبالجوان ، وكان قازاغان وخلفاؤه يجلسون عـلى العـرش رجالا تافهين من أسرة جغتـاى فى أول الأمـر ، ثم من أسرة أوكه دى ك بعد ذلك وكانت النقود التى تحمل أسماء هؤلاء الملوك تسك فى كل بلاد ما وراء النهر من ترمذ الى أوترار

ومن اسفيجاب الى سايزام ، ونحن نعلم أن القسم الشمالى من أفغانستان كان داخلا تحت حكم أمراء ما وراء النهر ولكنا لا نملك دليلا ينم على ذلك ٠

وكانت المناطق الشرقية من خانية جغتاى السابقة قد انفصلت عن بلاد ما وراء النهر انفصالا سياسيا تاما ، وكان لها خاناتها وامراء أمرائها (اولوس امير لرى) الذين كانوا فى وقت ما يجلسون الخانات على العرش وقد تطور التاريخ المتأخر لآسيا الوسطى ، بصورة جعلت أمراء ما وراء النهر يقبضون على ازمة الامور بأيد قوية ، حتى خرجت من بينهم الشخصية الفذة شخصية تيمور الذى أسس دولة مترامية الأطراف ، وقد وصلت ــ منقوصة بعض الشيء ــ الى خلفائه الذين تخلوا بالتدريج عن عادة الحكم من وراء ستار من الشخصيات التافهة ٠

خانات تركستان الشرقية

ومن جهة أخرى ظهرت فى الشرق أسرة من الخانات ازالت حكم هؤلاء الأمراء ، وأول هؤلاء الخانات هو (توغلوق تيمور) الذى ولد سنة ٧٣٠هـ (١٣٢٩ ــ ١٣٣٠) ، وصار خانا فى الثامنة عشرة من عمره أى فى سنة ٧٤٨ (١٣٤٧ ــ ١٣٤٨) ويدل التوافق الزمنى بين اعتلاء توغلوق العرش وخلع قازان خان على علاقة سببية بين الأمرين ، وان كنا لا نجد فى المصادر أية اشارة الى مثل هذه العلاقة ، كما أننا لا نعرف بالضبط متى انقرضت تماما أسرة جغتاى ٠

وليست لدينا معلومات صحيحة عن الوقت الذى انفصلت فيه آلماليق عن بلاد ما وراء النهر سياسيا ، ويقول المبشر المسيحى مارينوللى Marignolli الذى مر بآلماليق سنة ١٣١٤ انه بنى هناك كنيسة والقى عظاته بحرية تامة ، مع أن عددا من المبشرين من قبله كانوا قد هلكوا فى نفس المكان ٠

ولكن مارينوللى لا يذكر اسم خان آلماليق فى ذلك الوقت، وقد تولى الملك بعد السلطان على (الذى عرف بين خلفاء

أوكه دى بانه ضيق على النصارى والموصـــوف فى المصـــادر الاسلامية بأنه كان مستبدا) السلطان محمد بولاد ، وتوجد نقود سكت فى آلماليق فى شعبان سنة ٧٤٦ (١٣٤٥) تحمل اسم محمد وهى ـ فيما نعلم حتى الآن ـ آخر نقود سكت فى آلماليق ، وقد نسيت أسماء هـؤلاء السـلاطين بدرجة كبيرة فيما بعد ، ففى القرن السادس عشر كان محمد حيدر ـ وقد أفاد فى تحرير كتابه (تاريخ رشـيد) من أخبـار المغـول وآثارهم ـ يقرر أن توغلوق تيمور هو بن ايسان ـ بوقا ، مع انه لا يعقل ابدا ان يكون هذا الأخـير قد عاش بعـد سنة ١٣١٨ ، وفى المصادر الاقدم من ذلك يقرر أن ابا توغلوق تيمور هو (اميل خواجه) وهو أحد أبناء توا ٠

وقد ذهب أبو الغازى ـ من أجل أن يؤلف بين الخلافات الواردة فى المصادر الى أن أميل خواجة أوايل خواجه على حد ما كتب ـ كان ملقبا بـ (أيسان ـ بوقا) ولا توجد آية اشارة فى المصـــادر القــديمة ولا فى المصــادر المتأخرة الى انتماء توغلوق تيمور الى أسرة الخان ، فقد تزوجت أمه بعد وفاة زوجها الأمير أو ـ طبقا لرواية أخرى ـ وهو لا يزال عـلى قيد الحياة ـ ، أميرا آخر ، ونشأ تيمور توغلوق فى كنف هذا الأمير فكان يعتبر مثل ولده ومن المحتمل أن تكون الرواية القائلة بانتماء تيمـور توغلوق الى أسرة الخان موضـوعة ، وضعها الأمير المنتمى الى قبيلة دوغلات والذى أجلس عـلى العرش فى القسم الشرقى من ممتلكات جغتاى ٠

امبراطورية المغول المتتركين : تيمور والتيموريون

مصـادر تاريخ تيمـور

ولقد كان من المحتمل أن نعجز عن تصور الأوضاع فى آسيا الوسطى ، بل عن تصور الخطوط العريضة لهذه الأوضاع خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كان ذلك محتملا لو لم تتكون امبراطورية تيمور لنك ، فقد كان ظهورها سببا

فى تاليف كثير من الكتب التاريخيه ، بل لقد أوصى تيمور لنك نفسه بان يؤلف بعض هذه الكتب ، وتضم قصص الغزوات التيمورية اسماء كثير من زملائه فى المعارك المظفرة وكذلك أسماء الأماكن التى عاش فيها هؤلاء الزملاء هم واسلافهم ، وتبين أيضا الأجناس التى ينتمون اليها ، وفيها الى هذا مواد قيمة عن كلمات تيمور وحركاته وأخبار أصدقائه وأعدائه ، وعن خصائص البيئة التى عاش فيها ولكن هذه المواد لم تدرس بعد مع الأسف دراسة دقيقة ، بل لم تنشر بعد ليطلع عليها جمهور القراء ٠

وبين أيدينا ثلاثة مؤلفات عن تاريخ تيمور كتبها ــ تنفيذا لرغبة تيمور نفسه ــ مؤلفون ايرانيون ، وكتبوها بالفارسية ، وقد نشرت أكاديمية بطرسبرج فى سنة ١٩١٥ أقدم هذه التواريخ، معتمدة على نسخته الوحيدة الموجودة فى طاشقند وأما الكتاب الثانى فقد ألفه نظام الدين الشامى وهو يتناول الأحداث حتى سنة ١٤٥٣ ، وقد سمى باشارة من تيمور نفسه (ظفر نامه) = (كتاب الظفر) ولم ينشر شيء منه ٠ وتوجد من هذا الكتاب نسخة فى لندن ، كما توجد نسخة أخرى (١) فى استانبول أدرجها حافظ أبرو بتمامها فى مصنف رتبه سنة ١٤١٧ وأشهر هذه المؤلفات الثلاثة هو (ظفر نامه) لشرف الدين اليزدى وقد بدأ تأليفه سنة ١٤١٩ وأتمه سنة ١٤٢٥ ، وقد طبع هذا الكتاب فى الهند طبعة غير علمية ويمكن الاطلاع عليه فى ترجمته الفرنسية التى حررت فى القرن الثامن عشر (صاحب هذه الترجمة هو بيتى دى لاكروا Petis de lacroix أستاذ اللغة العربية فى « الكوليج دى فرانس » وظهرت هذه الترجمة فى باريس سنة ١٧٢٢) ٠

ولم ينشر حتى الآن مدخل هذا الكتاب وهو يحتوى على تاريخ العالم حتى ظهور تيمور ، ويضم فيما يضم تاريخ امبراطورية المغول ٠

---

(١) ترجمها الى التركية الاستاذ نجاتى لوكال سنة ١٩٤٩ ـ (المترجم) ٠

وظهرت مجموعة أخرى من الكتب عن تاريخ تيمور من بينها كتاب عن تاريخ العالم مجهول المؤلف وقدم الى السلطان اسكندر أحد أحفاد تيمور ، ومازال هذا الكتاب مخطوطا ، ولا يوجد منه فيما نعلم الا نسختان احداهما في لندن والأخرى في لينينجراد ، وكنت ــ في ثنايا كتابي عن أولوغ بك ــ أشير الى النسخة الثانية بعبارة (اسكندر آنونيمى) أى (كتاب السلطان اسكندر المجهول المؤلف) .

وقد استعمل مؤلف هذا الكتاب اللغة الفارسية مثله كمثل شرف الدين ، ولكنه كان أعلم منه بتقاليد آسيا الوسطى وعاداتها وأفكارها وقد أفاد حافظ أبرو من هذا الكتاب ومن كتاب نظام الدين الشامي حين ألف كتابه (زبدة التواريخ) في سنة ١٤٣٢ لحفيد آخر من أحفاد تيمور . ولم توجد حتى الآن نسخة كاملة من زبدة التواريخ .

ولم يعثر في أي مكان على القسم الخاص بتاريخ تيمور ، وانما عرفت محتويات هذا القسم من الكتاب الذى الفه فيما بعد المؤرخ عبد الرازق السمرقندى (١٤١٣ ــ ١٤٨٣) وقد تناول فيه الحوادث حتى سنة ١٤٧١ ، ومع أن مخطوطات كتاب عبد الرازق جميلة وكثيرة فانه لم يمكن نشره حتى الآن . وبالاضافة الى هذا الكتاب والى غيره من الكتب المحررة بالفارسية ، يوجد كتاب آخر يؤرخ الحوادث بحسب السنين وقد كتبه الباخشيلر ، الأويغوريون بأمر من تيمور ، وهو مكتوب باللغة الأويغورية وعنوانه (تاريخ خانى) وقد أشار الى هذا الكتاب مؤلف أوزبكى عاش في القرن السادس عشر ، ومن الواضح أنه كان يملك نسخة من هذا الكتاب ويبدو أن كلمة (باخشى) في هذا المقام ليست بمعنى الراهب البوذى ، وانما تدل على الموظف الذى يحرر الوثائق بالحروف الأويغورية ، ولم يكن هؤلاء الموظفون موجودين عند خانات جغتاى وعند تيمور فحسب ، بل نجدهم يعملون أيضا لدى خلفاء تيمور في القرن الخامس عشر ويبدو أن هذا الكتاب

ـ مثله كمثل كتاب اسكندر وكتاب محمـد حيـدر ـ يعنى بتقاليد الأستبس وبالمناقب وقصص البطولة أكثر مما يعنى بالحوادث التاريخية • ومن المحتمل أن تكون الحكايات المتعلقة بأهمية أسلاف تيمور فى آسيا الوسطى منذ عهد جنكيز وقبل عهده ، يحتمل أن تكون كلها من اختراع كتـاب تيمـور من الأويغور •

وكثيرا ما يبـدى علمـاء أوروبا أسفهم لضـياع كتاب (دورت أولوس تاريخى) = (تاريخ الشـعوب الاربعـة) الذى يقال ان أولوغ بك حفيد تيمور قد ألفه بالفارسية وقد وجدنا فى كتاب خوندمير وهو من مؤلفى القرن السادس عشر ، بعض الاشارات الى ذلك الكتاب ، ويقرر مؤرخ آخر من مؤرخى القرن السادس عشر ، ألف كتابه بالفارسية فيما وراء النهر ، أن كتابه خلاصة لكتاب أولوغ بك (توجد من هذا الكتاب مخطوطتان فى لندن وقد طبعت احداهما مع ترجمة انجليزية سقيمة سنة ١٨٣٨) ولا شك أن هذا المؤلف قد أضاف من عنده أشياء ولكن خوندمير يؤكد أن أولوغ بك لم يؤلف هذا الكتاب ، وانما ألف الكتاب باسمه فقط ، وقد كرر هـذا الكتاب ـ مع بعض الاضافات ـ ما ورد فى كتاب رشيد الدين وفى مدخل كتاب نظام الدين الشامى ، وهكذا فان ضياعه ليس خسارة فادحة للعلم •

ومهما يكن من شىء ، فما كان تدوين التـاريخ بآسـيا الوسطى فى عهدى المغول والتيموريين ليخرج كتابا يضاهى كتاب رشيد الدين ، ومن المحتمل أن سجل حـكايات المغـول الموسوم (بالكتاب الذهبى) والمحرر بأسلوب أدبى مصنع كان معروفا فى الصين وفى آسيا الوسطى ما عدا ايران •

ومع هذا ، فليس لدينا من الروايات ما يدل على شـدة رواج هذه الحكايات فى آسـيا الوسـطى ، وكان المنتظر أن يذيع كتاب رشيد الدين بين الشعوب التركية ، بفضل ما فيه من تصوير صادق وواضح لحياة البدو ، ولكن الملاحظ أن

هذا التصوير كان أعظم قيمة عند (اتراك الغرب) أى آتراك آسيا الصغرى منه عند آتراك تركستان ، فهنــاك لم يترجم كتابا رشيد الدين وشرف الدين اليزدى الى اللغــة التركيــة الا فى بداية القــرن الســادس عشر حيث ترجمــا للخــان الأوزبكى كوجكونجى Koutchkonutchi ، أما فى آسيا الصغرى فقد استغل كتاب رشيد الدين فى تحــرير كتاب (تاريخ آل سلجوق) الذى ألفالسلطان العثمانى مراد الثانى (١٤٢١ ــ ١٤٥١) (بعض أقسام هذا الكتــاب عبارة عن ترجمــة من الكتابين الفارسيين كتاب الراوندى وكتاب ابن بيبى) ٠

ومن آيات استغلاله أن مؤلف (تاريخ آل سلجوق) اخذ ما ورد به من كلمات جنكيزخان وادرجهــا فى كتابه ، بل ترجمها الى التركية ونسبها فى جرأة عجيبة الى جد الأتراك الأسطورى أوغوز خان ، وقد ذهب أحد علماء الترك الى أن كتاب (اغوز نامه) يحتوى على كل القــوانين التى نقلهــا جنكيزخان ٠ ولكن المقارنة بين النصين الفارسى والتركى تدل بوضوح على أن الثانى ترجم عن الأول ، وفى بعض الفقرات أخطأ المؤلف التركى فقرأ الكلمة الفارسية (ســنك) (أى حجر) بحذف النون فصارت (سك) بمعنى (كلب) وهكذا صارت الجملة المترجمة (الكلب الذى وقع فى الماء ، بدلا من الحجر الذى وقع فى الماء) ٠

واذا قارنا بين روايات رشيد الدين وبين الحكايات التى كانت ذائعة فى أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، عن أحداث القرن الثالث عشر ، وجدنا أن ليس لهذهالحكايات سند من الواقع ، وأنها وضعت لتوضــح بعض الأحــداث أو لتعلل حدوثها ، وقد حدث الأمر نفسه فى حكومة تيمور وفى الولايات الشرقية التى انفصلت عما وراء النهر ٠

وقد نشأ تيمور فى قبيلة مغولية متتركة هى قبيلة بارلاس (بارولاس بالمغولية) وكانت هــذه القبيلة تحــكم وقتذاك الأماكن الواقعة على نهر كشكة ، ويحدثنا رشيد الدين بأن

(قاراجار) وهو الأمير الجغتائى الذى اعتبر فيما بعد جـدا لتيمور كان منسوبا الى برلاس ولكن رشيد الدين لا يشير الى أن قاراجار أو ذريته القريبـة قد اشـتركوا بأى قسط فى الحكم ، هذا بينما تتواتر الروايات فى عهـد تيمـور بان قاراجار وخلفاءه كانوا ــ من بين خانات الجغتائية ــ أصحاب قدرة وشوكة ، مثلهم فى ذلك كمثل تيمور نفسه ، وتضيف هذه الروايات أن حكمهم كان يسـتند الى معـاهدة عقدها (قابول) وهو الجد الأعلى لجنكيزخان مع أخيه قاجول وهو الجد الأعلى لقاراجار ، وتقول هذه الروايات أيضا ان تلك المعاهدة قد جددت مرات عـديدة ، بل تذهب الى أن وثيقة مكتوبة خاصة بهذا الموضوع قد فقدت أثناء الاضطرابات فى القرن الرابع عشر ٠

ومن ناحية أخرى فان الدوغلات ــ وهم يمثلون احدى القبائل المغولية المتتركة ، وكانوا يحكمون فى منتصف القرن الرابع عشر مساحة شاسعة ــ تضم بالاضـافة الى تركستان الصينية ــ فرغانة والجزء الشمالى من يدى صو حتى بحيرة ايسيق كول ، هؤلاء الدوغلات يزعمون أن جغتاى منح جدهم (اوتروبو) حكم تلك البلاد هذا ، مع أن رشيد الدين يقرر حين ــ يتحدث عن قبيلة الدوغلات ــ أن ليس من أعضـائها (حتى وقته هو) من تمتع بأية منزلة أو أى شأن ٠

المغـول المتتركـون

ولا شك أن المنزلة التى أحرزتها القبائل المغولية المتتركة فى ذلك الوقت فى شرق آسيا الوسطى وغربها جديرة بامعان النظر ، ولم يحص المؤرخون العشائر التى انقسم اليها البدو فى كل من الحكومتين ولا نكاد نجد بين ما ذكر من أسـمائها اسما واحدا كان يطلق فيما مضى على أحد الشعوب التركية ، وكان للعنصر القبجاقى فى حكم تيمور ذكر ما على حين لم يكن للعنصر القارلوقى أى ذكر ، وكان الأويغور يذكـرون بوصـفهم الذى ينتمى اليـه كتاب تيمـور (الباخشيلر)

وخلفائه • ومع أن هناك اشارات الى الآراضى التى يقطنها كل عنصر ، فان رشيد الدين لا يذكر شيئا عن الأراضى التى كان الأويغور يقطنونها وقد ذكر أن عدد أفراد الجيش الذى عينه جنكيزخان لخدمة جغتاى هو أربعة آلاف فقط •

ولكن كثيرا من أسماء العشائر المغـولية كان يذكر بين أسماء البدو باسيا الوسطى فى القرن الرابع عشر ، ويدفعنا هذا الى الظن بأن أعدادا ضخمة من المغول كانت قد وفدت على تركستان فيما بعد • ولا ريب فى أن أبناء العشيرة الواحدة والمكان الواحد كانوا يرحلون الى أماكن مختلفة ، ومن هنـا كان كثيرا ما يذكر اسم العشيرة الواحدة فى الولايات التابعة لتيمور • ويذكر فى نفس الوقت فى الولايات الشرقيـة • وقد كان شعب الدوغلات مثلا على ذلك ، والى هـذا الشـعب ينتمى الأمير داود صـديق تيمور وزوج أختـه (قوتلوغ توركان) ويلاحظ فى نفس الوقت ان اسم عشيرة بارلاس كان موجودا فى الولايات الشرقية •

ومما يلفت النظر أن كلمة (جغتـاى) لم تكن تطلق الا على البدو الخاضـعين لحـكم تيمور ، ومع أن الخـانات بالمناطق الشرقية كانـوا أقوى وأهم وينتسـبون أيضـا الى جغتاى ، فان بدو هذه المناطق كانوا يسمون أنفسهم المغول ويسمون بلادهم مغولستان = بلاد المغول واسم المغـول يرد فى النصوص المغولية فى آسيا الوسطى بصيغة (مونغـول) فقد جرت العادة على ألا تنطق النون ، ولم يحتفظ بلسـانه من المغول الذين هاجروا الى الغرب الا قبيلة (بريجكى) وهى تعيش الآن فى أفغانستان وحتى هذه القبيلة تقول عن نفسها (موغول) • ويعتقد المغـول أنهم هم الممثـلون الحقيقيون لشمائل آسيا الوسطى وكانوا يزدرون الجغتائيين لبداوتهم ويطلقون عليهم (قاروناس) أى المولدون •

ومن ناحية أخرى فان الجغتائيين ــ بوصفهم أصـحاب الدول المغولية بآسيا الوسطى ــ يطلقون عـلى المغول كلمـة

(جته) بمعنى الصعاليك وقطاع الطرق • وتطلق كلمة جته أيضا على جماعات البدو التى تخرج على النظام السياسى السائد ، وتقف موقف المحارب وقد سبق أن أشرنا الى كلمة أخذت نفس المعنى فى القرن الخامس عشر وهى كلمة قازاق ، هذا وقد حاول بعض علماء أوروبا أن يقربوا بين هذه الكلمة (جتة) وبين اسم الكوت القدماء Gets del'antiquite ولدينا حتى الآن أسئلة لم تعرف أجوبتها :

الى أى مدى كان مغول القرنين الرابع عشر والخامس عشر مغولاً من الناحية اللغوية ؟

وهل يجوز اعتبار العداء بين المغول والجغتائيين عداء قوميا بين الترك والمغول ؟ •

توجد شواهد على أن لغة المغول فى القرن السادس عشر كانت هى اللغة المغولية •

ويقول بابر ان جده أحمد كان يحمل اللقب المغولى (آلاجى) وتستعمل هذه الكلمة فى اللغتين المغولية والقالموقية بمعنى (القاتل) • ومن ناحية أخرى فان محمد حيدر يعتبر المغول والقيرغيز أمة واحدة ، ويؤكد أن الفرق الوحيد بين الطائفتين هو أن المغول دخلوا الاسلام وأن القيرغيز ظلوا مشركين ، ومهما يكن فقد كان خلفاء الخان أحمد أتراك اللسان ، وكان ولده سعيد خان المتوفى سنة ١٥٢٢ يقرض الشعر بالتركية والفارسية وكان محمد حيدر يفرق بين المغول وبين السكان الأصليين لشرق تركستان ولم يكن يطلق كلمة مغولستان الا على مناطق الاستبس التى تمتد من بالخاش فى الغرب (بالخاش هى الحد بين أوزبكستان ومغولستان) ، الى بلاد القالموق فى الشرق والمحدودة من الشمال باميل ايرتش ، ومن الجنوب بفرغانة وبمناطق تركستان الشرقية الممتدة من كاشغر الى بارس كول وفى القرن السادس عشر طرد القالموق والقيرغيز المغول من مناطق الاستبس هذه ، ولكن المغول استطاعوا البقاء فى كاشغر ، ويقدر محمد

حيدر عددهم فى كاشغر بثلاثين الفا ، ولم تكن الظروف فى كاشغر مساعدة على مواصلة حياة البداوة ، وبعد ان زالت أسرة الخانات في القرن السابع عشر اندمج المغول فى أهل البلاد حتى نسوا فى نهاية الأمر أنهم مغول • ولم يبق بينهم وبين السكان المقيمين فرق كبير من الناحية اللغوية حتى أن كلمة كنجاك الواردة فى كتاب الكشغرى فى القرن الحادى عشر ــ كانت كما يبدو ــ قد نسيت تماما من زمان بعيد •

ومن هنا ، فانه على الرغم من آن البدو بشرق بلاد المغول لم يتأثروا بالاسلام وان طراز حياتهم كان من اجل ذلك يختلف عن طراز حياة الآخرين ــ على الرغم من ذلك ــ لم يكن بينهم عداء كالذى كان بين الترك والتاجيك والسارت فى بلاد جغتاى • وكان من التقاليد فى بلاد المغول أن يقضى الشاب مدة وحيدا فى الجبال والبرارى وأن يذهب على مسيرة شهرين من أقرب مكان معمور ببلاده ، ويعيش زمانا على لحوم الحيوانات ويلبس جلودها • وكان لمن يقوم بهذه الرياضة من الفتيان شأن كبير ، ولم يكن ممكنا بطبيعة الحال أن توجد عادة كهذه فى بلاد جغتاى •

وفى عهد تيمور كان الجغتائيون يعتبرون أنفسهم جنودا مسلمين ، ولكنهم ظلوا محافظين تماما على تقاليد جنكيزخان سواء فى الزى أو فى التشكيلات العسكرية ، وكانوا يطلقون على قانون البدو العرفى المنسوب الى جنكيزخان كلمة (تورا) ومن المحتمل أن تكون هذه الكلمة تحريفا للكلمة التركية القديمة (تورو) وأن يكون هذا التحريف بتأثير الكلمة العبرية (توراه) الواردة فى القرآن ، وقد اتهم تيمور والجغتائيون لشدة تمسكهم بالتقاليد الجنكيزية بأنهم يقدسون (التورا) كما يقدسون الشريعة حتى لقد أصدر أصحاب النفوذ من علماء سورية فتوى، أكدوا فيها أن تيمور وأتباعه غير مسلمين • وفى سنة ١٣٧٢ قيل لسفير تيمور فى خوارزم : ان بلادكم دار حرب وان الجهاد ضدكم فرض على

المسلمين ، وكان من الفروق الظاهرة التي تميز تيمور واتباعه عن سائر المسلمين ، ارسال الشعر • ويؤيد هذه الحقيقة كثير من المحفوظات المزودة بالصور والتى صورت فى آسيا الوسطى فى ذلك الوقت ـ وعندما حاصر تيمور دمشق ١٤٠٠ ـ ١٤٠١ خرج عليه حفيده السلطان حسين وانضم الى المحاصرين فقصوا على الفور شعره وغيروا زيه •

النظام القبلى عند الجغتائيين

من الصعب أن نعرف بالتفصيل كيف كان الجغتائيون يقسمون القبائل والعشائر، وترجع هذه الصعوبة الى غموض الاصطلاحات ، فكلمة (اولوس) مثلا وهى أوسع هذه الاصطلاحات معنى (يقال مثلا اولوس جوجى أو اولوس جغتاى) ، وكلمة (ايل) و (تومان) والكلمة المغولية (آيماق) وكثيرا ما تكتب (اويماق) هذه الكلمات جميعا بمعنى واحد • وقد أخذت اللغة التركية كلمة (تومن) بمعنى كثير أو بمعنى عشرة آلاف ، عن لغة الشعب الكشغرى و بدأت هذه الكلمة تطلق فيما بعد على سكان الحضر أكثر مما كانت تطلق على البدو أو الجيش ، وقد فرق محمد حيدر بين أربع طبقات كانت تعيش فى بلاد كاشغر أو (فى كاشغر وختن على حد تعبيره) :

١ ـ تومن : القرويون •

٢ ـ قائوجين Qautchim الجيش •

٣ ـ اويماق : البدو ، وكان لهم الحق فى مقادير معينة من القمح ومن المنسوجات •

٤ ـ طبقة الموظفين والعلماء •

وكانت كلمة (تومان) تستعمل فى بخارى حتى وقت قريب ، للدلالة على سكان الوادى وذلك فى مقابل كلمة (كوهستانى) بمعنى ساكن الجبل • ولقد بين السفير

الأسبانى قلاويخو Ceavijo وضع الجغتائيين فى بلاد تيمور بالنسبة لسكان الحضر وكان بيانه أوضح مما ورد عن هــذا الموضوع فى المؤلفات الشرقية . قال انهــم يســتطيعون أن يرعوا قطعانهم فى أى مكان فى الصيف والشتاء ، ويستطيعون أيضا أن يزرعوا فى أى مكان وهم أحرار تماما لا يدفعــون للامبراطور ضرائب ، ولكنهم كانوا يخدمون فى الجيش متى استدعوا .

وتتميز بين الجغتائيين قبائل أربع هى :

آرلات وجلاير وقاجين وبارلاس ، وقد رأينا أن كلمــة (قاوجين) لم تكن تستعمل فى أول الأمر للدلالة على القبيلة أو البطن ، ولكنها كانت تطلق على الفريق المميز من الجيش ويقول شرف الدين اليزدى ان الخان كان يطلق هذه الكلمة على حرسه الخاص، ومن المحتمل أن يكون قازاغان (١٣٤٦ ــ ١٣٦٨) وهو أول من حكم من الأمراء الجغاتائية فيما وراء النهر ــ قد نشأ واحدا من هؤلاء القاوجين ــ (وغلب تيمور فيما بعد حفيد قازاغان وقتله) . وأما الأســماء الثــلاثة الأخرى فقد كانت منذ القــدم أسماء لبعض أقوام المغــول . وكان كل منهم يحــكم جزءا معينـــا من الأراضى فى بلاد جاغاتاى . فكان الآرلات فى شمال أفغانستان والجلاير بجوار خوجند على ضفاف جيجون ، وكان البارلاس يحكمون ضفاف نهر كشكة والى جانب هذه القبائل كانت توجــد عشـــائر جاغاتائية تكــونت حــول بعض الخانات والأمراء ثم حملت أسماءهم بعد موتهم ، وكان لهذه العشائر رؤساؤها كما كانت لها أراضيها ، ففى جوار بلخ مثلا كانت توجد (عشيرة كبك) = (كبك تومانى) وقد ورد فى المخطوطة مجهــولة المؤلف التى اصطلحنا على تسميتها (مخطوطة اسكندر) أن كبك حصل فى أثناء سلطة أخيه ايسان بوقا على حق أن يجمع حوله بعض الأغنياء من كل قبيلة (ولا شك أن هؤلاء الأغنياء

هم البدو الذين يملكون اكبر عدد من القطعان) • ويقــول المؤلف : ومن هؤلاء الناس تنحدر الجماعة التى تتسمى الآن ــ من فرط غرورها ــ بجماعة كبك (تاكه امروز مفاخرت بانجو كرئى كبك ميكننــد) ويقرر نفس المصــدر أن قبيلة الأمير ياساوور عدو كبك قد انضمت الى هــذا الأخير بعــد هزيمة ياساوور • ولكن الياساووريين كانوا يعيشــون فى عهد تيمور الى جوار سمرقند بوصفهم احدى البطون المستقلة وكان رئيسهم الأمير خضر يحــكم سمرقند كمــا تقرر نفس المخطوطة •

تيمــور والقبــائل

ولا شك فى أن العلاقات كانت وثيقة بين تيمور وقبيلة بارلاس التى ينتمى اليها ، وكثيرا ما كان أفراد هذه القبيلة يوصفون بأنهم (اخوة تيمور) ، وكان تيمور حتى بعــد أن نصب رئيسا على امبراطورية جاغاتاى يناضــل ضــد أمراء الآرلات والجلائرية ، ليحكم مدة أطول حتى لقد أعلن فى سنة ١٣٧٦ أن قبيلة جلاير قد حلت ، بل محيت وألحقت بقاياها بالقبائل الأخرى •

وعلى أية حال ، فلم يكن الأمراء المقربون الى تيمور هم أمراء البارلاس وحدهم، بل كان من بينهم أمراء يمثلون قبائل أخرى ، ومن هــؤلاء آق بوغا المنتمى الى قبيلة نايمان ومن دلائل قربه أنه حجز لنفسه ــ كما حجز غيره من زملاء تيمور فى القتال ــ مكانا الى جوار قبر تيمور (كان المفروض أن يكون قبر تيمور فى أول الأمر فى شهر سبز) ومن اللافت أن أماكن هذه القبور كانت تسمى موجيــل وهى الكلمــة التى تطلق على موضع الكتيبة أو مكان الفرد فى ميدان القتال ، ويدل هذا على أن تيمور كان موطن اجلال الجاغاتائيين عامة والأعيان منهم خاصة • ولكنه مع هذا كان يحس أنه أقرب الى العنصر العسكرى فى البلاد منه الى سكان المدن والقرى •

هذا ولكن البدو فى حكومتي اسيا الوسطى وهما حكومة المغول وحكومة جاغاتاى كانوا يعتقدون أن تيمور قد ارتكب جرما كبيرا باختياره مدينة كبيرة لتكون عاصمة لملكه ، ولأنه — وان لم يتخذها مقرا دائما له — بدأ يشيد فيها المبانى ٠

ذلك ان البدو كانوا يعتبرون هجرة أمرائهم ورؤسائهم الى المدن اخلالا بقانون جنكيزخان ، وقد نسب اتراك آسيا الصغرى النصيحة القائلة (شد الرحال دائما لا تقعد) الى أوغوز خان والنص التركى لهذه النصيحة هو : (دائم كوج أدلر ، أوتوراق أولمايالر) ، وكلمة (أوتوراق) الواردة فى هذه العبارة والتى يستعملها أتراك آسيا الصغرى أقرب معنى الى الكلمات الأوروبية المستعملة فى نفس المعنى (مثل Sédentaire الفرنسية و Sesshaft الألمانية و Osedlyi الروسية) من كلمة (جاناق) المستعملة فى آسيا الوسطى ، ومما لا شك فيه أن النفور من حياة الحضر كان أكثر تأصلا فى منغوليا منه فى الغرب ٠

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر اضطر الخان المغولى يونس — بسبب استياء رعاياه من المغول — الى التخلى عن توطن آق صو (مع أن آق صو هذه ما كانت لتدرج فى عداد المدن الا بالنسبة الى ظروف منغوليا) هذا على حين كان خلفاء تيمور قد أحرزوا فى نفس الوقت شأوا بعيدا بفضل ما شيدوا من مبان فى سمرقند وهراة ٠

ولما استولى يونس بعد سنين على سايرام وطشقند (من المعروف أن قبره فى طشقند) خرج عليه قسم من المغول برياسة ولده أحمد الذى ما لبث أن اصطدم بأبيه وبأخيه الأكبر ٠ وقد بقى أحمد هذا — كما كان دائما — محاربا بدويا محتفظا بتقاليد البدو وبزيهم وعلى هذه الصورة رآه صهره بابر سنة ١٥٠٢ ٠

وقد تفردت روايات حوادث القرن الرابع عشر بالاشارة الى تمرد البدو على الدولة الجاغاتائية ، بسبب نزعة

الحكام الى حياة الحضر ، وكان المؤرخون يمدحون قازاغان لانه بقى مستمسكا بقواعد الحياة البدوية ، يقضى الشتاء على ضفاف نهر جيحون ، والصيف على جبال بلجوان ، ولا يطأ أراضى اهل المدر ٠

وقد هاجم ابنه عبد الله مدينة خوارزم دون اذن منه فافتدى الأهالى أنفسهم بمائتى تومان (مليونا دينار فضى) ، ولكن أباه لم يكد يعلم بهذا الاعتداء غير المسبب على بلاد المسلمين حتى آخذه بشدة ٠

ويقال ان قازاغان كان يحسن معاملة الترك والتاجيك، ومع أن عبدالله قد أحسن الادارة بعد وفاة قازاغان ، الا أنه أثار الاستياء باتخاذه سمرقند مقرا للحكم ، فقد أدى هذا الى أن خلعه الأمراء قبل مضى عام على وفاة أبيه ، وبعد بضع سنين حافلة بالقلاقل قبض حسين حفيد قازاغان على أزمة الحكم ، وحاول هو الآخر أن يتخذ من بلخ عاصمة له ولكن تيمور نصحه بأن يعتبر بما حدث لعمه وأقنعه بالعدول عن الفكرة ، ثم قامت الثورة ضده واشترك فيها تيمور فلما قتل حسين انتقل الحكم الى تيمور ، ولم يكد يمسك بمقاليد الحكم حتى ارتكب ما سبق أن آخذ عليه عبد الله وحسين ، فاتخذ من المدينة الكبيرة سمرقند مقرا للحكم وبنى بها القلاع والحصون ٠ ويمكن أن نستنتج من هذا أن سكان الاستبس لم يكونوا يريدون استبدال حياة الحضر ، بحياة البداوة ، وأن بقاءهم فى مروجهم كان متمشيا مع قوانين جنكيز خان من ناحية ، ومع منافع أهل الحضر ــ وهم التاجيك ــ من ناحية أخرى ٠

ولم يكن الخان والأمراء ينتقلون وحدهم الى المدينة ، بل كان يرحل معهم كثير من أبناء عشيرتهم ، وكان التوفيق صعبا بين منافع السكان القدماء وبين هؤلاء المهاجرين الجدد، خاصة أن السكان القدماء كانوا تحت حكم رؤساء البدو وكانوا يتحملون الضر بسبب الحروب الداخلية بين هؤلاء الرؤساء ٠

ويقول مؤلف مخطوطة الاسكندر عندما تناول تأسيس مدينة أنديجان فى عهدى (قايدو) و (توو ا) ان الخانات كانوا يستوفدون الناس من كل البلاد الخاضعة لهم ليسكنوهم فى المدينة وفى زمن المؤلف كان لكل قوم أو ــ بتعبير أدق ــ لكل بطن من بطون البدو • حى خاص بالمدينة •

تيمور وحضارة المدن

كان تيمور عارفا بالفارسية الى جانب التركية ، ملمـا بالاسلام من حيث هـو عقيـدة واقفا عـلى العلوم والفنـون الاسلامية ، استدعى العلماء من كل مكان الى سمرقند ، وحفر القنوات وشيد المبـانى حتى لقـد كانت أفعاله فى التعمير لا تقل أثرا فى نفوس معـاصريه عن أعمـاله فى التخـريب والتدمير ، ولم يكن العنصر التركى يسهم فى أعمال تيمور • وكانت خوارزم ــ من بين ممتلكات تيمور ــ أكثرها تتركا وقد بنى صناع خوارزم لتيمور قصرا عظيما فى شهر سبز اسمه القصر الأبيض (آق سراى) ولم يكن بهذا القصر ــ عدا اسمه ــ أى شىء تركى فلم تنقش مثلا أية كلمة تركيـة فى القصر عـلى حين وجدت بين نقوش جـدرانه ــ أبيات كثيرة فارسية ــ ولم يكن تيمور من محبى الشعر فارسـيا كان أو تركيـا ، واذا اسـتثنينا ما يقـال من أنه قابل حافظ سنة ١٣٧٧ ، فانه يمكن القول بأنه لم يعرف شـاعرا واحدا من شعراء ايران ، وقد برهن تيمور بالقبة الفخمة التى أنشأها فوق قبر الولى التركى أحمد اليسوى عـلى عنايتـه بالأمور الروحية لرعاياه من الترك (وكانت هـذه القبة هى البنـاء الوحيد الذى شيده تيمور خارج سمرقند وشهر سبز) ، ومع هذا فان وثيقة وقف هـذا البنـاء ــ وقد وصلت الينـا ــ محررة بالفارسية •

وسأحاول أن أجمع فى المحاضرة القادمة بعض المعلومات عن مستوى أتراك آسيا الوسطى الاقتصادى والحضارى فى عهد خانات الأوزبك •

المحاضرة الثانية عشرة

امبراطورية تيمــور

لا شــك في ان تيمور لم يكن يقصــد ـــ ابان تاســيس امبراطوريته ـــ الي تحقيق غايات الترك القومية وانما كان يقصد الى الاستيلاء على أكبر عدد من الممالك ، او على العالم كله اذا أمكن ، وليس لدينا دليــل عــلى أن تيمور كان ملما بتاريخ الاسكندر المقدوني ، ولكن مؤرخه ينسب اليه عبارة نسبت من قبل الى الاسكندر والى من شابهه من غزاة العالم ، ومن بينهم عضد الدولة أقوى حــكام البــويهيين فى القرن العاشر الميلادى ، وهذه العبارة هى (لا يستحق العالم كله أن يملكه حاكمان) • وقد فكر تيمور فى أن يكلل فتوحاته بفتح الصين مثله فى ذلك كمثل خوارزمشاه من قبله ونادر شــاه من بعده ، ولم يكن بينه وبينهما سوى فرق واحد هو أن فتح الصــين بالنسبة الى خوارزمشاه ونادرشــاه كان غاية بعيدة المنال ، أما بالنسبة اليه فقد كان أمرا ممكنا أعد له عدته وحشد له جيوشه ولم يحل بينه وبين الغزو الا الموت ، وكانت استعداداته للغزو معروفة فى الصين ، حتى لقد بدأ الصينيون يتخذون التدابير لدفع الهجــوم المتــوقع • وتقــول احــدى الروايات ان قادة جيش تيمور أرادوا بعد وفاته أن يواصلوا تنفيذ الخطة ويزحفوا على الصين ، ولكن شــغلهم عن هــذا ما ظهــر فى داخــل امبراطــورية تيمــور من فتن وقلاقل ، ونستطيع أن ندرك من كل ما تقدم الى أى حد كان الأتراك المسلمون يهتمون بالصين • ولقد أشار بابر فى مذكراته الى أنه كان يحلم كثيرا بقيادة حملة ضد الصين ، بل لقد واصل هذا التفكير بعد أن انقطــع عن كل نشــاط سياسى بســبب هزائمه العسكرية ، وكان وقتذاك لا يستطيع أن يبقى فى

الصين لو دخلها فاتحا مثلما كان تيمور سيفعل، بل كان سيقيم هناك بوصفه ضيفا فقط ٠

وفى عهد تيمور وخلفائه بقيت سمرقند مركزا تجاريا مهما ، يرد عليه كثير من السلع الصينية ومع هذا ، فلم يكن بتركستان فى العهد المغولى معلومات علمية عن الصين ، كتلك التى وجـــدت فى نفس العهـد بايران ، وخاصة فى كتب رشيد الدين ، وقد وصف سفارة شاهرخ الى الصين (١٤١٩ ــ ١٤٢٢) ــ وهى السفارة التى اشترك فيها وفد من سمرقند ــ عضو ايرانى فى هيئة السفارة نفسها ٠

خــراب خــوارزم

كانت المناطق المتأثرة بالمدنيــة الايرانيــة هى الهــدف الآصلىلغزوات تيمور، وكانت خوارزم ــ لأسباب جغرافية ــ أول هذه المناطق استهدافا للغــزو ٠ ولم تكن خــوارزم ــ وسكانها فى ذلك الوقت من الأتراك ــ تقل حضارة عن اية منطقة من مناطق ايران ، وقد نقــل منهــا تيمور كثيرا من العلماء والصناع الى سمرقند فشيدوا له القصر المســمى آق سراى ومازالت بقاياه حتى اليوم تدل على مهارتهم ، فهــــو لا يقل حسن صنعة عن أى مبنى من مبانى تيمور بســمرقند وبخاصة من حيث تغطية الجدران بالفسيفاء الصينى ٠

وقد قضت الظروف وقتذاك بأن تتحمــل خــوارزم من ويلات الحروب التيمورية أكثر من غيرها ٠

وكانت خوارزم ــ قبل ذلك بقليل ــ قد تخلصت من حكم الآلتون اوردو ودخلت تحت حــكم أسرة من تلك الأسر التى ظهرت ــ كأسرة تيمور ــ بين المغول المتتركين ، ولــكن حسين صوفى وهو أحد حكام خوارزم لم يكن يسمح بأن يقارن بين أهل خوارزم الذين تمثلوا الحضارة الاســلامية تمثــلا كاملا وبين الجاغاتائيين الذين يشبهون المشركين زيا وتقاليــد ، وفى سنة ١٣٧٢ رفض المحادثات مع ســفير تيمــور الموجود

بخـوارزم وقال له في خشـونة ان بلادكـم دار حـرب وان مجاهدتكم فرض على المسلمين • وبعد أن استولى الجاغاتائيون على خوارزم سنة ١٣٨٩ ثارت ضدهم عدة مرات •

وفي أثنـاء الحـرب بين خان الآلتون اوردا توختاميش وبين تيمور انحازت خوارزم عدة مرات الى توختاميش ، بل سكت فيها العملة باسمه، ومن أجل هذا كله كان طالع خوارزم وبخاصة عاصمتها أوركانج ، أشد نحسا من سائر البلاد التى فتحها تيمور • ومع أن سكان المدن قد تعرضوا غير مرة أثناء حروب تيمور للقتل العام ، فلم تتخذ التدابير للابقاء عـلى خراب هذه المدن ، ومن هنا كان عدد السكان كثيفا فيما بعد في نفس الأماكن التى قتل بها عشرات الألوف • وفي نفس هذه الأماكن عاش أحفاد تيمور • ولكنأوركانج ـ كمدينة ـ كانت قد امحت تماما ، وزرع فى مكانها الشعير اعلانا عـلى خرابها • وبعد ثلاث سنين تقرر احياء أوركانج ولـكن فى ربع مساحتها قبل التدمير ، ومع هذا فلم تستطع أن تستعيد أهميتها التجارية والثقافية ، وخاصة أنها كانت ـ بسـبب موقعها الجغرافى ـ معرضة للأضرار الناجمة عن الحرب بين الأوزبك أى أتراك الآلتون اوردا وبين الجاغاتائيين • كان تيمور كما رأينا نموذجا للمحارب الجاغاتائى ، ولا شك فى أن الأتراك الجاغاتائيين كانوا أقرب الى نفسه من التاجيك أصحاب القومية الايرانية • وفي جيش تيمور كان يوجـد الايرانيون جنبا الى جنب مع الترك • ولكن المؤرخ الخراسانى حافظ آبرو يقرر أن تيمور كان يعتمد أكثر ما يعتمد عـلى الكتائب الخراسانية فى جيشه ، وفى نفس الوقت كان تيمور يقول فى كلمة منسوبة اليه : « ان الخصال العسكرية قاصرة على الترك » • وقال تيمور أيضا قبيل وفاته يوصى أبنـاءه وأحفاده ان السلطان أحمـد جـلاير ـ الذى كان فيما مضى حاكما على غرب ايران ـ لم يكن يقلقه أو يشـغل باله لأنه كان تاجيكى المزاج •

ومهما يكن ، فلابد ان تيمور كان متأثرا ككل الأتراك بالمدنية الايرانيــة ، وكان تيمورا أميــا لا يقرأ ولا يكتب ولكنه كان على قســط من الثقــافة وكان يلعب الشــطرنج ويخالط العلماء وحصل له من محادثاتهم علم ببعض العلوم ، وقد أدهشت معلوماته التاريخيــة ابن خلدون أكبر مــؤرخي العرب في ذلك الوقت ، ولم يكن تيمور يعنى بالانتصارات العســكرية فحسب ، بل كان يجلب العلمــاء الى عاصمة ملكه ليتوج عظمته بالأبنية الفخمة وبمنشآت الرى ، وكان تيمور يعتمد فى كل ذلك على أصحاب الثقافة الايرانية أو ــ عــلى الأقل ــ على أناس ينتمى أغلبهم الى العنصر الايرانى .

وبمناسبة الحملة التى كان يزمع أن يقودها لغزو الصين اتخذ ــ فى أواخر سنى حياته فقط ــ بعض التدابير التى لم يكن يتحرج أى حاكم معاصر لنا من أن يتخذها منذ البداية ، فحاول أن يخضع الأقوام التركية المغولية اخضاعا كاملا، ولم يكن قام ضدها قبل ذلك الا ببعض الغارات ، ثم بنى القلاع فى مناطق الاستبس وكانت القلعة المشيدة الى جــوار بحيرة (ايسيق ــ كول) تعتبر من القلاع الأمامية ، وبذل الجهود كذلك لاحياء الزراعة ولاحياء الحياة الحضرية ، ولكن كل ما حقق تيمور من الاصلاحات ما لبث أن زال بعد وفاته ، ولم يوفق خلفاؤه ــ رغم كل جهودهم ــ فى اخضــاع البــدو من جــــديد .

التيموريون فى هراة وفى سمرقند

ولم يكن تيمور حسن الحظ فى أولاده وأحفاده مثــل جنكيز ، فان أولاده لم يعجزوا عن توسيع حدود الامبراطورية فحسب ، بل عجزوا أيضا عن المحافظة عليها ، فبعد قليل من وفاته فقد أبناؤه كل بلادهم ما عــدا تركســتان والمنــاطق الشرقية والجنوبية من ايران .

ولكن صغر الامبراطورية والهدوء النسبى الذى سادها فى الداخل ، وضيق العمليات الحربية ، كل أولئك مكن من

يبذل الجهود فى النواحى المدنيه على نحو لم يكن موجودا فى عهد تيمور .

وتحولت العاصمة من سمرقند الى هراة مقر شاهرخ بن تيمور ، الذى أصبح ــ بعد عدة حروب داخلية ــ الحاكم الأعلى على كل البلاد الخاضعة لأبناء تيمور ، وقد حكم أولوع بك أكبر أبناء شاهرخ فى مدينة سمرقند زهاء اربعين عاما (١٤٠٩ ــ ١٤٤٩) ظلت سمر قند فى خلالها أكثر المدن ازدهارا ، وقد فاقت المبانى التى شيدها أولوغ بك المبانى التى أقامها جده تيمور قوة بنيان ، ودقة أبعاد وروعة مظهر ، لم يكن لمبانى سمرقند أو هراة أى طابع تركى قومى ، نعم لقد أنشئت ــ بالاضافة الى المساجد والمدارس ــ الحمامات والربط والمؤسسات الخيرية بوجه عام ، ولكن لم يكن من بين هذه المؤسسات جميعا بناء له طابع قومى ، كذلك البناء العظيم الذى شيده تيمور حول قبر اليسوى ، وكتلك الزاوية التى أعدها للدراويش المقيمين ولاستقبال الدراويش الوافدين من الخارج ، وفى الوثائق الرسمية وصفت هذه الزاوية ــ وهى جزء من نفس البناء المذكور ــ بأنها خانقاه أعدت لاقامة الدراويش « خانقاه مسافر بناه » .

واقامة هذا البناء عمل يتفق مع الاعتقاد بأن من واجب الرؤساء قضاء حوائج الرعايا واكرامهم .

الأدب الجغتائى فى عهد التيموريين

وفى مقابل هذا تقدم الأدب التركى فى عهد خلفاء تيمور بعد أن لم يكن له ذكر فى عهده هو ، نعم كان الشعر موجودا فى امبراطورية الجاغاتائيين منذ زمان ، فقد كان كابل شاه (الذى نصب خانا فى سنة ١٣٦٦ ثم خلع بعد مدة قليلة) يقول الشعر وكان له صيت شعبى حتى القرن الخامس عشر ، وكان يقرر بوصفه خانا أنه من خلفاء جنكيز خان .
ومن الواضح أن لغته هى التركية ، والمرجح أنه كتب بها

اشعاره ، وكان سيف الدين برلاس وهو رفيق تيلمسون في ميادين الحرب يقول الشعر بالفارسية والتركية . والذين اكثر الشعراء شعبية بعد وفاة تيمور هما الشاعران السكاكي ولطفي ، وكان الشاعر الكلاسيكي على شيرنوائي يقين بمواهب لطفي الشعرية ، وقد مضى على ولادته حتي عامنا هذا الهجري خمسمائة عام (كان ذلك سنة ١٢٣٤ — ١٣٤٥) هجرية .

أما السكاكي فقد مدح في أشعاره السلطان خليل (١٤٠٥ — ١٤٠٩) حفيد تيمور ، وحاكم سمرقند ، ثم مدح من بعده أولوغ بك ، وكانت أشعاره فيه أكثر منها في السلطان خليل ، وقد تحدث الشاعر عن نفسه في قصائده التى أهداها لأولوغ بك فقال : « سيدور الفلك سنين طوالا قبل أن يجود الزمان بشاعر تركى مثلى، وبحاكم عالم مثلك»،

أما الشاعر لطفى فكان يقول ان أشعاره التى لا تقل عن أشعار سلمان الساوجى (وهو من شعراء ايران فى القرن الرابع) معروفة لأولوغ بك ، وقد عاش الشاعر التركى (سيدى أحمد بن ميرانشاه) وهو من ذرية تيمور فى كنف شاهرخ وأولوغ بك ، ويمكن أن نستنتج من عنوان منظومته (تعشقنامه) التى كتبها لشاهرخ سنة ٨٢٩ (١٤٣٥ — ٣٦) أنها كانت تقليدا فى بعض نواحيها لمنظومة (محبتنامه) للخوارزمى شاعر الألتون اوردا فى القرن الرابع عشر ، وفى نهاية عهد التيموريين (فى أواخر الخامس عشر وأوائل السادس عشر) كان بانروهو من خلفاء ميرانشاه يقرض الشعر بالتركية ، ويؤخذ من كلامه أن ابن عمه بايسونقور الذى حكم زمانا فى سمرقند كان هو الآخر شاعرا شعبيا .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ظهر على شيرنوائى فأفلت نجوم الشعراء أجمعين . ولم تعش آثار بعد موت مؤلفها الا آثار نوائى ، كما لم تتجاوز مؤلفات حدود الممالك التيمورية الا مؤلفاته ، فحتى مؤلفات بابر — ولا مراء

فى قيمتها ــ لم يبق منها الا عدد قليل من المخطوطات ، وقد تعرضت للنسيان ، حتى اكتشفها علماء أوربا من جديد ٠

وكان نوائى الذى ينزع الى الثقافة الايرانية قد أدخل فى الشعر التركى بعض الموضوعات الفارسية ، ووضع كتابا عن ملوك الفرس الأقدمين ٠

ولكنه ــ على كل حال ــ كان يعلى شأن الشعر التركى واللغة التركية ٠ وقد حاول أن يثبت (فى كتاب ألفه قبيل وفاته) فضل اللغة التركية على اللغة الفارسية ولم يكن أحد من المؤلفين ــ وبخاصة فى آسيا الصغرى ــ قد جرؤ فيما نعلم على أن يتناول هذا الموضوع قبل نوائى ٠

وكان الشعراء الترك يكتبون مؤلفاتهم فى سمرقند وهراة ، حيث كانت جمهرة السكان من التاجيك وحيث لم يكن العنصر التركى ممثلا الا فى الأسرة الحاكمة وفى الجيش ، ولكن تبوأ الأتراك كراسى الحكم كان بلا ريب يزيد أهمية اللغة التركية ، ففى مصر مثلا ــ حيث كان العنصر التركى ممثلا فى الجيش فقط ــ ظهرت بعض الكتب التركية ، وكانت غالبيتها مترجمة ٠

ولم يكن كل أفراد الأسرة الحاكمة يعتبرون أنفسهم تركا ، ويقدرون التقاليد التركية، بل لقد استطاعت التقاليد (التركية ــ المغولية) أن تستأصل التقاليد التركية الخالصة وأن تقوم مقامها ، وكانت التشكيلات العسكرية التركية فى ذلك الوقت احدى مخلفات امبراطورية جنكيز ، وكانت بعض الاصطلاحات العسكرية المغولية تستعمل الى جانب الاصطلاحات التركية ، ومن هذه الاصطلاحات كلمة « خوشون » التى كانت تستعمل بمعنى الفيلق العسكرى ، ولكن هذه الاصطلاحات المغولية قد ماتت ٠ وكان مدى تعلق الخانات بقوانين جنكنيزخان هو الذى يحدد مدى استمساكهم بالتقاليد التركية ، ففى هراة مثلا لم يكن شاهرخ يريد أن يتصف الا بأنه سلطان مسلم وخليفة ، وأبى لذلك أن يعترف

بقوانين جنكنيزخان ، على حين كان اولوغ بك في سمرقند يرعى فى الأمور العسكرية ــ على الأقل ــ قوانين جنكيز، وكان يجلس على العرش ملوكا اسميين ، كما كان يفعــل تيمور ، وعلى الجملة كان يدبر أمور الملك مستوحيا جده ٠

أولــوغ بــك

وعلى العكس من تيمور لم يســتطع اولوغ بك أن يغير ــ فى حياة أبيه ــ على غرب آسيا ، وكان من نتائج هذا ان اكتسبت غزواته فى الآلتون اوردا وفى منغوليا اهميــة لم تكتسبها غزوات تيمور ، ولكن اولوغ بك لم يستطع مع هذا أن يعيد النظر فى الخطط التى وضــعها تيمور فى أواخــر حياته ، بل كان قصاراه أن يرفع الى العرش الأسر التى يرضى عنها من سكان البــلاد الأصليين ، وهى الغــاية التى ارادها تيمور ولم تتحقق له ، وكان من باب أولى ألا تتحقق لأولوغ بك الذى لم تكن له فيما يبدو مواهب جدهالعسكرية ، ولا سجاياه كفاتح ٠ حتى ان نتيجة أكبر مشروعاته العســكرية وهــو هجومه على منغوليا فى سنة ١٤٢٥ كانت سلبية ، وفى نهاية حكمه ، كانت المناطق الخاضعة لحكمه أضيق منها فى بداية عهده : اذ اغتصب منه المغول الولايات الواقعة شرقى سايرام، واغتصب الأوزبك المناطق المجاورة لسيحون والواقعــة فى الجزء الأسفل من تركستان (توركستانك أشاغى طرفلرندة) وفى ذلك الوقت عظمت قــوة الأوزبك تحت حــكم الخــان أبى الخير ، وعلى أيدى أولاده وأحفاده كانت نهاية ســلطنة التيموريين ٠

وقد استولى أبو الخير لمدة محــدودة فى شتاء ١٤٣٠ ــ ١٤٣١ على مدينة أوركانج ، وعلى القسم الشمالى من خوارزم، وفى ١٤٤٨ انقض أبو الخير على ما وراء النهر ، بينما كان أولوغ بك يحاول ــ عقب وفاة شاهرخ ــ أن يدخل خراسان تحت حكمه ، وفى ١٤٥١ أغار أبو الخير على المناطق المجاورة لسمرقند ونهبها ، ثم بدأ يتدخل فى الحروب الداخلية التى

وقفت بين التيموريين فيما وراء النهر، فبمعاونته مثلا انتصر أبو سعيد (من خلفاء ميرانشاه) على عبد الله وهو من خلفاء شاهرخ وابن أخي أولوغ بك ، وكان انتصار أبى سعيد نصرا (لخواجة أحرار) كبير الدراويش فى آسيا الوسطى وزعيم المعارضين لأولوغ بك ولنظمه الادارية .

وكان أولوغ بك يجل جده تيمور ، ويحافظ فى نفس الوقت على التقاليد العسكرية التركية ــ المغولية . بل كان الى حد ما وطنيا تركيا وتشهد على هذا النقود التى سكها باسمه في سمرقند وهراة خلال العامين اللذين قضاهما على رأس حكومة التيموريين ١٤٤٧ ــ ١٤٤٦ . (قبل سنة ١٤٤٧ كانت العملة تسك فى سمرقند باسم شاهرخ ، مع أن سمرقند كانت فعلا تحت حكم أولوغ بك ، ويوشك اولوغ بك أن يكون الوحيد بين التيموريين الذى نقش عملته باللغة التركية . وتوجد عملة منقوشة بالتركية بين عملات تيمور نفسه) وأما العبارة المنقوشة على سكة أولوغ بك فهى (أمير تيمور كور كان همتيدين أولوغ بك كور كان سوزوم) وترجمتها : ان كلمتنا ــ ببركة الأمير تيمور كوركان ــ هى كلمة أولوغ بك كوركان .

وكانت كلمة سوزوم أو سوزمز بمعنى (كلمتى) أو (كلمتنا) كانت هذه الكلمة تستعمل حتى أواخر عهد الأسرة بمعنى يارليغ أى (الأمر الملكى) وهى ترجمة الكلمة المغولية (أوكامنو) tige Manu التى تجدها على عملة تيمور . وأما كلمة (كوركان) فمعناها الصهر وهى لقب اتخذه تيمور ، كما اتخذه بعض أولاده للدلالة على أنهم ينتمون الى جنكيزخان .

التيموريون والمدنية الاسلامية

ولم يكن استمساك أولوغ بك بالقومية التركية يمنعه من أن يأخذ من المدنية الايرانية أكثر مما أخذ تيمور ، اذ لم يكن يقتصر ــ مثل تيمور ــ على لقاء العلماء ، بل كان يشتغل

هو نفسه بالعلم عامة وبعلم الهيئة خاصة ، وهو من هذه الناحية نموذج نادر فى التاريخ الاسلامى للحاكم العالم . وكان معاصروه يشبهونه فى هذا الباب بالاسكندر المقدونى تلميذ أرسطو ، أى أنهم لم يكونوا يجدون له شبيها فى التاريخ الاسلامى ، وتشتهر كتب أولوغ به وكتب خلفائه الأقربين فى علم الهيئة بأنها آخر ما وصل اليه المسلمون فى موضوعها .

ويدل تعلق أولوغ بك بالعلم على أن سمرقند فى عهده كانت أرقى منها فى عهد تيمور ، وكان من أصحاب تيمور بعض العلماء ، وكان منهم قسم من عساكر الترك ولكن لم تكن هناك علاقة بين هؤلاء وهؤلاء ، ولم يكن بين أصحاب تيمور من الترك عالم واحد . فأما أولوغ بك فلم يقنع بأن يكون هو نفسه عالما فى الهيئة ، بل اتخذ لنفسه من بين أصحابه من الترك تلميذا وخلفا هو على قوشجى ، ويدل اسم هذا الشخص على أنه كان كبير القائمين على خدمة الصقور (شاهينجى) عند أولوغ بك ، وكان ـ بهذه الصفة ـ من المقربين اليه ، لأن (أولوغ بك) كان مولعا بالصيد بالصقور ومن هنا سماه بابر (قوشجى بادشاه) ، أى الملك صاحب الصقور .

وقد تعلق على قوشجى مثل سيده بعلم الهيئة ، واشترك فى انشاء مرصد أولوغ بك وفى ترتيب جداول الزيج ، ولابد أنه كان أصغر سنا من أولوغ بك بدليل أنه يشير اليه فى الجداول بعبارة (ابنى) = (فرزند) ، وظل على قوشجى وفيا لعلمه بعد وفاة أولوغ بك ، ثم اشتغل فى استانبول وتوفى سنة ١٤٧٤ وكان يجوب بلاد التيموريين بالزى التركى مما يؤيد أنه كان تركى الأصل . ويمكن أن يستنتج من هذا أن عساكر الترك (الجاغاتائيين) كانوا يختلفون فى المظهر الخارجى عن أهل البلاد من التاجيك ، وأن هذا الخلاف كان موجودا فى عهد أولوغ بك كما كان موجودا فى عهد تيمور .

ولاشك فى أن ظهور العلماء من امثال أولوغ بك وعلى قوشجى من بين الناطقين بالتركية أمر له أهميته ، وان كان هؤلاء العلماء لم يحاولوا أن يكتبوا بالتركية ولكن حرروا كتبهم بالفارسية والعربية ·

ويظهر من كتاب أولوغ بك أنه كان يؤثر العلوم ذات الأهمية العالميـة على الدراسات القومية ، وذلك لان العلوم الأولى لا تتاثر باختلاف اللغة أو الدين وبالاضافة الى التاثر بالمدنية الايرانية ، فقد كان تيمور ــ رغم تقريبه لطبقـة العسكر من الأتراك ــ يقرب أيضا أصحاب القومية الايرانية حتى لقد اتخذ لسلطنته شعارا فارسيا هو « راستى رستى » أى «العدل قوة» · ومن المعروف ان أولوغ بك ــ على علمه ــ كان أكثر تركية من جده ، ولكنه كان من غـير شـك يحسن اللغة الفارسية ، ومن المحتمل أنه كان يناقش بها أصحاب علم الكلام من أهل البلاد وكان من بين علماء الكلام هـؤلاء مشـايخ الاسـلام فى سمرقند ، وهم أحفـاد برهان الدين مرغينانى مؤلف الهداية من رجال القرن الثانى عشر ، وعنه ورثوا مشيخة الاسلام فى سمرقند ، ومن الجدير بالملاحظة أن مشايخ الاسـلام هـؤلاء كانوا يتهمون ــ مثل أولوغ بك نفسـه ــ بعـدم رعاية أحـكام الاسـلام ، وبالانغماس فى المحرمات (لم يكن أحد يجسر فى عهد تيمور أن يتهم الحاكم بمثل هذا) · والواقع أن ما كانوا يسـتمتعون به فى ذلك العهد ، كدعوة المغنيات واقامة الحفلات أمر غير عادى وغـير جائز من وجهة نظر الاسلام ، وفى نفس الـوقت فان هـذه التصرفات تدل على مدى بعد الحياة فى سـمرقند فى عهـد تيمور وأولوغ بك عن أحكام الدين ، وكان من المنتظر ألا يفيد مع هذه الحرية ومن هذا الرقى المدنى الا الحكام وطبقة الأغنياء ، ولـكن الواقع أن طبقة الشـعب لم تكن بمنأى عن كل هذا ، فقد روى (قلاويخو) وهو يصف الحفـلات التى كانت تقام فى عهد تيمور أن الشعب كان يدعى للمشـاركة

فيها ، ويروى ابن عربشاه آن سراى تيمور وحدائقها كانت مفتوحة للأغنياء والفقراء مادام تيمور غير مقيم فيها ٠

ومما يجدر ذكره جريان العادة فى مناسبات افراح الاسرة المالكة على اعلان ان السكان (تارخان) اى معفون من الضرائب ، وكان على الاهالى ان يدفعوا من اموالهم للفاتحين من البدو وأن يشتغلوا لحسابهم، مثلهم فى هذا كمثل دافعي الجزية من غير المسلمين في الدول الاسلامية ، ولم يكن دخول هؤلاء البدو فى الاسلام ليغير هذه العادة المجافية للتقاليد الاسلامية ، وفى سنة ١٣٦٥ ثار أهالى سمرقند على حكامهم من الترك واتهموهم بأنهم يصرون على جباية (الجزية) من المسلمين ، ولم يكن اعفاء الأهالى من الجزية تطبيقا لحكم اسلامى ، بل ربما كان تطبيقا لأحد قوانين البدو الخاصة بأهل الحضر ، وهو قانون التارخان (أى الاعفاء من الضرائب) وكان تمتع أى فرد بالاعفاء يعنى أنه أخرج من طبقة دافعي الجزية وألحق بطبقة النبلاء ، وقد حفظت أوامر الاعفاء هذه بين البراءات التى صدرت بأسماء الخانات فى الحكومات التى انقسمت اليها امبراطورية المغول، وقد بقى حق الاعفاء قائما فى مناطق الفولجا حتى بعد خضوعها للحكم الروسى ، وكان سازيا حتى عهد اسكندر الثانى ، ولا شك أن قانون البدو لم يكن يقصد أساسا الى أن يعفى سكان مدينة بأسرها من الضرائب ٠ ومع هذا فقد ظل هذا القانون مطبقا على سكان العاصمة بعد ذلك حتى عهد الأوزبك ٠ وفى نهاية القرن الثامن عشر أصدر شاه مراد والأمير مسعود وهما من أشد الناس استمساكا بالشريعة وحماسا لها ترخانا ، أعفي بمقتضاه أهالى بخارى من الجزية والضرائب أى أنهما لم يرجعا فى هذا الأمر الى الشريعة ولكن الى قوانين البدو ٠

وكان هذا الامتياز يضع أهل العاصمة فى مكان أعلى بالنسبة الى سكان المدن الأخرى ، والى سكان القرى الذين ساءت حالتهم الاجتماعية بصورة مؤلمة تحت حكم البدو ٠

الانهيــــــار

لم يكن للتيموريين ولا لغيرهم من دول آسيا الوسطى الوقت الكافى ليقيموا على أرض الوطن حياة ثقافية راسيه الأساس ، وقد أحدثت القلاقل فى فترة الانتقال ازمات استغلها الغزاة الأجانب • فلا شك مثلا فى أن ظهور خواجه أحرار ، وثورة الدراويش ، كانا متصلين بجهاد الايرانيين القومى ضد الترك فقد كان خواجه أحرار نفسه من التاجيك ولم يكن بين أنصاره المقربين تركى واحد فيما نعلم ، ومع هذا فقد كان التصوف ينتشر بين بدو الترك وكان أبو سعيد متفقا مع خواجه أحرار ، ولكن هذا الاتفاق لم يقطع علاقته بتقاليده القومية ، وتدل على ذلك رؤيا رآها أبو سعيد ، فقد رأى أحمد اليسوى وخواجة أحرار ، وقال له الأول ان الثانى هو مرشده (أى مرشد أبى سعيد) • وكان أبو سعيد كحاكم يحافظ على تقاليد التيموريين ، وكان يرسم على عملته شعار تيمور وهو عبارة عن ثلاث حلقات صغيرة •

خانيــة الأوزبك

هلك التيموريون فى صراعهم ضد قوم من الترك خرجوا من الاستبس وهم الأوزبك ، ولم يكن هـــؤلاء الأوزبك قد تعرضــوا لتأثير الحياة الحضرية الايرانيــة الا قليــلا جدا بالنسبة الى الجاغاتائيين ، فحافظوا بذلك على عادات البــدو وتقاليدهم ، ولم يكن خانات الأوزبك يحتاجون ـ كما احتاج تيمور واولوغ بك ـ الى أن يستثيروا فى نفوس البدو النعرة العسكرية للقومية التركية ، فلم تكن الأساطير المتعلقة بخصال الأوزبك العسكرية مرتبطة بالخانات ولــكن كانت مســتقلة عنهم تماما بل كانت فى كثير من الأحيان ضدهم ، وقد أدرجت مناقب الأوزبك العسكرية فى حروب القرنين الرابع عشر والخامس عشر فى مؤلفات المؤرخين التيموريين ، وكانت هذه المناقب أكثر حيوية من المنــاقب التى وضــعت عن تيمــور وأجــداده ، وفيما وراء النهــر ظهرت الى جانب الــروايات

التاريخية عن تيمور آخبار اسطورية كذلك ، ولكنهـا حررت باللغة الفارسية ، وما لبثت ذكرى تيمور أن تحولت الى نوع من التقديس الديني ، كما تشهد بذلك النفوس المسكوكة على عملة أولوغ بك ، وأما التصوير الحى لتيمور الأعرج (أقساق تيمور) بوصفه قائدا عسكريا فيوجد فى منـاقب التتـار والنوغاى لا فى تركستان ٠

كان الأوزبك ، كما كان الأتراك في عهد التيموريين ، يرون فى أحمد اليسوى وليا قوميا ٠

وقد سميت المدينة التى دفن بها أحمد اليسوى ــ وكانت قد أصبحت في وقت ما عاصمة للأوزبك ــ سميت هذه المدينة (تركستان) وتدل هذه التسمية دلالة واضـحة عـلى تقديس الترك لأحمد اليسوى ، وعلى أهمية الأفكار التركية القوميـة عند الأوزبك ، وتوجد فى المبنى الذى شيده تيمور على قبر اليسوى قبور كثير من خانات وخواتين الأوزبك، وبعد هزيمة شيبان ووفاته فى أثناء الحرب بين الأوزبك والايرانيين سنة ١٥١٠ ، وبعد آن فقد الأوزبك ــ لمـدة قصـيرة ــ سمرقند وبخارى وسائر البلاد التى فتحـوها ، انسحبوا الى مدينـة تركستان هذه التى ورد ذكرها ٠

وكان شيبان حفيد أبى الخير فاتح دولة التيموريين ، وهو تركي مؤمن بتركيته ، ولكنه مع هذا لم يكن مندفعا فى فتوحاته باحساسه بقوميته التركية ٠

وكان كغيره من البدو يفتح البلاد واحدة بعد الأخـرى ولا يقف الا أمام الصعوبات التى لا يمكن اقتحامها ، وبفضل انتصاراته العسكرية قبض ــ كما قال مؤرخ ايرانى ــ على ناصية المجد فى توران وايران ، وفتح خراسان ، وما كان ليقنع بفتح ايران كلها لو لم يهـزم أمام جيـوش اسماعيل الصفوى مؤسس ايران الحديثة ، وقبل ذلك بقليل هزمه قسم من القازاق فى مناطق الاستبس الشمالية ٠

(وهؤلاء القازاق فريق من الاوزبك انشقوا على بومهم وسموا من اجل ذلك (قازاق) وكان البدو يطلقون هذا الاسم على الجماعات التى تنشق على اقوامها وتحاربها) وكان تعبير (اوزبك ــ قازاق) مستعملا فى اول الامر ، ويدل وجود مثل هذه الفئة المنشقة على أن الاوزبك كانوا مثل من سبقهم من البدو لا يميلون الى الانضواء باختيارهم تحت لواء خاناتهم الذين كانوا يستغلونهم فى توسيع رقعة ممتلكاتهم، وكان فتح ما وراء النهر على يد فئة جديدة من الترك ، لم تتأثر قطعيا بالمدنية الايرانية عاملا على تطوير اللغة التركية فيما بعد ، وبخاصة فى ميدان الترجمة ، والواقع ان هناك عددا من المؤلفات كتبت لخوانين الأوزبك الأول ومنذ سنة ١٥٣٠ تحدث القوم عن أبى سعيد حاكم سمرقند (وهو ابن عم شيبان) بوصفه تركيا يجهل الفارسية جهلا تاما ، ولكن الفاتح لا يستطيع أن يظل هكذا أجنبيا بالنسبة لأهل البلاد المفتوحة .

وكان عبيد الله خان بخارى المتوفى (١٥٣٩) ، (وهو ابن أخى شيبان) يعتبر من أصحاب الكمال لا لأنه يحافظ فقط على تقاليد البدو ، ولكن لأنه يراعى أيضا أحكام الشريعة الاسلامية .

وفى القرن السادس عشر كان خان بخارى المشهور عبد الله (توفى ١٥٩٨ وأخذ فى حوزته ــ عدا ما وراء النهر ــ خوارزم وخراسان) يدير أمور ملكه بنفس الروح ، ولما اعتلى عبد الله العرش سنة ١٥٨٣ حمل على فروة بيضاء ، وكانت تقاليد البدو تقضى بأن يمسك بأطراف الفروة الأربعة أربعة رؤساء يمثلون أربع قبائل من قبائل البدو ، ولكن عبد الله عدل عن هذا وبدلا من أن يحمل الفروة هؤلاء الرؤساء الأربعة حملها رؤساء الطرق الصوفية ببخارى ، ويدل هذا على أنه كان يحاول أن يؤلف بين عادات المشركين من البدو وبين الروح الاسلامى السائد فى دولته .

وبلغ عبد الله مقاصده باتباع الوسائل التى اتبعها غيره من حكام آسيا الوسطى من المغول والترك ، وكان عهده عهد خير على سكان المدن خاصة فقد أفادوا من أداة حكمه القوية ، ومازالت مآثره العمرانية تذكر فتشكر فى تركستان حتى يومنا هذا • فاليه ينسب شق كثير من القنوات ، وبناء كثير من الكراوانسرايات وغيرها من المؤسسات الخيرية •

ولكن البدو لم يكونوا يحتاجون فى ذلك الوقت ـ كما لم تكن بهم حاجة من قبل ـ الى أن يتحدوا تحت راية حاكم قوى ، ومن هنا فقد كانت انتصارات عبد الله عليهم دامية الى أقصى حد ، ولم يكن عبد الله يقنع باستئصال أفراد الأسرة الحاكمة بمن فيها من الرضع بل كان يبيد الكتل الشعبية أيضا ، وخصوصا عندما غزا مناطق الاستبس الشمالية ، ويحكى أن قوما أرادوا ألا يواصل المجزرة بعد أن بدأها فى احدى المرات فدفعوا أمامه ـ عن قصد ـ عربة تحمل جثث القتلى ، ولكنه لم يرق ، ومضت المجزرة حتى نهايتها ، ومع هذا فلم يفد كثيرا من هذا القتل العام ، فعلى الرغم من خسائر القازاق الفادحة ، فقد هاجموا ـ قبل وفاة عبد الله ـ بلاد ما وراء النهر ، ووصلوا الى سمرقند ، وما لبثت الدولة التى أسسها عبد الله أن مزقت وقسمت بعد وفاته ووفاة ابنه عبد المؤمن ، وانتقلت كل المناطق التى فتحها الى أسرة أخرى لم يكن لها من قبل الا جزء من بلاد أبى الخير ، ولم يستطع أحد من الخانات المتعاقبين أن يوحد البلاد بقدر ما وحدها عبد الله

خوارزم تحت حكم الأوزبك

ومن المظاهر التى أثرت على مصير خوارزم ظاهرتان : انعدام الوحدة السياسية بين الأوزبك ، وفقدان الحماس لخلق هذه الوحدة •

وكانت خوارزم فى آخر عهد التيموريين تابعة للسلطان الحاكم فى هراة ومستقلة أستقلالا تاما عن سلطان سمرقند،

ولم يغز الشيباني خوارزم الا بعد سمرقند أى فى نفس الوقت الذى وجه فيه حملته الى خراسان ، ومنذ عهده كانت خوارزم جزءا من الخانية الاوزبكية التى تضم سمرقند وبخارى ، ولكن شاه اسماعيل بعد أن انتصر فى حرب ١٥١٠ ترك سمرقند وبخارى لبابر اخر التيموريين ، وبدأ يعين على خوارزم ولاة من قبله هو ، ثم طرد أقارب الشيبانى بابر من بلاد ما وراء النهر ، وطرد الولاة الايرانيون قوما من الاوزبك من نسل شيبانى ولكن ينتمون الى فرع غير فرع ابى الخير ، وفى القرن السادس عشر خضعت خوارزم مرتين (فى عهد عبيد الله وعبد الله) لخانات بخارى ، وكان من نتائج ذلك أن طال عمر أسرة ابناء الشيبانى بخوارزم عن عمر أسرة الأوزبك بسمرقند بخارى ، ذلك أن حكمها استمر حتى آخر القرن السابع عشر تقريبا ، بينما انتهت أسرة أبى الخير فى القرن السادس عشر ، ويروى المؤرخ الخوارزمى خان أبو الغازى (ت ١٦٦٣) أن زوال أسرة أبى الخير كان عقوبة لها ، على ما قام به عبد الله من ابادة أفراد الأسرة الحاكمة بخوارزم ، ويرى أيضا فى تصرفات عبد الله بخوارزم علامات الجهل ، ولكنه مع هذا يقدر عبد الله كحاكم ويقرر أن العملة التى سكت فى زمانه كانت مرتفعة القيمة فى سوق النقد الدولية ومع هذا ، فقد كان أبو الغازى من بين خانات خوارزم أول من بدأ سلسلة الهجوم على بخارى ، وبدأها بشخصه ، حتى ان بخارى ـ فى عهد ابنه وخليفته آنوشه ـ دخلت لمدة قصيرة تحت حكم الخوارزميين ٠

الفوضى والانحطاط الثقافى

وهكذا بدأ منذ ذلك الوقت الصراع الدامى بين الأقوام التركية بآسيا الوسطى ، ذلك الصراع الذى استمر حتى فتح الروس والصينيون تركستان ولم يكن هذا الصراع يقع بين الحكومات فقط ، بل كان مشتعلا أيضا بين العناصر المختلفة التى تنضوى تحت لواء كل حكومة على حدة ، وفى القرنين

السادس عشر والسابع عشر كانت الاقاليم الخاضعة للحكم التركي ، تمتد من بحر الخزر غربا الى هامي في الشرق ومن هندوكوش وقوئنلون في الجنوب الى حدود البلاد الروسية في سيبريا شمالا ، وكانت حال هذه المناطق الشاسعة تدل على أنها انحطت حضاريا من وقت قريب، ويحار المؤرخ الذى يريد أن يشرح هذا الوضع فى التمييز بين السبب والمسبب وهذه هى الحال فى كثير من المشكلات التاريخية ولم يكن بد، وقد وقع جزء كبير من آسيا الوسطى بيد قوم متخلفين حضاريا كالأوزبك ، من أن تفقد آسيا الوسطى جزءا من أهميتها فى التجارة الدولية ، ذلك أن نشاط التجار كان محفوفا بالصعاب بسبب فقدان السلطة السياسية الموحدة فى تلك الدول ، ففى خوارزم مثلا كان كل عضو من الأسرة الحاكمة يحاول أن يجبى لشخصه رسوما على كل شيء ٠

ومهما يكن ، فقد كان من الممكن تخطى كل الصعاب فى سرعة ويسر لو أن الطريق الذى يقطع آسيا الوسطى والذى سلكته القوافل حتى ذلك الوقت ، كان قد احتفظ بقيمته التى اكتسبها فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فى عهدى تيمور وأولوغ بك ٠٠ تلك القيمة التى فقدها تدريجيا فى النصف الثانى من القرن نفسه، بعد أن كشف الأوروبيون أمريكا والطريق البحرى الى الهند ، وبعد أن انتقلت الأهمية الكبرى الى التجارة البحرية التى قبضوا على أزمتها ، وعدا هذا فقد أوجد استيلاء الروس على سيبريا طريقا بريا جديدا يصل بين أوربا وبين الشرق الأقصى ، فحتى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، كان تجار سيبريا يتعاملون مع الصين بواسطة قوافل تجارية تصل ما بين آسيا الوسطى وبين مدينة جوجونو على حدود الصين ، وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر، عقدت بين روسيا والصين بعض المعاهدات التى نظمت علاقتهما التجارية ، فظهر نتيجة لهذا طريق جديد الى الصين (وهو طريق سيبريا) الذى عززه فى أوائل القرن العشرين خط حديدى ، وهكذا أخذت أهمية تركستان تسقط

فى ميـدان التجارة الدولية ، ولئن كانت سـيطرة الأوزبك المتخلفين حضاريا على آسيا الوسطى ، قد حتمت تحويل الطرق التجارية الى مسالك أخرى ، فان هذا التحويل قد أثر عليهم بدوره تأثيرا سيئا فزاد مستواهم الحضارى انحطاطا ، وحال بينهم وبين الرقى الى حد كبير ، ومع هذا ، فليس بين أيدينا ما يثبت أن الأوزبك وغيرهم من أتراك آسيا الوسطى كانوا ــ فى القرنين السـادس عشر والسـابع عشر ــ أقل قابليـة للمدنية من غيرهم من أتراك العصور الوسطى ٠

التركمــان

كانت خوارزم أقصى مواطن الترك فى أسـيا الوسـطى نحو الغرب وكان اهاليها يتكونون ــ بالاضافة الى الاوزبك ــ من السارت والتركمان ، ولم يكن الأوزبك قد استعملوا بعد كلمة (سارت) بمعنى كلمة (عجم) أو (غير تركى) كمـا كان يفعل التيموريون ، بل كانت كلمة سارت في ذلك الوقت تدل على سكان المدن وهم قوم يتكلمون التركية مثل الأوزبك، ولكنهم يختلفون عنهم اختلافا كبيرا من الناحية الحضارية ، وفى العادات والتقاليد ٠ وكان أبو الغازى يدرك الفروق بين الأوزبك والسارت لا من حيث ان الأوزبك بدو يحتفظون بنظامهم القبلى فقط ، بل من حيث هم أيضا قرويون يشتغلون بالزراعة ، ولم يكن السارت فى ذلك الوقت قد لعبوا دورهم السياسي والعسكرى فى تاريخ خوارزم ، وعلى العـكس من هذا كانت الوقائع الدامية متوالية بين التركمان والأوزبك حتى أواخر القرن السـادس عشر ، وفى بعض الأحيان كان خانات خوارزم يستعينون بالتركمان فى صراعهم ضد رؤساء الأوزبك ، وكانوا يسفكون كثيرا من الدماء الأوزبكية بأيدى هؤلاء التركمان ، ومما يدل على ما كان للتركمان من الأهمية أن المؤرخ الخوارزمى أبا الغازى أفرد تاريخهم بكتاب ، عدا الكتاب الذى ألفه فى تاريخ الترك وخصص الجـزء الأكبر منه لتاريخ الأوزبك، وقد حافظ التركمان أكثر من الأوزبك

على طرز حياتهم العسكريه وعلى اشعارهم القومية . بل لم يكن لغيرهم من الاقوام التركية شاعر قومي ، فقد كان لهم الشاعر مخدوما قوليا ، ولم يكن التركمان يعتبرون الأوزبك أتراكا بل كانوا يعتبرونهم (تات) ، وكان محمود الكشغرى يطلق هذه الكلمة على غير البدو من سكان المدن وكان التركمان في ذلك الزمان يعيشون ــ كما عاشوا دائما ــ فى فوضى سياسية ، ومما يلفت النظر أن هؤلاء التركمان الذين خرج منهم مؤسسو أكبر امبراطوريتين تركيتين وهما الامبراطورية السلجوقية ، والامبراطورية العثمانية هؤلاء التركمان لم يكن لهم فى أى وقت دولة مستقلة ، ومنذ القرن السادس عشر كان بعض أقسام التركمان يخضع للأوزبك فى خوارزم وبعضهم للبخاريين وبعضهم للعجم ، وكانوا ــ فى أثناء الحروب التى تقوم بين هذه الدول ــ ينضمون أحيانا الى هؤلاء ، وأحيانا الى هؤلاء ، وأحيانا يحارب بعضهم بعضا ، ولكنهم مع هذا كانوا يغلبون أعداءهم ، وكان التركمان أشد الناس مقاومة للروس وآية هذا أن جيوش الروس لم تفقد العلم والمدافع الا فى حربها مع التركمان فى سنة ١٨٨٠ .

خانية خيوة

وكان أوزبك خوارزم يدافعون عن دولهم رغم أن ظروفهم لم تكن لتساعد على ذلك ، وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر وقعت بخوارزم مأساة جديدة من فعل الطبيعة وظروف الاقليم ، فقد توقف جيحون بعض الوقت عن امداد فرعه الأيسر الذى يروى أوركانج كبرى مدن المنطقة ، وبدأ يصب مياهه كلها فى بحيرة آرال ، وظهرت فى دلتا جيحون عاصمة جديدة هى خيوه ، ومدن أخرى قامت فيها ــ لمدن محدودة ــ حكومة مستقلة سياسيا عن خيوه . ولما كان الخوارزميون أقل تأثرا بالمدينة الايرانية ، فقد استطاعوا أن يحافظوا على لغتهم وعلى تقاليدهم أكثر من البخاريين ، وفى القرن السادس عشر وضع لأحد الخانات وهو دوست خان

سجل جامع للتقاليد القوميه • وفى القرن السابع عشر أخرج أبو الغازى كتابه التاريخى المهم فحرره بلغة يفهمها الطفل فى الخامسة من عمره ، فلم يكتف باستبعاد الحكايات العربية الفارسية ، بل حاول أيضا ألا يستعمل الكلمات الجاغاتائية القديمة ، وكان أبو الغازى قد أقام بايران عشرة أعوام فكان لذلك من أصحاب الثقافة بالنسبة الى أبناء قبيلته •

وكان أبو الغازى يقبض على مقاليد الحكم بقوة ، وقد اصطنع — ليبرر استبداده — نظرية تشبه نظرية معاصره الانجليزى هوبس Hobbes وخلاصتها أن من واجب أفراد الجماعة أن يسلموا ارادتهم لواحد منهم محافظة على النظام ، وليس بعيدا أن تكون نظرية هوبس هذه قد وصلت الى أبى الغازى بواسطة بعض الانجليز المؤمنين بها ، والمقيمين وقتذاك بايران • وقد أعجب خليفته آنوشة بنظرية الحكم الاستبدادى الايرانية ، ولقب نفسه بعد فتح مشهد بلقب (شاه) ، ثم سمى القناة التى شقها بعد ذلك (شاه آباد) مما يدل على مدى اعتزازه بلقبه الجديد ، وعلى الرغم من هذا ، فلم تكن الظروف تساعد على اقامة عرش قوى فى خوارزم الصغيرة ، وما لبثت الأسرة بعد وفاة آنوشة أن انقرضت • وانتقل الحكم الى أيدى البطون البدوية التى حافظت — رغم هذا — على المبدأ القائل بأن حق اعتلاء العرش قاصر على أبناء جنكيزخان ، وهكذا كان القازاق يستقدمون من الاستبس الخانات المغلوبين فيولونهم العرش ، ويسمى المؤرخون هذا التقليد (لعبة الخان) = (خانبازى) وكان البخاريون يرون أن أوزبك خوارزم أصحاب أفكار مستقلة لا يتبعون أهواء حكامهم ، وقد بلغت الفوضى أقصى حدودها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، حتى لقد خربت مدينة خيوه تخريبا تاما ، ثم بدأ النظام يستتب منذ سنة ١٧٧٠ تحت حكم أسرة جديدة هى أسرة الـ (قونغرات) التى وفق أعضاؤها فى تأسيس حكومة قوية ببلادهم ، ثم لقبوا أنفسهم فيما بعد بلقب (خان) •

وفي سنة ١٨٤٠ كان خان خيوة لا يزال يحكم منطقــه واسعة تمتد من مرغاب الى ضفاف المجرى الادنى لسيحون ، ولكن حدود هــذه المنطقة ما لبثت أن ضــاقت كثيرا بسبب الثورات التى قام بها التركمان والقازاق، ولما استولى الروس على خيوه في سنة ١٨٧٣ تركوا خوارزم لخان خيوه ، وكانت حدود خوارزم قد ضاقت جــدا ، وعنــدما خططت الحــدود القومية فى سنة ١٩٢٤ تلاشت خــوارزم كدولة وألحق جزء كبير منها بأوزبكستان ، وألحق الباقى بتركمانستان ، فالى أى مدى كان هذا الاجراء المنبثق عن مبدأ القومية مرغوبا فيه ؟ هذه مسألة يمكن أن تعرض للمناقشــة ، والــواقع أن خوارزم لم تكن لها قومية خاصة منذ القرن الحادى عشر ، ولكنها ـ مع هذا ـ كانت كيانا قائما بذاته من حيث التقاليد وطراز المعيشة والخصائص الاقتصادية ، وكان من الطبيعى ألا يمحى هذا الكيان كله دون أن يخلف أثرا •

خانية بخارى

ولكن حياة الحكومات الأخرى لم تكن كثيرة القلاقل الى هذا الحد ، فلم يكن بالمناطق التى يحكمها خان بخــارى من العناصر المتضادة الا الأوزبك والتاجيك وكانت الســلطة السياسية فى يد الأوزبك •

ولما ضعفت سلطة الخان فى النصف الثانى من القــرن السابع عشر ، دخلت بعض المناطق تحت حكم رؤساء القبائل الأوزبكية المنعزلة وهكذا ، ظهر من جديد النظام الاقطاعى الذى كان سائدا فى تركستان فى القرن الرابع عشر ، أى فى نهاية العهد المغولى ، وقبل ظهور تيمور ، ولم يكن بد ـ عدا هذا ـ من وقف اعتداءات القازاق الذين كانوا قد خربوا سمرقند حتى تلاشت من الوجود بعض الوقت •

وقد كانت ـ بخارى على عكس خيوه ـ مصونة من مثل هذه الاعتداءات حتى فى أوقات الهزائم المنكرة التى كانت تتحملها وهى تجاهد أعداءها فى الداخل والخارج •

وفي عهد اسرة مانغيت الجديدة التي تلقب أعضاؤها بالامراء لم يطرأ اى وهن على سلطة خانات بخارى، بل اضطلع هؤلاء الأمراء بالكفاح المرير ضد أرستقراطية البطون الأوزبكية أو على حد تعبير العالم خانيكوف ضد الاقطاع البخارى ، ومع أن هذا الكفاح لم يكلل بالنجاح فانه زاد قوة حكومة الأمراء في بخارى ، حتى لقد استطاع بعضهم أن يضم خوقند — لفترة ما — الى مناطق حكمهم ، ونفذ هؤلاء الأمراء بعض مشروعات الرى احياء للزراعة التي كانت قد اضمحلت ، وتوطن الأوزبك الذين ألفوا حياة الحضر في الأماكن التي استصلحت من أراضي وادى زرفشان ، ولم يبق في أيدى التاجيك — مع بعض الاستثناءات — الا القرى الموجودة في الجبال ، ومع هذا ، فقد بقي أهالى المدن الرئيسية كسمرقند وبخارى تاجيكا • بل كان الأمراء أنفسهم تاجيك أكثر منهم أوزبك ، ويقول المؤرخون من أهل خيوه ان جيش بخارى كان مكونا من التاجيك مع أن العنصر الأوزبكى كان هو العنصر العسكرى في خانية بخارى •

خانيـة خوقنـد

وفي فرغانة حيث توطن العنصر التركي منذ العهد المغولى ، طرد التاجيك الى الجبال ، ومع هذا فقد كان التاجيك والأوزبك في فرغانة — كما كانوا في خوارزم — منفصلين عن السارت وكانت كلمة سارت تطلق في ذلك الوقت على سكان المدن من الناطقين بالتركية ، وكان هؤلاء السارت يشكلون في فرغانة قوة سياسية مهمة ، بل لقد حاربوا الأوزبك وبخاصة الفرع القبجاقي الذى استولى على الحكم بعض الوقت •

أما القازاق ، فكانوا يستعملون كلمة (سارت) بمعنى آخر ، اذ كانوا يستعملونها في مقابل كلمة (قازاق) التى تؤدى معنى (البدو) في الاستعمال الجارى عندهم ، اى أنهم كانوا يطلقون كلمة سارت على سكان المدن والقرى بغض

النظر عن اللغة التي يتكلمونها ، وفي القرن التاسع عشر وسع خوانين خوقند رقعة الأراضي المزروعة في فرغانه بما نفذوا من مشروعات الري ، كما بذلوا جهودا كبيرة لترقية الحياة الحضرية - وعدا هذا فقد حاربوا بخارى واستطاعوا أن يوسعوا المناطق الخاضعة لحكمهم الى سيحون من ناحية الشمال الغربي ، والى منطقة يدى صو في الشمال الشرقي ، ثم بدءوا يبذلون الجهود ليخضعوا القازاق والقيرغيز لحكمهم .

القازاق والقيرغيز والقالموق

وتطلق المصادر الروسية كلمة (قيرغيز) على شعبين مختلفين تمام الاختلاف هما القيرغيز والقازاق ، ثم قيل للقيرغيز (قاراقير غيز) تمييزا لهم عن القازاق وقد رأينا أن القازاق عبارة عن قسم من الأوزبك الذين تحرروا من حكم أبي الخير في القرن الخامس عشر فقط ، أما القيرغيز فقد كانوا موجودين منذ زمان بعيد ، وان كنا لا نستطيع أن نعلم متى ولا كيف توطنوا مكانهم الحالي في الجزء الجنوبي من منطقة يدى صو والشرقي من منطقة سيحون ، ومع هذا فلم يرد ذكر للقيرغيز في الأخبار المروية عن غزوات تيمور واولوغ بك ، وانما ذكروا أول ما ذكروا في القرن السادس عشر ، حيث كانوا يقيمون في منطقة يدى صو تحت حكم السلطان خليل بن الخان المغولي أحمد .

ولم يرد شيء عن المكان الذي جاءوا منه الى هذه المنطقة ، ودخل هؤلاء القيرغيز غير مرة خلال القرن السادس عشر تحت حكم خانات القازاق ، وحاربوا في صفوفهم ضد المغول المتتركين الذين كانوا يحكمون كاشغر ، وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر حاربوا مع القازاق المهاجرين المغول الوافدين حديثا وهم القالموق الذين كانوا قد حكموا لفترة ما آسيا الوسطى ، ومما يجدر ذكره أن القالموق اشتركوا في هذه الحرب لحسابهم الخاص ، وفي القرن الثامن عشر استولوا

على طاشقند وسايرام وتركستان وكانت كلها تابعة فى ذلك الوقت للقيرغيز ، بل خضعت لهم أيضا بخارى •

ولما كانت البوذية قد رسخت تماما عند القالموق فانهم لم يستطيعوا أن يدخلوا فى الاسلام ، كما دخل خلفاء جنكيزخان ، فلم يسلم الا عدد قليل يطلق عليه الآن (سارت قالموق) وما لبثت دولة القالموق هذه القوية ان دمرت على أيدى الصينيين سنة ١٧٥٨ ، وكانت الحرب من الضراوة بحيث أبيد فيها قسم كبير من القالموق ، وعندما أراد القالموق — خلافا لرغبة روسيا — أن يتجهوا من حوض الفولجا الى الشرق ، أنزل بهم القازاق ضربات جديدة قاصمة ، وبعد أن انتهت دولة القالموق حاول الصينيون أن يدخلوا القازاق والقيرغيز تحت حكمهم ، لكن روسيا تصدت لهم وكسبت الدعوى •

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ألغى الروس حكم الخانات بين القازاق ، أما القيرغيز فلم يكن لهم — من الأصل — خوانين من عنصرهم وهى ظاهرة لاحظوها هم أنفسهم ، ولما كان القيرغيز قد أدخلوا تحت حكم الروس بعد القازاق ، فقد استطاعوا — لذلك — أن يحتفظوا مدة أطول بتشكيلاتهم العسكرية وقد خلفت الحروب بين القيرغيز والقالموق آثرا فى الملاحم القيرغيزية (وخصوصا فى حكايات ماناس) ومع أن القيرغيز فى القرن التاسع عشر لم يكونوا يعلمون شيئا عن نصوص الاسلام وشعائره (مثلهم كمثل أسلافهم فى القرن السادس عشر) ، فان ملاحمهم هذه تصور هذه الحرب كأنها حرب دينية •

وقد حصل القيرغيز الآن — كما حصل القازاق — على حق تكوين جمهورية قومية •

ولأسباب مختلفة كان حظ القيرغيز فى القرن التاسع عشر أسوأ من حظ القازاق ، ومازالت حال القيرغيز الآن محزنة من الناحيتين الصحية والثقافية •

أتراك الألتاى واليتيسى

لم يكن لأتراك الالتاى ويتيسى الأعلى كيان سياسى خاص فاندمجوا فى دولة القالموق ، وقد قبل أتراك الآلتاى ـ بعد تكون الجمهوريات القومية ـ اسم (أوبرات) وهو فى أصله عنوان على القالموق .

تركســتان الشرقيــة

وكان القالمون قد استولوا فى القرن السابع عشر عــلى شرقى تركستان، حيث كان يحكم بعض خانات المغول المتتركين الذين يطلقون على أنفسهم اسم المغــول ، وبعــد أن تبدلت الظروف السياسية أخذ استعمال هذه الكلمة يزول تدريجيا مثلها كمثل اصطلاح (جغتاى) فى تركستان الغربية . ولم يحتفظ أتراك شرق تركستان باسمهم القومى حين كانوا تحت حكم القالموق ولا حين حكمهم الصينيون فيما بعد ، ولم تكن بهم حاجة الى هذا الاسم فقد كانت أقسامهم المختلفــة توسم باسم المكان الذى تعيش فيــه ، كان يقــال (كاشغرليق . طورفانليق الخ) . وكان الأمراء المســلمون يحملون غالبــا اللقب الصينى (وان) أى ملك ، وعدا هــذا فقد انتقلت السلطات السياسية ـ منــذ عهــد خانات المغول ـ الى رجال الدين وهم (الخوجات) أى العلماء الذين نشأوا فى فرغانه وبوجه خاص فى جزئها الشمالى الذى يســكنه التــاجيك ، ويمكن أن نصف حركات الخوجات بغرب تركستان بأنها جهاد قومى قام به التاجيك ضــد الأوزبك والقــازاق ، وأما فى تركستان الشرقية التى تم تتركها فقد كان العلماء مندمجين فى الترك ، وكانوا يحملون ألقابا تركية ، وقد كان يقال ان هؤلاء الخوجات هم ناشرو الاسلام فى تركستان الغربيــة ، ولكن ليس بالمصادر ما يدل على ذلك ، بل المعروف أن الاسلام قد استقر هناك منذ القرن الخامس عشر ، وأن خانات المغول كانوا ينشرونه بحماس ، بل بالقوة أحيانا ، فكانوا يلبسون

رعاياهم العمائم • بل يقال انهم أجبروا المغول على قص ضفائرهم ، وكان الخوجات ـ تقوية لنفوذهم ـ يحاربون تقديس مشايخ الصوفية المحليين مع أنهم مسلمون ومن المحتمل أن أماكن هؤلاء الأولياء كانت مقدسة قبل دخول الاسلام فى هذه المناطق حتى اذا أسلمت نسبت هذه الأماكن الى بعض الأولياء المسلمين ، وقد حدث مثل هذا فى أوربا حيث يقدس بعض قديسى النصارى فى أماكن كانت تقام فيها من قبل العبادات الوثنية •

وأما الحالة الثقافية في شرق تركستان فهى آلم من حالة الأوزبك ، اذ ضعف هناك أثر أوربا وغرب آسيا ، وكانت اللغة الفارسية هناك هى لغة العلم الى حد ما •

وفى منتصف القرن السادس عشر حرر محمد حيدر كتابه فى التاريخ باللغة الفارسية ، ويرى علماء أوربا أن هذا الكتاب هو الأثر العلمي الوحيد الذى حرر فى كاشغر ، وقد ترجم هذا الكتاب عدة مرات فيما بعد الى اللغة التركية التى صارت وحدها لغة الأدب ابتداء من القرن الثامن عشر ، ولكن منذ ذلك الوقت لم يظهر أثر أدبى له قيمة ، وكان من نتائج الحركات السياسية فى سنة ١٨٦٠ أن استعاد شرق تركستان استقلاله لمدة قصيرة ، وفى نفس الوقت ، كان غرب تركستان قد وقع فى قبضة الروس •

والواقع أن قصة الحرب فى شرق تركستان حافلة بالفجائع ، إذ لم تكن الحرب مستعرة بين الأهالى وبين الصينيين فحسب ، ولكنها كانت تستعر بين الأهالى أنفسهم لغير غاية ولغير سبب ، حتى لقد اعترف بعض المؤرخين المسلمين المحليين بأن الأهالى كان يسرهم أن تقوم من جديد حكومة صينية •

وبقيت تركستان الشرقية تابعة للصين حتى بعد سقوط أباطرة المانجو وقيام الجمهورية الصينية ، ولكن الأحداث فى روسيا أوجدت الأمل فى أن يكون لتركستان الشرقية على الأقل استقلال ثقافى وشخصية مستقلة •

ويريد المثقفون بتركستان الصينية الآن أن يسموا أنفسهم (الأويغور) مع أن حكم الأويغور لم يصل ابدا الى حدود كاشغر الغربية ، ومع أن بقايا من الاويغور مازالت تعيش فى أقصى الشرق على حدود الصين، وتدين هذه البقايا الاويغورية بالبوذية وقد كانت تستعمل الأبجدية الأويغورية التى نسيها الترك منذ القرن الخامس عشر ، وكان لها ـ بنفس هذه اللغة الأويغورية ـ أدب دينى خاص وان يكن مترجما ، ولكن هذه البقايا استبدلت أخيرا أبجدية التبت بالأبجدية الأويغورية ٠

المستقبل

ويرتبط مستقبل أتراك آسيا الوسطى كما يرتبط مستقبل غيرهم من الأمم بمدى مشاركتهم فى الحضارة العالمية ٠

ولا داعى لأن نتوقع الآن احياء الطريق التجارى الدولى الذى كان يربط غرب آسيا بالصين فى العصور الوسطى بانشاء خط حديدى يمتد من غرب آسيا الى الصين مارا بتركستان ٠٠ لا داعى للاعتماد على هذا المشروع الذى أثير أخيرا فى الصحف ، اذ من المستبعد أن يبحث هذا المشروع الذى تكتنفه كثير من الصعاب الفنية مع وجود الخط الحديدى الذى يصل الى الصين بطريق سيبيريا ، ولكن من المحتمل أن تستفيد تركستان وبخاصة تركستان الغربية اذا نفذ المشروع الذى طرح للبحث من زمن بعيد ، وهو مشروع مد خط حديدى من أوربا الى الهند ٠

اقرأ فى هــذه الســلسلة

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسريه والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج· دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د· جوهان دورشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د· السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د· مصطفى عنانى
مختارات من الادب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابريل بايىر
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف · س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س · م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د· سمبسون ونورمان د · اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د· انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ جـ)	حسين حلمى المهندس
الهيروبين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس

صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الاعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد ألدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر · بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د· صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م·هـ· كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د· السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا · هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيور

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د· فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / مونى براخ وآخرون،
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بيير برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج · بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار/ د· رفيق الصبان،
السينما الخيالية	بيتر نيكولز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر فى ألف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل.
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	أحمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود
حديث النهر	اعداد/ سوريال عبد الملك،
من هم التتار	د· ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ · ج · ولز

الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشارد ف · بيرتون
الحضارة الاسلامية	ادمز متز
الطفل (٢ ج)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقي	فرانسيس ج · برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج · كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو في السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف · م · بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكي	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج ستايز
ما هي الجيولوجيا	ويليام هـ · ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب · ناش
انواع الفيلم الأميركي	ستالين جين · سولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ ج	عبد الرحمن الشيخ
رحلات ماركوبولو ٣ ج	عبد العزيز جاويد
الفيلم التسجيلي	محمود سامى عطا الله
الرومانتيكية والواقعية	يانكو لافرين
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشي
تاريخ العلم والحضارة في الصين	جوزيف نيدهام

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٥٦٤٩

ISBN — 977 — 01 — 4794 — X

لعبت القبائل التركية دورا هاما في تاريخ آسيا على مدار ألف عام تقريبا، واصطدمت بالقوى السياسية والعسكرية الكبرى هناك وتداخل تاريخها مع تاريخ شعوب المنطقة.

وهذا الكتاب يعرض لتاريخ الترك منذ البواكير الأولى لنشأتهم أي منذ كانوا قبائل لم تحمل بعد ذلك الإسم الذي قدر لها أن تحمله طيلة تاريخها حتى دالت دولهم في وسط آسيا وخضعوا للروس والصينيين في العصور الوسطى.

ولا يقتصر الكتاب على العرض التاريخي، بل عني مؤلفه و.بارتولد (١٨٦٩ - ١٩٣٠) بدراسة التأثيرات الحضارية والدينية واللغوية والعوامل الجغرافية والإقتصادية والطرق والمسالك التجارية وغيرها من العوامل الإقتصادية والإجتماعية التي ساهمت في تشكيل تاريخهم.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب